

حَمَامَتُنَا تَطِيرُ بِرَيْشِ شَوْقٍ وَفِي مَنَاقِرِهَا تُحَفُّ السَّلَامُ
إِلَى وَطَنِ النَّبِيِّ حَبِيبِ رَبِّي وَسَيِّدِ رُسُلِهِ خَيْرِ الْأَنَامِ

الرسالة اللطيفة المشتملة على معارف القرآن ودقائقه
المسمّاة

حمامة البشرى

إلى أهل مكة وصلحاء أم القرى

بقلم:

سيدنا مرزا غلام أحمد القادياني

الإمام المهدي والمسيح الموعود ﷺ

اسم الكتاب: حمامة البشرى

الطبعة الحديثة: ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

Ḥamāmat-ul-Bushrā

By: Ḥaḍrat Mirzā Ghulām Aḥmad (Peace and blessings of Allah be upon him), ***the Promised Messiah and Mahdi, Founder of the Aḥmadiyyah Muslim Jamā'at***

© Al-Shirkatul Islamiyyah

First Published in UK in 2007

By: Al-Shirkatul Islamiyyah
Islamabad
Sheephatch Lane
Tilford, Surrey GU10 2AQ
United Kingdom

Printed in UK at:
Raqeem Press
Islamabad

ISBN: 185372 880 2

مَنْ عَادَى أَوْلِيَاءَ الرَّحْمَنِ فَقَدْ نَبَذَ الْإِيمَانَ بِالْحَمَانِ

إني قلت في بعض كتبي إن الله يسلب إيمان قوم يعادون أوليائه، فسألني بعض الناس عن علل هذا السلب، وقال إنما الإيمان يتم بالتَّبَاعِ كتاب الله وسنن رسوله، فما ندري أيَّ ضرر للإيمان بعداوة أحد من المسلمين، بل نقول إنها أقوال لا أصل لها وإن هي إلا وهم المتوهمين.

فاعلم أن هذا الرأي رأي ركيكٌ أنحف من المغازل، وأضعف من الجوازل، وإنما نشأ من قلة التدبر من طبعٍ فَقَدَ دَرَ الفكر الصحيح، وأكبَّ على الدنيا بالقلب الشحيح، وكان من معارف الدين من الغافلين.

والأصل في هذا الباب أن بني آدم كشخص واحد.. بعضهم كالرأس والقلب والكبد والمعدة والكلية وأعضاء التنفس، وهم سروات نوع الإنسان، وبعضهم كأعضاء أخرى. فالذين جعلهم الله كالرأس أو القلب وغيرهما من الأعضاء الرئيسية، فجعلهم مدارًا لحياة كل من سُمِّيَ إنسانًا، وكما أن الإنسان لا يعيش من غير وجود هذه الأعضاء، فكذلك الناس لا يعيشون بحياتهم الروحاني من غير وجود هؤلاء السادات من الرسل والنبیین والصديقين والمحدثين والشهداء والصالحين. فظهر من ههنا أن الموت الروحاني هو مطرحُ بُعْضِ الأولياء، فالذي اشتدُّ بُغْضُهُ ومُماراته بهذه الطائفة المقبولة، وتواترت

مباراته بتلك الفئة المحبوبة، وما امتنع وما تاب، وما دعا الله أن يتداركه، وما ترك السبَّ واللعن والطعن والخصومة، فأخر جزائه عند الله سلبُ الإيمان، وتركه في نيران الحسد والفسق والعصيان، حتى يلتحق برهط الشيطان، ويكون من الخاسرين.

والسرّ في ذلك أن أولياء الله قوم يحبهم الله ويحبونه، ولهم برهم تعلقات قوية، وله إليهم توجهات عجيبة، وعنايات لطيفة، وبينهم وبين الله أسرار لا يعلمها إلا حبُّهم، فيحبهم الله حبًّا عجيبًا، ويُعادي من عاداهم ويوالي من والاهم، ولا يدري أحدٌ لم أحبهم إلى تلك المرتبة، ولم أتمَّ لهم وظائف الوداد كلها، ولم صاروا من المحبوبين.

وقد جرت عادة الله تعالى أنه يُفيض الحق على قلوبهم، ويُجري لطائف العلوم في خواطرهم، ويظهر فكرتهم، ويُفصح حكمتهم، ويُعطي لهم علم تبصّر العواقب، واتقاء مواضع المعاطب، ويقود كل خير إليهم، ويطردهم كل شر منهم، ويُطلعهم على معارف كتابه وعلوم نبيه، ويربيهم من عنده، ويهديهم إلى صراطه، وينعم عليهم بنعماء الظاهرة والباطنة، ويحفظهم من مقامات منزلة الأقدام، ويجعلهم من المحفوظين، ويجعلهم من حُماة حوزة الإسلام، ويشرح صدورهم ويوجههم إلى حضرته التي هي مبدأ الفيوض، فيأتيهم الفيض في كل يوم غصًّا طريًّا، ويُفصح في صدورهم من ذلك الفيض الإلهي أنواع لوامع. والناس يعملون الخيرات تطبعا، وهم طباعا، ولا تصدر الأعمال الصالحة منهم تكلفا، بل تقتضيها فطرتهم السليمة، وتجري فيها إراداتُ الصلاح كفوران العين،

ولا يتكأءدهم من الأعمال الشاقة ما يتكأءد غيرهم. تراهم كالجبال عند الأوجال، وتبين شجاعتهم عند تبين الأهوال، يتحلّون بمحاسن الأخلاق، ويتخلّون مما يسم * بالأخلاق، يصبرون تحت مجاري الأقدار حبًا ومواطأة لا لتنوّه الأقدار، وبطيعون ربهم ببذل الروح واقتحام الأخطار، ابتغاءً لمرضاة الله لا لارتفاع الأخطار. لا يريدون ملل الخلاق، ولا تجد فيهم سوء الطبع وتوشين الخلائق. الراحون المحسنون إلى عباد الله، مألّ الأمل وئمال اليتامى والأرامل. يبعُدون عن كل كدورة وظلام وعن الهيئة الظلمانية، ويملأون من الأنوار والجواهر الإيمانية، ويصير صحن صدورهم مسعى للأوابد الروحانية، ويخرّون أمام السدّة الربّانية، وتغرق أرواحهم في بحار حضرته ساجدين. ويخرجون من النفس والهواء[©] والإرادة، ولا يدرون النفس ولذاتها، ويقلبهم الله يمينا وشمالا حكمةً من عنده، ويجدد لهم إراداتٍ بعد فناء الإرادات النفسانية كلها. ثم يُرسلهم إلى عبادته رحمةً منه، فيدعون الناس إلى الخير والصلاح، والسعادة والنجاح، فالذين يقبلونهم ويتبعونهم ويحذون حذوهم في كل أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، ولا يفارقون أظلالهم ولا يخرجون عما أمرهم، فينالون السعادة ويفوزون فوز السعداء، ويَرْضون الله ورسوله ويكونون مُباركين.

* يبدو أنه سهو من الناسخ، والصحيح: "يضم". (الناشر)

© يبدو أنه سهو من الناسخ، والصحيح: "الهوى". (الناشر)

فالحاصل أن خدمة هؤلاء الكرام عنوان السعادة، ومحبتهم استثمار المعرفة، ومصافاتهم مُصافاة الله، وبثّ مدائحهم زمام الفلاح، وتطلّب مثالبهم من أمارات الطلاح، وتتبع عيوبهم مدحض المحسنات، وتكلف كلفهم كقارة السيئات. فالذين ما انتظموا في سمطهم، وما انخرطوا في جماعتهم، وما التحقوا برهطهم، بل عادّوهم وخالفوهم، وتجاوزوا الحد في مَقْتهم عند المخاصمات، وتعدّوا الأدب في المكالمات، فأحبط الله عملهم، وأرداهم وباءوا بسخط من الله، ورجع إليهم نكالاً من الله وغضباً من عنده، فنزع الله من قلوبهم كلّ حلاوة الإيمان ونور العرفان، وتركهم في ظلمات خاسرين مخذولين.

ثم اعلم أن كل ما قلنا هي علل روحانية لسلب إيمان المخالفين، وأما الأسباب الخارجية لخسارتهم وبُعدهم عن الحق، فهي أسباب أعدّوها لهم من عند أنفسهم، فهي أنهم يُخالفون إمام الوقت وخليفة الزمان في كل قوله وفعله وعقيدته، مع أنه على الحق ومؤيد من الله تعالى، فكلما يُخالفونه ويتركون طريقه فيبعدون عن طرق السعادة والصدق والصواب، ويطرحهم شقوتهم في فلولات الخسران والتباب فيصيرون من الهالكين.

ومن المعلوم أن الرجل الذي خالف الحق وخالف الذي يدعو إلى الحق على بصيرة، فلا بد له أن يقع في هوة الخطايا، فإنه خالف المحفوظ المصيب المؤيد من الله. ثم معلوم أن المخالفة إذا بلغت منتهاها، فتزيد شقاوة المخالف يوماً فيوماً، فيكون حريصاً على رد كل

كلمة الحق والحكمة والصدقة التي أُعطيت لإمام الزمان، بل هذا هو النتيجة الضرورية اللازمة لكمال العناد، فإن العناد إذا بلغ كماله فيجتري المعاند لشدة عناده يوما فيوما على المخالفة حتى يقع يوما في مخالفة عظيمة تُهلكه وتسلب إيمانه، فيلحق بالمخذولين. ألا ترى أنك إذا اخترت طريقا على وجه البصيرة وتعلم أنه طريق مستقيم يُوصلك إلى منزلك ودارك سالما غانما، ومعك في سفرك عدو شقي، فحمله عداوتك على أن يختار لنفسه طريقا آخر يُخالف طريقك مع أن فيه قطاع الطريق وسباع وأفاعي وآفات أخرى، فلا شك أنه ألقى نفسه إلى التهلكة، فإن هلك فما كان سبب هلاكه إلا مخالفتك، فتدبر واتق الله ولا تكن إلا مع الصادقين. ولا تؤذ صادقا ولا تُعنِ الذي أبلى في هيجائه، بل لا تكن من الذين هم نظارة ذلك الحرب، ورضوا بالطنع والضرب، وأفاضوا في سماع كلمات فيها استخفافه، وثب مع الذي تاب، فإن الصالحين قوم إذا أراد الله نصرهم فيخلق من لدنه الأسباب ويؤدي العُجاب، ويأتي المعادين من حيث لا يعلمون، ولا يُخزي عباده المحبوبين. فأوصيك أن لا تُثارهم، ولا تخالف قولهم بفهم أنحلّ وعقلٍ أقحلّ، ولن تبلغ أفهامهم وعلومهم، ولو كان عندك جبل من الكتب، فإنهم يؤتون علما وفهما من لدن ربهم، وتورّ أفهامهم، وتُصقّى عقولهم، وتوسع مداركهم، ويعصمهم يد الرب من مزلّة، وربما تسمع من أفواههم كلمات هي عندك كلمات الكفر وأقوال الارتداد، وأما إذا فكرت أنت وأمثالك في كلماتهم بقلب سليم ورأي حرّ،

ودعوتَ الله أن يفهمك، فإذا هي معارف الحكمة ولآلى المعرفة، فإن كنت سعيداً فتقبلها بعدما فهمتها، وإن كنت شقيّاً فتبقى على إنكارك وتحدد وتختار التكذيب لنفسك، فتسفك دمَ إيمانك بيدك، وتلحق بالذين هم ضيعوا إيمانهم، وهم يعلمون وما كانوا مهتدين.

يا مسكين! لا تعجل.. ولا تُكفر عبداً اصطفاه الله وتراه يصلي ويصوم ويستقبل القبلة، وتجد فيه سمة الصلحاء واتباع السنّة، ولا تعجل على ما ادّعى من الكمالات والمعارف، فإن في الإسلام قوما يُؤثّون حكمةً روحانية من ربهم، لا يفهم أقوالهم كلُّ غبي وبليد. فراستهم قد أوتيت من الإصابة، وعقولهم فاقت عقول العصاة، وفهمهم يُفصح عن كلِّ مُعَمّى، ولا يطيش سهمهم في مرمى، وما يضرهم شيطان فيتبعه الشهاب، وما يصل إليهم سهم وإن تخلو الجعاب. يُؤثّون من لطائف العرفان، ولهم يد طولى في البيان، وتعريضهم أدلُّ من تصريح غيرهم، وكلامهم تتجلى ♦ في الألوان، ويسمح خواطرم للإفاضات، وهم أعمدة الدنيا وعُمدُ الدّين، وللخلق وجودهم كروح الحياة، ومن عاداهم فقد بارزه الله للحرب، فتارة يأخذه من غير إمهال، وتارة يؤجله أجلاً ويُرخي له طولاً، حتى إذا جاء وقته فيحرق كُتبتَه صاعقةً العذاب، ويجعله كأن لم يكن من العائشين.

بسم الله الرحمن الرحيم يا حيّ يا قيّوم برحمتك أستغيث

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وبلّغه إلى مراتب العرفان واليقين. والصلاة والسلام على رسوله نبي أمي إمام المعلمين من الأنبياء والمرسلين، وإمام كل من نطق عن الوحي وكتب علم الحكمة ومعارف الدين؛ الذي ما برى القلم قطّ وما قطّ، وما احتجر اللوح وما خطّ، وخلق الله في أحسن تقويم ففاق خلق العالمين، وأصحابه الهادين المهتدين، وآله الطيبين الطاهرين.

أما بعد.. فإنه قد وصل إليّ مكتوب من مكة.. شرفها الله وعظّمها.. فلما قرأته علمتُ أنه مكتوب كتبه بعض أحبائي من المبايعين، وعرفت أنه يريد لأعرّف أهل مكة من بعض حالاتي. فما رضي قلبي بأن أكتب إليهم الأمر المجمل المطويّ، بل أردت أن أبين بيانا تطمئن به قلوبهم، وتحصل لهم معرفة ويتقوى به رأيهم ووجدانهم وفراسطهم، فغلب هذا القصد على قلبي، ونُثفت في روعي أسرار لأهل مكة، حتى امتلأت نفسي ونسمتي بها، وكتبْتُها في مكتوب وأرسلت إليهم، ثم بدا لي أن أرتبه بصورة رسالة وأشيّعه في الناس بعد طبعه لينتفع به خلق، وليكون كسراج منير للطالبيين.

فالآن نشرع في المقصود، ونكتب أولاً المكتوب الذي جاء من أهل مكة، ثم نكتب مكتوبا أرسلنا إليهم، وما توفيقنا إلا بالله الذي يتولى عبادَه، وهو أرحم الراحمين.

المكتوب الذي جاء من مكة شرفها الله وأعز
أهلها

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

سلام الله تعالى ورحمته وبركاته وأزكى تحيته على حضرة جناب مولانا وهاديننا ومسيح زماننا غلام أحمد، كان الله تعالى في عونته، آمين يا رب العالمين.

أما بعد، أعزّفكم أني وصلتُ مكة بخير وعافية، وكلما جلست في مجلس أذكركم وأذكر قولكم، وجميع الذي ادعيتموه من الآيات والأحاديث، فصار الناس يتعجبون، والبعض منهم يُصدّقون ويقولون اللهم أرنا وجهه في خير.

ولما فرغنا من شهر الحج وهلّ علينا شهر عاشوراء، مررت يوماً من الأيام على واحد من أصحابنا اسمه "علي طابع"، فجلست عنده، فسألني عن الهند وعن السفر وأحواله، فأخبرته بالذي حصل، وأخبرته عن دعواكم، وفهمته على أحسن ما يكون، ففرح بذلك، وقلت له: هو رجل حلیم عظیم إذا رآه المؤمن يُصدّق به. فالكلمات التي فهمتها إياه طفق يذكرها عند كل أحد من الناس، وقال لي: متى يجيء إلى مكة؟ قلت له: إذا أراد الله سبحانه وتعالى يجيء إلى مكة - شرفها الله تعالى - عن قريب. والآن ألف كتباً عربية في إثبات دعواه، يريد أن يرسلها إن شاء الله تعالى. هذا ما قلت لعلي طابع.

ثم لما أن أردت إرسال هذا الكتاب، قلت له أنا أريد أن أرسل لمولانا كتابا. فقال لي: قل له في الكتاب يُعجل بارسال الكتب التي ألّفها ويُعجل بالمجيء بنفسه إلى مكة. فقلت له: حتى يأذن الله. وقلت له لولا مخافة الفتن ما تركتُ الكتب التي ألّفها مولانا وجئت بها. فقال لي: لم خفت؟ لو جئت بها لكان خيرا. ثم قال لي اكتب لمولانا يُرسل الكتب على اسمي وأنا أقسمها وأطلع عليها شريف مكة والعلماء وجميع الناس ولا أبالي من أحد. وقال: أنا أعرف أن المؤمن إذا سمع ذكر هذا الرجل يفرح، والمنافق يغضب.

وهذا الرجل المذكور الذي اسمه "علي طايغ" ساكن في شعب عامر، وهو رجل طيب من الأغنياء، وصاحب بيوت وأملاك وتاجر عظيم. فأنتم أرسلوا الكتب باسمه وبهذا العنوان يصل إن شاء الله تعالى: إلى مكة المشرفة، ويُسلّم بيد علي طايغ تاجر الحشيش^①، في حارة الشعب، يعني شعب عامر.

وسلّم منا على مولانا نور الدين، وعلى مولانا السيد حكيم حسام الدين، وسلّم منا على كافة إخواننا، كل واحد منهم باسمه.. صغيرهم وكبيرهم، وخصوصا فضل الدين وولد أخته مولانا عبد الكريم، وإنا لهم من الداعين في بيت الله الحرام، وخصّ نفسك بألف سلام.

① أي العشب أو العلف للحيوانات. (الناشر)

الراقم بذلك: أحقر عباد الله الصمد محمد بن أحمد، ساكن
شعب عامر

20 شهر عاشورا سنة 1311هـ

الجواب

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

إلى المحب المخلص.. حي في الله محمد بن أحمد المكّي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد، فإنه قد وصلني مکتوبك وقرأته من أوله إلى آخره، وسرّني كلُّ ما ذكرته في مکتوبك، وشكرت الله على أنك وصلت وطنك وبيتك بالخير والعافية، ولقيت الأحباب وعشيرتك الأقربين.

وأما ما ذكرت طُرفاً من حسن أخلاق السيد الجليل الكريم علي طابع وسيرته الحميدة وآثاره الجميلة، ومودّته وحسن توجّهه عند سماع حالاتي، ومن أنه سرّ بذلك، فأنا أشكرك على هذا، وأشكر ذلك الشريف السعيد الرشيد، وأسأل الله لك وله خيراً وبركة وفضلاً ورحمة إلى يوم الدين.

وقد أُلقيَ في قلبي أنه رجل طيب صالح، وعسى أن ينفعنا في أمرنا، ويكمل الله لنا بعض شأننا بتوجهه وحسن إرادته وعلى يده، والله يدبّر أمور دينه كيف يشاء، ويجعل من يشاء وسيلة لتكميل مهمات الإسلام، ويجعل من يشاء لدينه من الخادمين. وفطنتُ بفراستي أن ذلك السعيد الذي ذكرت محامده في مکتوبك رجل شجاع في سبيل الله لا يخاف لومة لائم عند إظهار الحق وإشاعته وتأنيده وتشييده، وقد جمع الله فيه سِيراً محمودة، وأخلاقاً فاضلة، مع

الفتوة والشجاعة، وانسراح الصدر، وجود النفس، والورع والتقوى، ومنَّ عليه بتوفيق الإخلاص والاجتهاد في سبيل الله، كما منَّ عليه بإعطاء الثروة والغناء، وجعله في الدنيا والآخرة من المنعمين. وكذلك إذا أراد الله بعبد خيرا فيعطيه من لدنه قوة في الخيرات، وطاقة في الحسنات، ويجعل من سيره القيام بمهمات الدين والفكر لإحياء الملة وإشاعة كتبها، وتمزيق دساتير الشياطين الملعونين؛ فلا يخاف إلا الله، وإن ير خير الدين في أمرٍ من بذل روحه وإهراق دمه فيقوم مستبشرا للشهادة، فيعتصم بجبل الله جميعا من قوة بدنه وقلبه وجوارحه وعقله وفهمه، ويُنهض كل ذراته لطاعة الله وانقياد أوامره، ولا يغفل عن ربه طرفه عين، ويقف بالمرصاد في كل حين. ويُشمر الذيل لإفشاء أحكام الله وإعلائها وإن كان فيه خطر عظيم أو عذاب أليم. ويبارز كالفحول ولا يقربه أثر الجبن والحؤول، ولا يتأخر لخطب حشَى وخوف غشَى، ويُنصّ للدين ركاب السرى، ويُجِبُّ لتأييده كلَّ وعور وجبالٍ على، ليرضي الله المولى ويدخل في المحبوبين.

وإني أرى أن أذكر لهذا الفتى النجيب قليلا من حالاتي، ومما أنا عليه من هداية ربي، وأكشف له عما منَّ الله به عليّ، وأعرّفه من بعض سوانحي، لعله يزيد معرفة في أمري، ولعله يتفكر ويعلم ما أراد الله رب العالمين.

فاعلموا يا إخواننا.. رحمكم الله وحماكم وحفظكم.. أن الله اطلع على الأرض في هذا الزمان فوجدها مملوءة من الفسق والكفر والشرك

والبدعات، وأنواع المعاصي ومكائد المتنصرين. ورأى أن أرض قلوب الناس قد فسدت، وكل قرية عامرة ومزارع صلاحها تعطلت، وغلبت الضلالة على كل برّ وبحر، وأفواج الفتن من كل جهة ظهرت، وقلّ أثر الصالحين.

ورأى الناس أنهم قد مالوا إلى اعتقادات رديّة فاسدة، وعزوا أموراً إلى حضرة الوتر سبحانه يجب تنزيهه عنها. ورأى أن النصارى جعلوا عبدا عاجزا إلهاً، وخرقوا لإثبات الألوهية دلائل من التوراة والإنجيل بتأويلات منحوتة من عند أنفسهم، وصاروا في الأرض أئمة المفسدين. وقد أضلوا خلقاً كثيراً، وارتبط بهم كل قلب فاسد ارتباطاً ذراري الشيطان بالشیطان، وجاءوا من لطائف حيلهم بسحر مبین.

يستجلبون الناس إلى دينهم بأنواع من التداير التي لا نهاية لها، فرغب إليهم كثير من عبدة الأوثان وجهلاء المسلمين المحجوبين، وأذعن المرتدون لهم وصدّقوا مفترياتهم، وآمنوا بتمويهاتهم، ودخلوا في دينهم الباطل، ونزعوا عن أنفسهم ثياب دين الإسلام، وغشّوهم الغي كالسيل المنهمر، وأدركهم العطب كالوباء العام، فهلكوا مع الهالكين. وما بقي قوم في الهند ولا قبيلة في هذه الديار إلا دخل بعض منهم في دين التنصر إلا ما شاء الله. وكانت هذه بليّة عظيمة على دين الإسلام ما سُمِعَ نظيرها من قبل وما وُجِدَ مثلها في الأولين. ولو فصلنا أنواع فتنهم وأقسام مكائدهم لرأيت أمراً يهولك الاطلاع عليه، ولَمُلئتُ خوفاً وحزناً، ولبكيّت على مصائب المسلمين.

وما كان دليلهم على ألوهية المسيح إلا أنهم زعموا أنه خلق الخلق بقدرته، وأحيا الأموات بألوهيته، وهو حيّ بجسمه العنصري على السماء، قائم بنفسه مُقَوِّمٌ لغيره، وهو عين الرب والرب عينه، وحمل أحدهما على الآخر حمل المواطة، وإنما التفاضل في الأمور الاعتبارية، أزيُّ أبدِيٍّ وما كان من الفانين. ويُجَوِّزون الله تنزلاتٍ في مظاهر الأكوان، ثم يختصونها بجسم المسيح جهلاً وحمقاً، وليس عندهم على هذا من دليل مبين.

ويسبّون رسول الله ﷺ ويشتمون وينحتون في شأنه بهتاناً، ولا يتكلمون إلا بسبيل التعنيف والتهجين والتوهين. وألّفوا في الرد على الإسلام وتوهين رسول الله ﷺ ألّوا من الكتب وطبعوها وأشاعوها في البلاد، وتبعوا آثار إبليس اللعين.

فلما بلغت فتنة إلى هذا المبلغ وأضلّوا جيلاً كثيراً، اقتضت رحمة الله الرحيم الكريم أن يتدارك عباده ويُنجيهم من كيد الكافرين. فبعث عبداً من عباده ليؤيد دينه، ويجدد تلقينه، وينير براهينه، وينضّر بساتينه، ويُنجز وعده ويُعزّز حبيبه وأمينه، ويجعل الأعداء من الخاسرين. وخصّني بعناياته، وأمرني بإلهاماته، وربّاني بتفضلاته، وأيدني بتأييدات متعالية عن طور العقل، وآتاني من لدنه العلوم الإلهية والمعارف والنّكات، وشفّعها الآيات، ليتعاطى الناس مني كأس البصيرة واليقين.

فيا حسرة على قومي! إنهم ما عرفوني وكذبوني، وسبّوني وكفّروني، ولعنوني كما يُلَعَن الكافرون. فتصدّى كل أحد منهم بالغلظة والفظاظة والغیظ والغضب والاستيشاط، ودرأنا بالحسنة السيئة، ولكنهم ما تجافأوا عن الاشتطاط، وما سمعوا قول ناصح، ونسوا وألغوا وعيد الله الذي أُعِدَّ لقوم مجرمين. وصدّوا خَلْق الله عن سبيله، وأرادوا أن يُطفئوا نور الحق بأفواههم، وقاموا في كل طريق عنيت، فلأجل شرورهم سئمتُ التكاليفَ وتعنيتُ، ومع ذلك خاطبتُهم بالين القول وطريق الرفق والموعظة الحسنة، ومهلّتهم وعفوت عنهم صبرا مني، فإنهم لا يرون مجالي الحق وظهوراته، ولا يعرفون المعارف الدقيقة وما أخذها، ولا يقبلون جنوبهم إلا كالنائمين.

ويجادلونني في أسرار قبل أن ينظروا فيها ويُفتشوا حقيقتها، وقد عجزوا أن يحتجّوا عليّ بوجه المعقول والمنقول، وسقطوا عليّ كالجُهلاء والسفهاء، وأرادوا أن يغلبوا بالسبّ والشتّم والتكفير والبهتان، وفَقّوا ما لم يكن لهم به علم، وتركوا سبيل المتقين. وما تركوا شيئا من سوء الظن وترك الأدب والافتراء والقيام بمخالفة الحق، وما شهدوا إلا بـُزُورٍ، وما جادلوا إلا بمكائد الشياطين. فلما اضطربت نار الفساد بأيديهم، وانطلقتُ إلى دخان الفتن أرجلهم، سألتُ الله ربي أن يُعيني من لدنه ويؤيدي من عنده، وقلتُ ربنا افتَح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين.

فأَيَّدني ربي بآيات، وأنار أمري ببركات، وأتم حجتي على الطالبين، ولكنهم ما خلَّو سبيلي وما كانوا منتهين. وجحدوا وقد تبين الرشد من الغي وحصَّص الحق. فأعجبني إنكارُهم وقساوة قلوبهم، إنهم رأوا علامات صدقي وآيات قبوليتي، وما رجعوا إلى الحق وما كانوا راجعين. يا حسرة عليهم! إنهم لا يفهمون حقيقة الواقعات، ولا يقبلون الآيات، بل يحتالون عند رؤيتها ويتعامون مع وجود الأبصار، ويفترون عليّ أشياء ويريدون أن يُطفئوا نور الإسلام، وصاروا ظهيرا للكافرين. وكان الحق واضحا صريحا مشرقا كالشمس، ولكن أخذتهم العزة والحسد والبخل، فطَبَعَ الله على قلوبهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، فما استطاعوا أن يروا الحقيقة كالمبصرين. إنهم شابهوا اليهود ونزلوا منازلهم بتوارد الأعمال والأفعال والنيات والخواطر، ووقع هذا التوارد كما يقع الحافر على الحافر، وما انتهوا بل يزدون في كل حين. والذين مَنَّ الله عليهم بالهداية، وأراهم نَهْج الصدق والصواب، فأولئك الذين ينظرون إليَّ بحسن الظن، ويفكِّرون في أمري بنور القلب، فينبئهم نوره بحقائق صدقي، ويقبلون ما أقول لهم، ولا يشابهون تلك السفهاء الجهلاء، ويسلكون مسلك الأتقياء، ويتبعون سبيل السعداء، ويأخذون أدب الصلحاء، وقد أنزل الله عليهم سَكينة من عنده وجعلهم من المستيقنين. يتقون الله ويخافون مقامه وليسوا كالذي يَذر الآخرة ويلغِيها، ويحب العاجلة ويتغِيها، ويظلم الفئة

الصالحة ويؤذيها، ويسعى في الأرض ليفسد فيها، ويضل أهلها ويكفر قوما مؤمنين.

وإن أحبائي لمتقون جميعهم، ولكن أقواهم بصيرةً وأكثرهم علمًا، وأفضلهم رفقا وحلمًا، وأكملهم إيمانًا وسلما، وأشدّهم حبًا ومعرفةً وخشيةً و يقينًا وثباتًا، رجلٌ مبارك كريم تقيّ، عالم صالح فقيه محدث جليل القدر حكيم حاذق عظيم الشأن، حاجّ الحرمين حافظ القرآن، القرشي قومًا والفاروقي نسبًا، واسمه الشريف مع لقبه اللطيف: المولوي الحكيم نور الدين البهيري، أجزل الله مثوبته في الدنيا والدين. وهو أول رجال بايعوني صدقًا وصفاء وإخلاصًا ومحبة ووفاء، وهو رجل عجيب في الانقطاع والإيثار وخدمات الدين. أنفق مالا كثيرا لإعلاء كلمة الإسلام بوجوه شتى، وإني وجدته من المخلصين الذين يؤثرون رضى الله سبحانه على كل رضاء ونساء وبنات وبنين. ووجدته من قوم يبتغون مرضاة الله ويجتهدون لرضوانه ببذل أموالهم وأنفسهم، ويعيشون في كل حال شاكرين. وإنه رجل رقيق القلب نقى الطبع حلیم كريم جامعٌ لماثر الخير، كثيرُ الانسلاخ عن البدن ولذاته. لا يفوته موقع من مواقع البر، ولا موضع من مواضع الحسنات، ويحب أن يسكب دمه كماء في إعلاء دين رسول الله ﷺ، ويتمنى أن تذهب نفسه في تأييد سبيل خاتم النبيين، ويقفو أثر كل خير، وينغمس في كل بحر لإجاحة فتن المتمردين.

فأشكر الله على ما أعطاني كمثّل هذا الصديق الصدوق، الفاضل الجليل الباقر، دقيق النظر عميق الفكر، المجاهد لله والمحِب في الله بكمال إخلاص ما سبقه أحد من المحبين.

وأشكر الله على ما أعطاني جماعة أخرى من الأصدقاء الأتقياء من العلماء والصلحاء العرفاء، الذين رُفعت الأستار عن عيونهم، ومُثلت ❖ الصدق في قلوبهم. ينظرون الحق ويعرفونه، ويسعون في سبيل الله ولا يمشون كالعميين. وقد حُصُّوا بإفاضة تَهَتَّان الحق ووابل العرفان، ورضعوا ثدي لبانه، وأشربوا في قلوبهم وجه الله وطرق غفرانه، وشرح الله صدورهم وفتح أعينهم وآذانهم، وسقاهم كأس العارفين.

فمنهم الأخ المكرم العالم المحدث الفقيه الجليل السيد المولوي محمد أحسن، كان الله معه في كل موطن، ونصره في الميادين. إنه رجل صالح تقِيّ غيور للإسلام، هَدَمَ هيكل جهالة العلماء المخالفين بتأليفات لطيفة، وأطفأ نارهم وجاء بنور مبين، وأطفأ الفتن المتطائرة بماء معين. ورزقه الله ذخيرة كثيرة من علوم الدين والآثار النبوية، وله بسطة عجيبة في فن الأحاديث وتنقيدها وتمييز بعضها من بعض، والمخالف لا يمكث في ميدانه طرفة عين، وهُم مع تحريكات غيظهم وغضبهم وكثرة إمعانهم وخوضهم وشدة حرصهم على المناضلة يفرّون منه كفرار الحمير من الأسد، وإن هذا إلا تأييد الله الذي هو مؤيد الصادقين. ومع ذلك

إنه زاهد متّق، كثير البكاء من خوف الله، يخاف مقام ربه ويعيش كالمساكين.

هذا ما أردت أن أقص عليك قليلا من شمائل أحبائي، وما هذا إلا فضل ربي ورحمته. إنه كان بي حَفِيًّا مذ كنتُ صغيرا ومُذ أُيْفَعْتُ، وتولاني وكفلني في كل أمري. وكذلك صرف إليَّ نفراً من العرب العرباء، فبايعوني بالصدق والصفاء. ورأيت فيهم نور الإخلاص، وسمّة الصدق، وحقيقة جامعة لأنواع السعادة، وكانوا متصفين بحسن المعرفة، بل بعضهم كانوا فائضين في العلم والأدب، وفي القوم من المشهورين. وألّف بعضهم رسالة* في تصديقي وتأیيدي، ورَدَّ على الذين كانوا من المنكرين. ورأيت أنهم يميلون إليَّ بالتودد والتحبب ولا يُشَاهِونَ بعض علماء الهند، ولا يُصَرِّونَ على الإنكار بعدما فهموا، فهذا هو السبب الذي حملي على تأليف بعض الرسائل العربية، وحثني على دعوة تلك الشرفاء والمسعودين.

وكنت أريد أن أرسل إليكم تلك الرسائل، ولكني سمعت أن بعض عَمَلَةَ السُلْطَانِ يفتشّون في الطريق ويقرأون الكتب، ويحرّفونها بأدنى ظن. فأيتها الأعزة! أنبئوني كيف أرسل، وبأي تدبير تصل إليكم، وأنا أجتهد في مكاني لهذا المقصد وأشاور المجربين.

* تلك الرسالة المسماة "إيقاظ الناس" ألّفها حيي في الله أول المبايعين إخلاصا وصدقا من بلاد الشام.. السيد العالم التقى.. محمد سعيدي الطرابلسي الشامي النشار الحميداني، وقد أحقّقها بمكتوبي هذا لينتفع بها كل فهِيم من الناظرين. منه.

وإني معكم يا نُجباء العرب بالقلب والروح، وإن ربي قد بشرني في العرب، وألهمني أن أموهم وأريهم طريقهم وأصلح لهم شؤوهم، وستجدوني في هذا الأمر إن شاء الله من الفائزين.

أيها الأعزة! إن الرب تبارك وتعالى قد تجلّى عليّ لتأييد الإسلام وتجديده بأخصّ التجليات، ومنح عليّ وابلّ البركات، وأنعم عليّ بأنواع الإنعامات، وبشّرني في وقت عبوسٍ للإسلام، وعيشٍ بؤسٍ لأُمَّةٍ خير الأنام، بالفضلات والفتوحات والتأييدات، فصبوتُ إلى إشراككم.. يا مشعر العرب.. في هذه النعم، وكنتُ لهذا اليوم من المتشوفين. فهل ترغبون أن تلحقوا بي لله رب العالمين؟

وإن بعض علماء هذه الديار لم يزالوا يبتغون بي الغوائل، ويريدون بي سوء ويتربصون عليّ الدوائر، ويتطلبون لي العثرات، ويكتبون فتاوى التكفيرات. وكنت أقول في نفسي: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. فألهمني ربي مبشراً بفضلي من عنده وقال: "إنك من المنصورين". وقال: "يَا أَحْمَدُ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ، مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى، لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ وَلِتُستَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ". وقال: "قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَإِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ". وقال: "أَنْتَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ وَمَا أَنْتَ بِفَضْلِهِ مِنْ مَّجَانِينَ. وَيُخَوِّفُونَكَ مِنْ دُونِهِ. إِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا. سَمِعْنَاكَ الْمُتَوَكِّلَ،

يَحْمَدُكَ اللَّهُ مِنْ عَرْشِهِ. وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ". فأدخل الله سبحانه في لفظ اليهود معشر علماء الإسلام الذين تشابه الأمر عليهم كاليهود، وتشابهت القلوب والعادات والجذبات والكلمات من نوع المكائد والبهتانات والافتراءات، وإن تلك العلماء قد أثبتوا هذا التشابه على النظارة بأقوالهم وأعمالهم، وانصرافهم واعتسافهم، وفرارهم من ديانة الإسلام، ووصية خير الأنام p، وكونهم من المسرفين العادين.

وكنت أظن بعد هذه التسمية أن المسيح الموعود خارج، وما كنت أظن أنه أنا، حتى ظهر السرّ المخفي الذي أخفاه الله على كثير من عباده ابتلاءً من عنده، وسمّاني ربي عيسى ابن مريم في إلهام من عنده، وقال: "يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْفَعْ يَدَيْكَ وَارْفَعْكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرْكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِنَّا جَعَلْنَاكَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، وَأَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةٍ لَا يَعْلَمُهَا الْخَلْقُ. وَأَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةٍ تَوْحِيدِي وَتَفْرِيدِي، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ".

فهذا هو الدعوى الذي يجادلني قومي فيه ويحسبونني من المرتدين. وتكلّموا جهاراً، وما رجّوا لِمْلِهِمُ الحق وقارا، وقالوا إنه كافر كذاب دجّال، وكادوا يقتلونني لولا خوف سيف الحكام، وحثّوا كل صغير وكبير على إيذائي وإيذاء أصدقائي، والله يعلم تطاول المعتدين.

وبعزة الله وجلاله، إني مؤمن مسلم، وأؤمن بالله وكتبه ورسله وملائكته والبعث بعد الموت، وبأن رسولنا محمد المصطفى p أفضل

الرسول وخاتم النبیین. وإن هؤلاء قد افتروا عليّ، وقالوا إن هذا الرجل يدّعي أنه نبي ويقول في شأن عيسى ابن مريم * كلمات الاستخفاف،

* وقالوا إن في حديث مسلم وغيره من الصحاح.. قد جاء ذكر عيسى و ذكر الدجال المعهود بنحو يظهر منه أن عيسى بن مريم ينزل لقتل الدجال، والدجال المعهود رجل أعور عين اليمنى كأن عينه عنبة طافية، ومكتوب بين عينيه: ك ف ر، وإنه يجيء معه بمثل الجنة والنار، فالتى يقول إنها الجنة هي النار، وهو ممسوح العين عليها ظفرة غليظة، وإنه شاب قَطَطٌ، خارجٌ حَلَّةً بين الشام والعراق، فعات يمينا وعات شمالا، ولَبَنُهُ في الأرض أربعون يوما.. يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيام أهل الأرض، وإسراعه في الأرض كغيث استدبرته الريح، ويَأْمُرُ السَّمَاءَ فُتْمُطِرَ والأَرْضَ فُتْنَبِتَ، وتتبعه كنور الأرض كيعاسيب النحل، ويدعو رجلاً مُتَمَلِّئاً شَبَاباً، فَيَضْرِبُهُ بِالسِّنِّبِ فَيَقْطَعُهُ جِزْلَتَيْنِ رمية الغرض، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعاً كَفَّيْهِ عَلَى أَحْبَحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ مِثْلُ جُحَانٍ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ مِنْ رِيحِ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يَدْرِكَهُ بَابَ لَدٍّ، فَيَقْتُلُهُ. ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى قَوْمَ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وَجُوهِهِمْ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى أَنِي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقَتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ. وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بَحِيرَةِ طَبَرِيَّةَ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ يَقُولُ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، ثُمَّ يَسِيرُونَ حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى جَبَلِ الْخَمْرِ، وَهُوَ جَبَلُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَيَقُولُونَ: لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الْأَرْضِ هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ. فَيَرْمُونَ بُنْيَانَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَرُدُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نُشَابِجَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا. وَتُخَصَّرُ نَبِيُّ اللَّهِ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِئَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِهِمْ يَوْمَ. فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ عَلَيْهِمُ النَّعَفَ فِي رِقَائِهِمْ، فَيُضْبِحُونَ فَرَسِي كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ. ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شَيْءٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَتَنَنُّهُمْ. فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُحْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَقْطُرُهُمْ حَيْثُ

شاء الله. وَيَسْتَوْفِدُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قَسِيهِمْ وَنُشَائِهِمْ وَجَعَائِهِمْ سَبْعَ سِنِينَ. ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يُكْنُ مِنْهُ بَيْتٌ مَدَرٍ وَلَا وَرِيرٍ، فَيَغْسِلُ حَتَّى يَتْرَكَهَا كَالزَّلْفَةِ. ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِي ثَمَرَتَكَ وَرُذِّي بَرَكَتَكَ، فَيَوْمِئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرَّمَانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقُحْفِهَا، وَيُبَارِكُ فِي الرَّسْلِ حَتَّى إِنَّ اللَّفْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفَنَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّفْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّفْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفُحْدَ مِنَ النَّاسِ. فَيَبْنِيانِ هُمَا كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَهَارِجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ.

وجاء في حديث آخر أن المسيح الدجال يأتي من قِبَلِ المشرقِ وَهَمَّتْهُ المدينةُ حتى ينزلُ دُبُرَ أُحُدٍ، ثُمَّ تَصْرِفُ الْمَلَائِكَةُ وَجْهَهُ قِبَلَ الشَّامِ، وَهَنَالِكَ يَهْلِكُ وَلَا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ رُغْبَةً، لَهَا يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ بَابٍ مَلَكَانِ، وَبِمَكْتٍ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَيَخْرُجُ عَلَى حِمَارٍ أَقْمَرُ مَا بَيْنَ أَذْنِيهِ سَبْعُونَ بَاعًا. وَيَنْزِلُ عَيْسَى حَكَمًا عَدْلًا، فليَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَنَّ الْخَنزِيرَ وَيَضَعُ الْحَرْبَ. وَلْيُتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ فَلَا يُسْعَى عَلَيْهَا. وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَيَنْزِلُ عَيْسَى فَيَتَزَوَّجُ وَيُولِدُ لَهُ.

وجاء في أحاديث أخرى أن الدجال كان موجوداً حيناً في زمان رسول الله ﷺ وقد رآه تميم الداري. وَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ مَعَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ لَحْمٍ وَجَذَامٍ، فَلَعِبَ بِهِمُ الْمَوْجَ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ، فَأَرْفَأُوا إِلَى جَزِيرَةٍ حِينَ تَغْرِبُ الشَّمْسُ، فَجَلَسُوا فِي أَقْرَبِ السَّفِينَةِ فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرِ الشَّعْرِ لَا يَدْرُونَ مَا قُبْلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثَرَةِ الشَّعْرِ. قَالُوا: وَيْلَكَ مَا أَنْتَ؟ قَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ. انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ، فَإِنَّهُ إِلَى خَيْرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ. قَالَ: لِمَا سَمِعْتُ لَنَا رَجُلًا فَرَّقَنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً. قَالَ: فَانْطَلِقْنَا سَرَاعًا حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ، فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خُلُقًا وَأَشَدَّهُ وَثَاقَةً، بِمَجْمُوعَةِ يَدِهِ إِلَى عُنُقِهِ مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ. قُلْنَا: وَيْلَكَ مَا أَنْتَ؟ قَالَ: قَدْ قَدَّرْتُمْ عَلَى خَيْرِي، فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ؟ قَالُوا نَحْنُ أَنْاسُ رَكْبِنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ، فَلَعِبَ بِنَا الْبَحْرُ شَهْرًا، فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ، فَلَقَيْنَا دَابَّةً أَهْلَبُ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، اعْمَدُوا إِلَى هَذَا فِي الدَّيْرِ، فَأَقْبِلْنَا إِلَيْكَ سَرَاعًا. فَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ¹، هَلْ تَتَمَرُّ؟ قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: أَمَا إِنَّهَا تَوْشَكُ أَنْ لَا تَتَمَرَّ. قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ بَحِيرَةِ الطَّبْرِيةِ.. هَلْ فِيهَا مَاءٌ؟ قُلْنَا: هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، قَالَ: إِنْ

ماءها يوشك أن يذهب. قال: أخبروني عن عين زغر.. هل في العين ماء، وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا: نعم هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون. قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قلنا: قد خرج من مكة ونزل يثرب. قال: أفأكله العرب؟ قلنا: نعم. قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه. قال: أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه. وإني مخبركم عني.. إني أنا المسيح، وإني يوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا أهبطها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة هما محرمتان عليّ كلتاها، كلما أردت أن أدخل واحدا منهما استقبلني ملكٌ بيده السيف صلّتا يصدني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها. ثم قال رسول الله ﷺ: ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن لا بل من قبل المشرق ما هو، وأوماً بيده إلى المشرق. رواه مسلم.

أقول هذا ما جاء في الأحاديث مع اختلافات وتناقضات، فذهب وهُل بعض الناس بل أكثرهم إلى أن تلك الأخبار والآثار محمولة على ظواهرها، والحق أنهم قد أخطأوا خطأ كبيرا، وكان هذا ابتلاءً من الله تعالى ليعلم الصابرين المؤمنين منهم والمكذبين المستعجلين. وأنت تعلم أن الله تعالى قد يُوحى إلى أنبيائه ورسله في حُلل المجازات والاستعارات والتمثيلات، ونظائره كثيرة في وحي خير الرسل ﷺ، منها ما جاء في حديث أنس ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأننا في دار عقبة بن رافع، فأتينا برطب من رطب ابن طاب. فأولت أن الرفعة لنا في الدنيا والعافية في الآخرة، وأن ديننا قد طاب. ومنها ما جاء في حديث أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت في رؤياي أني هزئت سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أُصيب من المؤمنين يوم أُحُد، ثم هزئته أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين.

فانظر كيف رأى رسول الله ﷺ الكيفيات الروحانية في الصور الجسمانية. ولا يخفى عليك أن رؤيا الأنبياء وحي، فثبت من ههنا أن وحي الأنبياء قد يكون من نوع المجاز والاستعارة، وقد أول رسول الله ﷺ مثل ذلك الوحي، وتأويلاته كثيرة كما في رؤية سوار الذهب والقميص والبقر وغيرها من الرؤيا التي هي مشهورة في القوم، فلا حاجة إلى أن نقص عليك.

وقد رأى رسول الله ﷺ في رؤيا أخرى الدجال المسيح واضعاً يديه على منكبي رجلين يطوف بالبيت. فلو حملنا تلك الوحي على الظاهر لوجب أن يكون الدجال مسلماً مؤمناً لأن الطواف من شعائر المسلمين.

ثم إن هذه الأحاديث تدل على أن الدجال كان موجوداً في زمان النبي ﷺ وقد رآه تميم الداري، وزعم القوم أنه يخرج في آخر الزمان، ولا يدع قرية إلا يدخلها، ويتملك ويتسلط على البلاد كلها، ولا تبقى في زمانه أرض إلا يأخذها غير مكة وطيبة. ولكن الأحاديث الأخرى تعارضها وتكذب هذه القصص. فانظر أولاً تدبراً وإنصافاً في حديث مسلم عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ؟ وَإِنَّمَا عَلِمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ. وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ نَفْسٍ مَنُفُوسَةٍ يَأْتِي عَلَيْهَا مِئَةُ سَنَةٍ وَهِيَ حَيَّةٌ يَوْمَئِذٍ. وعن ابن مسعود: لا يأتي مئة سنة وعلى الأرض نفسٌ منفوسة اليوم. رواه مسلم، وهكذا ذكر البخاري في صحيحه، والمضمون واحد لا حاجة إلى الإعادة. فوجب من هذا على كل مؤمن أن يؤمن بموت الدجال بعد المئة من زمان رسول الله ﷺ، وإلا فكيف يمكن التخلف فيما قال رسول الله ﷺ بوحى من الله تعالى مؤكداً بقسمه؟ والقسم يدل على أن الخبر محمول على الظاهر لا تأويل فيه ولا استثناء، وإلا فأى فائدة كانت في ذكر القسم؟ فندبر كالمفتشين المحققين.

وأما تطبيق هذين الحديثين فلا يمكن إلا بعد تأويل حديث الدجال وجعله من قبيل الاستعارات، فنقول إن حديث خروج الدجال يدل على خروج طائفة الكذابين في آخر الزمان من قوم النصارى، وفي الحديث إشارة إلى أنهم يُشَاهَوْنَ آبَاءَهُمُ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي مَكْرِهِمْ وَخَدِيعَتِهِمْ وَأَنْوَاعَ فِتْنَتِهِمْ وَحِرْصِهِمْ عَلَى إِضْلَالِ النَّاسِ كَأَنَّهُمْ هُمْ، إلا أن آباءهم كانوا مقيدين بالسلاسل والأغلال، ولكن هؤلاء يخرجون من ذلك السجن، ويضع الله عنهم أغلالهم، فيعيثون يمينا وشمالا ويفسدون في الأرض، وكان خروجهم بلاءً عظيماً لأهل الأرضين. فكما أن تميم رأى الدجال في زمان النبي ﷺ بالرؤية الكشفية الصادقة التي كانت من قبيل عالم المثال.. مجموعة يده إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد في الدير، فكذلك كانت النصارى في زمن إقبال الإسلام مقهورين مغلوبين غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ قَاعِدِينَ فِي الدِّيرِ، ثم أُخْرِجُوا بَعْدَ الْمَتْنِ وَالْأَلْفِ وَوَضَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْأَغْلَالَ وَالسَّلَاسِلَ،

وخلع عليهم خلعة العلوم الأرضية ابتلاءً من عنده، فأشاعوا الفتن في الأرض بأيدي مبسوطه، وكان قدرًا مقدورًا من رب العالمين. وإلى خروجهم إشارة في حديث: الآيات بعد المئتين، يعني بعد المئة والألف، وإشارة إلى نزول المسيح الذي هو مفتحُ المفسدين.

ثم بعد ذلك إذا نظرنا إلى كلام الله تعالى فوجدناه أيضًا مخالفًا لظواهر أحاديث خروج الدجال، وما وجدنا فيه احتمالًا ضعيفًا وإشارة وهمية إلى ذلك، بل هو يجوح هذه الخيالات بالاستتصال التام. ألم يكفٍ لطالب قوله تعالى: [وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]؟ ولا يخفى على المتدبر أن هذه الآية دليل قطعي على أن المسلمين والنصارى يرثون الأرض ويتملكون أهلها إلى يوم القيامة، لأن المسلمين اتبعوا المسيح اتباعًا حقيقيا، والنصارى اتبعوه اتباعًا ادعائيا. وقد وقع في الخارج كما قال الله تعالى، وكانت الكثرة الأولى للمسلمين في غلبتهم على الأرض، ثم في زماننا هذا غلبت النصارى ونسلوا من كل حذب. فوقع كما أخبر عنه في الآية الكريمة، فالآية تحكم أن التملك والغلبة محدود في المسلمين والنصارى إلى يوم القيامة، والدجال المعهود المتصور في أذهان المسلمين لا يكون على عقيدة النصارى ولا على عقيدة أهل الإسلام، بل هو بزعمهم يخرج بادعاء الألوهية ويقول إني إله من دون الله، ويغلب أمره على الأرض كلها غير مكة وطيبة، فهذا يُخالف نص القرآن الكريم لأن القرآن، كما ذكرت آنفا، قد وعد ملتبعي عيسى ابن مريم ﷺ وعدًا مؤكدًا بالدوام وقال: [وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]. ومعلوم أن الدجال الذي ينتظره قومنا هو بزعمهم ليس من متبعي عيسى ﷺ، ولا يؤمن بالمسيح ولا بإنجيله، وما ذهب أحد من علماء المسلمين إلى أنه يؤمن بعيسى ابن مريم، بل يقولون إنه يقول إني أنا الله، ولا يؤمن بالله ولا بأحد من الأنبياء، فالقرآن لا يجوز له موضع قدم في زمان من الأزمنة، بل يخبر عن غلبة المسلمين أو غلبة النصارى إلى يوم القيامة. فأئني دليل يكون أوضح من هذا على إبطال وجود الدجال المفروض، وعلى ثبوت كذب قول القائلين؟ وأنت تعلم أن القرآن يقيني قطعي وليس كمثلته حديث في التواتر وحفظ الحق وعصمته، فافهم إن كنت من الطالبين.

وأما قول بعض العلماء أن الدجال يكون من قوم اليهود.. فهذا القول أعجب من القول الأول، لا يقرأون في القرآن آية: [وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ]، فالذين ضرب الله

عليهم إلى يوم القيامة كل ذلة، وأخير في كتابه الكامل المحكم أن اليهود يعيشون دائما تحت ملكٍ من الملوك صاغرين مقهورين ولا يكون لهم مُلك إلى الأبد، كيف يخرج منهم الدجال ويملك الأرض كلها؟ ألا إن كلمات الله صادقة لا تبديل لها، ولكن القوم ما علموا معاني الأحاديث وما فهموها حق فهمها، والله يَمَنّ على من يشاء من عباده فيُفهمه ما لم يُفهم أحدًا من العالمين.

وسمعتُ أن بعضهم ينظرون لفظ النزول في قصة نزول المسيح، ويعجز عن درك هذه النكتة فهُمْ، وتضمحلّ طبائعهم وتلغب أفكارهم، فيحسبون بآرائهم السطحية أن عيسى بن مريم ينزل من السماء، ولا يرون أن القرآن قد اختار لفظ النزول في مقامات شتى وقال: [وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ]، [وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ]، [قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا]. ومعلوم أن الحديد لا ينزل من السماء بل يتكوّن في المعادن، وكذلك يتولد الحمير من الحمير والخيل من الخيل، وما رأى أحد من الناس أن هذه الحيوانات تنزل من السماء، وكذلك الألبسة تُتخذ من القطن والصوف والجلود والحريز، وهذه الأشياء كلها تكون في الأرض ولكن بحكم ربّ السماوات، ولو اجتمع أهل الأرض جميعا على أن يخلقوا هذه الأشياء بقوتهم وتديبرهم لم يستطيعوا أبدا، فكأنها نزلت من السماء. وقد قال الله تعالى: [وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ]، فكل شيء منزل من السماء بقدر معلوم بتوسّط علل وأسباب أرضية وسماوية اقتضتها حكمة الله تعالى، فتبارك الله أحسن الخالقين. وللنزول معنى آخر وهو الارتفاع من مكان والنزول في مكان آخر كما جاء في حديث مسلم أن المسيح الدجال ينزل دُبُرُ أحد، وعيسى ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق. والعجب من القوم أنهم يفهمون من نزول عيسى نزوله من السماء ويزيدون لفظ "السماء" من عندهم، ولا تجد أثرا منه في حديث. وأما ما ذكر في قصة نزول عيسى أنه ينزل واضعا كَفَّيْهِ على جناحي الملائكة، فليس هذا اللفظ دليلا على نزوله من السماء، وقد جاء مثل هذا اللفظ في فضائل الذي يخرج من بيته لطلب علم الدين، وكذلك نظائره كثيرة في الأحاديث، ولو لم يكن خوف طول المكتوب لذكرتُ كلها. بل الحق الذي كشف الله عليّ أمرٌ يقبله كل مؤمن طالب الحق، ولا يَأْبَى إلا الذي لا يتخذ سبيل المهتدين، وهو أن نزول المسيح عند المنارة البيضاء شرقي دمشق واضعاً كَفَّيْهِ على أجنحة ملكين إشارةً إلى شيوع

أمره في بلاد الشام خالصاً من العلل السماوية، منزّهاً عن دخل الأسباب الأرضية، وعن دخل سلطانها ودولتها وعساكرها وأفواجها ومسّ تدابيرها، بل يعلو أمره بحماية الله وجنده السماوية، كأنه نزل على أجنحة الملائكة. وأمّا الدجال فيخرج بالحيل الأرضية والتدابير المنحوتة من عند نفسه، والتلبيسات التي تجدد في كل حين.

وإني سمعت أن بعض علماء هذه الديار يقولون إن جملة: [يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ] مؤخّرة من جملة: [وَرَأَيْتُكَ ابْنِي] ومقدّمة من جملة: [وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا] ومن جملة: [وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]، ولكن أنت تعلم يا أخي أن هذا التأويل باطل بالبداهة ومستنكر جداً، لأن الأمر لو كان كذلك لوجب أن يموت المسيح بعد الرفع وقبل هذه الوقائع التي ذكرها القرآن بعد ذكر الرفع.. يعني قبل تطهير ذيله من بهتان اليهود وقبل جعل متّبعيه الغالبين على الذين كفروا، وهم يعتقدون بأن المسيح ما مات إلى هذا الزمان، وقد تمت هذه المواعيد كلها ووقعت بأسرها. فالعجب من عقلهم لم يقولون على خلاف ما يعتقدون، وقد اتفقوا على أن المسيح لا يموت بعد الرفع فقط بل بعد الرفع وبعد تطهير ذيله من بهتان اليهود ببعث خاتم النبيين وبعد غلبة متّبعيه على الذين كفروا، فعلى هذا يلزمهم أن يعتقدوا بأن جملة: [يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ] مؤخّرة من جملة: [وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]، فلزمهم أن يقولوا إن ترتيب الآيات كان في الأصل هكذا.. أعني يا عيسى ابني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، ثم بعد القيامة منزلك من السماء ثم متوفيك. فلا سبيل لهم إلى تحريف هذه الآيات وتقديمها وتأخيرها من عند أنفسهم إلا أن يقولوا إن المسيح لا ينزل ولا يموت إلا بعد يوم القيامة. وهذا حُلْف.

فيا حسرة عليهم! لم يحرفون كلم الله عن مواضعها مع عجزهم عن وضعها في موضع آخر؟ وذلك من إعجازات القرآن أن مُحَرِّف آياته لا يستطيع أن يُحَرِّف ويُبدّل ترتيبه المحكم المرصّع الأبلغ، فينكشف كذبه على النساء والصبيان فضلاً عن العلماء الراسخين، فسبحان من أنزل القرآن بإعجاز مبين.

والعجب من قومنا أنهم كانوا يقرأون في البخاري وغيره من الصحاح أن المسيح الموعود من هذه الأمة وإمامهم منهم، ولا يجيء نبي بعد رسول الله ρ وهو خاتم النبيين، وما كان لأحد أن ينسخ القرآن بعد تكميله، ثم نسوا كل ما علموا وعرفوا واعتقدوا وضلّوا وأضلّوا كثيرا من الجاهلين.

وأما الاختلافات التي توجد في هذه الأحاديث فلا يخفى على مهرة الفن تفصيلها، وقد ذكرنا شطراً منها في رسالتنا: "الإزالة"، فليرجع الطالب إليها. وقد جاء في حديث أن المسيح والمهدي يميّنان في زمن واحد، وجاء في حديث آخر أنه لا مهدي إلا عيسى، وجاء في حديث أن المسيح والمهدي يتلاقيان ويُشاور المهدي المسيح في مهمات الخلافة، ويكون زمانهما زماناً واحداً. وفي حديث آخر أن المهدي يُبعث في وسط قرون هذه الأمة والمسيح ينزل في آخرها، وفي حديث من البخاري أن المسيح يجيء حكماً عدلاً فيكسر الصليب.. يعني يجيء في وقت غلبة عبدة الصليب فيكسر شوكة الصليب ويقتل خنازير النصارى. وفي حديث آخر أنه يجيء في وقت غلبة الدجال على وجه الأرض فيقتله بحريته.

فاعلم أن هذا المقام مقام حيرة وتعجب للنظرين. وتفصيله أن مجيء المسيح لكسر صليب النصارى وقتل خنازيرهم يشهد بصوت عال على أن المسيح الموعود لا يجيء إلا في وقت غلبة النصارى على وجه الأرض وتسلّطهم عليها وشيوع المذهب الصليبي في جميع أقطار العالم بالشوكة التامة والقوة الكاملة وحماية السلطنة والدولة. ثم إذا نظرنا إلى أحاديث خروج الدجال فنجد فيها كأن المسيح لا ينزل إلا في وقت غلبة الدجال على وجه الأرض، وإنّا إذا صدّقنا حديث مجيء المسيح عند تسلّط النصارى على وجه الأرض واعتقدنا بأنه يجيء لكسر صليب النصارى واستئصال شوكة مذهبهم، فيلزم من ذلك أن نكذب حديثاً آخر الذي يدلّ على أن المسيح يأتي لقتل الدجال عند غلبته على وجه الأرض كلها غير مكة وطيبة، فإن تسلّط الدجال على وجه الأرض كلها وتسلّط النصارى على وجه الأرض كلها في زمان واحد نقيضان متخالفان، ومعلوم أن النقيضين لا يجتمعان في وقت واحد ولا يرتفعان، فثبت بالضرورة أن من هذين الخبرين خبر حق وخبر باطل.

ثم إذا نظرنا إلى الوقائع الموجودة فوجدنا حكومة النصارى قد أحاطت كالدائرة على أهل الأرضين، ونرى أن السلاطين كلهم يرتعدون من هولهم، وقد ظهرت² على قلوبهم خوف وانحجام واعتقدوا بأنهم عليهم غالبون. ولكننا لا نرى من الدجال الموهوم المتصور في خيالات القوم أثرا ولا علامة، ونرى أن فتن النصارى قد تكاثرت وامتألت الأرض من مكائدهم، فهذا دليل واضح على أن المعنى الصحيح نزول المسيح عند غلبة النصارى على أهل الأرض، ولا سبيل إلى تطبيق هذه الأحاديث المتعارضة إلا أن نقول أن قسيسي النصارى هم الدجال المعهود، ووجب علينا أن نفسر الأحاديث بنحو ظهرت معانيها في الخارج، فإن الأحاديث التي ذكرناها آنفا كان بعضها قائدا إلى أن المسيح ينزل عند شوكة النصارى وشوكة صليبيهم وتسلبهم في الأرض، وكان بعضها قائدا إلى أنه لا ينزل إلا في وقت خروج الدجال وتسلبه على وجه الأرض كلها، فرأينا آثار القائد الأول ووجدناها واقعة في زماننا، ونرى أن أخبار شوكة الصليب قد تمت ووقعت كلها كما أخبر عنها رسول الله ﷺ حتى رأيناها بأعيننا، وأما القائد الذي كان مخالفا لها ومعارضاً لمعانيها، أعني حديث خروج الدجال فما ظهر أثر منه، فالذي ظهر من المعنيين هو الحق، والذي ما ظهر من المعنيين هو الباطل الذي أخطأ فيه نظر المتفكرين.

ومن الاختلافات العظيمة في أحاديث هذا الباب أن بعض الأحاديث يدل على أن المسيح لا يأتي إلا تابعا ومطيعا للمهدي، فإن الأئمة من قريش والمسيح ليس من قريش، فلا يجوز أن يستخلفه الله لهذه الأمة، وبعضها يدل على أن المسيح يأتي حاكما عدلا وإماما وخليفة من الله تعالى، وكل الأمر يكون في يديه، ولا يتبع أحدا إلا وحي الله الذي ينزل عليه إلى أربعين سنة، فينسخ بوحيه بعض أحكام الفرقان ويزيد بعضا ويختتم الله به النبوة والوحي ويجعله خاتم النبيين. ومع هذا يقولون إن وحيه لا يعارض وحي القرآن، ويصلي المسيح كما يصلي المسلمون، ويصوم كما يصومون، ولكنهم عند هذا القول ينسون قولهم الأول الذي قد صرح فيه أن المسيح ينسخ بعض أحكام الفرقان، فيضع الجزية، وما وضع القرآن الجزية قط حتى تم وكمل ونزل آية: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ] وكذلك قالوا إن المسيح يقتل الخنزير، وما نرى في القرآن حكما لقتل خنازير أهل الأرض، بل منع من تضييع أموال الدّميّين ونهب أملاكهم بعد أن أعطوا الجزية صاغرين.

والعجب أن هذه العلماء آمنوا بأن الله تعالى يوحى إلى المسيح إلى أربعين سنة، وكانوا يعتقدون من قبل بأن وحي النبوة قد انقطع. فيا حسرة عليهم! إنهم يعلمون مضار عقائدهم ثم لا يتركونها وأراهم كالنائمين. وأعجبنى أنهم يجمعون في عقائدهم اختلافات عجيبة ولا ينظر أحد منهم إلى هذه التناقضات. يؤمنون بعقيدة.. ثم يرجعون ويؤمنون بعقيدة أخرى تخالف الأولى وتعارضها، مثلاً.. إنهم يؤمنون باليقين التام أن المسيح يأتي حكماً عدلاً، والناس يحكمونه ويرفعون إليه مشاجراتهم، ويجعله الله خليفة في الأرض، ثم يقولون إن عيسى ينزل تابعا للمهدي، والحكم العدل هو المهدي لا عيسى الذي ليس من قريش. ويقولون إن هذا الأمر من الواقعات الحقة.. أن عيسى ينزل عند غلبة النصارى واستيلائهم على وجه الأرض، ونسلهم من كل حذب، فيكسر صليهم ويقتل خنازيرهم، ثم يرجعون ويقولون إن المسيح لا ينزل إلا عند خروج الدجال، ويقولون إن الدجال ليس من الذين اتبعوا أناجيل النصارى وآمنوا بأنبيائهم وكتبهم وديانتهم، بل هو رجل لا يتبع عيسى ولا يؤمن بنبي من الأنبياء، بل يخرج بادعاء الألوهية، ويملك الأرض كلها غير مكة وطيبة، ويقول إني أنا الله رب العالمين. فانظر كيف يسلكون مسلك السكارى، ولا يشبتون على قول، وما لهم على عقيدة من قرار، ولا يتدبرون كالعاقلين.

وإني أرى أن الله سلب عنهم قوة الفصلة، ونزع منهم طاقة الآراء الصحيحة، وتركهم في ظلمات الغي هائمين. والسر في ذلك أنه ما رآهم حرياً بالأسرار الإلهية، ورأى رؤوسهم خالية من القوى المدركة الفاطنة، فنزع منهم حلل الإنسانية، وردهم إلى صور البهائم والسباع والأفاعي، وألحقهم بالسافلين.

والذين أوتوا أكل المعارف غصاً طرياً، وزرقوا من العلوم الصادقة حظاً وافراً، فما جهلوا الطريق، وما نسوا المشرب، وأصابوا في فهم آيات الله، وما ضاع من أيديهم علم الروحانيين. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، يضل من يشاء ويهدي من يشاء إلى بحر لا ساحل له، والله يعلم حيث يجعل فضله، ولا يخفى عليه قلب ولا شاكلة، وقد خلق الناس وهو يعلم حقيقة العالمين.

ولنرجع إلى ذكر الأحاديث فنقول إن الذين حملوا أنبائها المستقبلية على معانيها الظاهرة مع تعارضها بالقرآن، فقد أخطأوا خطأ كبيراً، وكان سببه استغراقهم في الآثار والذهول عن

كلام الله تعالى، فصارت أنظارهم مغمورة في الأخبار، وأفكارهم مبدولة في تنقيدها وتمييزها، وأنفدوا أعمارهم فيها، وأضلّوا أنفسهم في سكرها، وما التفتوا إلى صحف الله واستباط مسائلها. فبقي الفرقانُ كالمستتر من أعينهم، وبقيت أسرار كالدّر المكنونة أو الخزان المدفونة، ما عرفوها وما رعوها حق رعايتها، وأكبّوا على كتب أخرى كالمعرضين. ولو أنهم توجّهوا إلى القرآن لكشف الله عليهم سرّ كل حقيقة ونجّاهم من براري الشبهات، ولكنهم ما شاؤوا أن يؤمّروا واختاروا العمى وعادوا قوماً مُنوّرين.

فمن أعظم خطيأتهم أنهم لم يفهموا حقيقة المسيح الموعود الذي أُخبروا عنه، وقالوا إن عيسى بن مريم U ينزل من السماء، وقد كانوا يقرأون في القرآن أنه **تُؤَيِّ وَلِحِقْ بِإِخْوَانِهِ** الذين خلوا من قبله، فنسوا ما كانوا يعلمون واتبعوا ما قيل بعد المئتين، ونبذوا آيات الله وراء ظهورهم كأنهم ما وجدوا في القرآن أثراً من أخبار وفاة المسيح وكأنهم كانوا من الغافلين.

وإذا قيل لهم أن الله قد أخبر عن وفاة المسيح في آياته المحكمات وقال: **[يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ كُنْ تَوَّابًا]**، وقال حكاية عنه: **[فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ]**، وقال: **[وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ]**، قالوا نؤمن بقصص القرآن والأحاديث قاضيةً عليه وعلى قصصه. فانظر كيف يتكون القرآن مع كوهم من المسلمين.

والعجب منهم أنهم يظنون أن الأحاديث تشهد على نزول المسيح من السماء مع أن رسول الله p أخبر غير مرة عن وفاة المسيح، فقال في حديث كما جاء في الطبراني والمستدرک عن عائشة قالت قال رسول الله p في مرضه الذي تُؤَيِّ فيه لفاطمة: إن جبريل كان يُعَارِضُنِي القرآن كل عام مرة، وإنه عَارِضُنِي بالقرآن العام مرتين، وأخبرني أنه لم يكن نبي إلا عاش نصف الذي قبله، وأخبرني أن عيسى بن مريم عاش عشرين ومئة سنة، فلا أراي إلا ذاهبا على رأس الستين. واعلموا أيها الإخوان أن هذا الحديث صحيح ورجاله ثقات وله طرق، وهو يدل بدلالة صريحة على موت المسيح.

ولا يُقال إن الرفع هو الموت، فإن الموت عبارة عن خروج الروح عن الجسم العنصري، فإن كان المسيح رُفِعَ بجسمه العنصري فهو حيٌّ إلى الآن، فلو فُرض حياة المسيح إلى هذه الأيام للزم أن يكون نبينا حياً إلى نصف هذه المدة، وهذا باطل فاسأل العاديين.

وكذلك أخبر رسول الله ﷺ عن موت عيسى ﷺ في حديث آخر وقال: إذا سألني ربي عن فساد أمتي فأقول في جوابه: فلما تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، كما قال العبدُ الصالح من قبلي.. يعني عيسى ﷺ. فانظر كيف أشار إلى وفاة المسيح بحيث استعمل لنفسه جملة: [فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي] كما استعمله المسيح لنفسه. وأنت تعلم أن رسول الله ﷺ قد تَوَفَّيَ وقبره المبارك موجود في المدينة. فانكشف معنى التوفيّ بجعل رسول الله ﷺ واقعةً للمسيح وواقعةً لنفسه واقعةً واحدة، وظهر أن معنى التوفيّ في آية: [فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي] الإماتة لا غيرها من المعاني المنحوتة التي لا أصل لها في لغة العرب، فإن رسول الله ﷺ قد مات، ولو كان معناه الرفع إلى السماء حيًا مع الجسم العنصري كما هو زعم القوم لُرْفَعَ إِذَا نُبِّئْنَا ﷺ إلى السماء حيًا مع الجسم العنصري، فإنه جعل نفسه شريك عيسى ﷺ في لفظ التوفي الذي يوجد في آية: [فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي] كما جاء في حديث البخاري. ولو جعلنا من عند أنفسنا للمسيح معنى خاصا في هذه الآية وقلنا إن التوفي في حق رسولنا ﷺ هو الوفاة، ولكن في حق عيسى ﷺ أُريدَ منه الرفع مع الجسم العنصري لا شريك له في هذا المعنى، فهذا ظلمٌ وزور وخيانة شنيعة، وترجيح بلا مرجح، واستخفاف في شأن رسول الله ﷺ، وادعاء بلا دليل واضح وحجة ساطعة وبرهان مبين.

ويقولون إن **يأجوج ومأجوج** يخرجون في زمن المسيح، وينسلون من كل حَدَبٍ، ويملكون الأرض كلها كما ورد في القرآن العظيم، فهذا حق لا تُجَادِلُهُمْ فيه. ويقولون إن المسيح لا يُجَارِهُم بل يدعو عليهم، فيموتون كلهم بدعائه بذودٍ تتولد في رقابهم، وهذا أيضا حق وليس عندنا إلا التسليم. ولكنهم أخطأوا فيما قالوا إن **يأجوج ومأجوج** يموتون في زمن عيسى كلهم، فإن **يأجوج ومأجوج** هم النصارى من الروس والأقوام البريطانية^⑤، وقد أخبر الله تعالى عن وجود النصارى واليهود إلى يوم القيامة وقال: [فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]، فكيف يموتون كلهم قبل يوم القيامة؟ فلو أردنا من الإماتة الإماتة الجسمانية لخالف الحديث القرآن وعارضه، فإن القرآن يخبرنا عن بقائهم وبقاء نسلهم إلى يوم القيامة، بل يشير إلى أن السماوات يتفطرن عليهم وتقوم القيامة على أشرارهم الباقين. ومن ههنا ظهر أن الجملة: "يضع الجزية" التي جاءت في بعض نسخ البخاري ليست بصحيحة، والصحيح أن المسيح يضع الحرب ولا يحارب النصارى كما

جاء في نسخ أخرى. ووجهه عدم صحتها ظاهر، وهو أننا لو فرضنا أن المسيح يحارب النصارى على شرط قبول الإسلام ولا يقبل الجزية أصلاً بل يدعو إلى الإسلام، وإن قبلوا وإلا فيقتلهم، فلزم على تقدير صحة هذا المعنى استئصال النصارى بالكلية من وجه الأرض.. إما من سبب إسلامهم وإما من سبب قتلهم، وهذا المعنى يُعارض القرآن الكريم، فإنه أخبر عن بقاء وجودهم إلى يوم القيامة، فثبت من هذا التحقيق أن جملة "يضع الجزية" التي توجد في بعض نسخ البخاري ليست بصحيحة، وقد فسدت وحُرِّفَتْ مِنْ نَسْخِ النّاسخين.

ومع ذلك ظهر من هذا التحقيق بطلان أحاديث يوجد فيها ذكر كمنه من المحاربات والغزوات، فإن القرآن محفوظ بحفاظة الله وعصمته، فالحديث الذي يُعارض قصصه لا يُقبل أبداً ولو كان ألف كمثل تلك الأحاديث في البخاري أو غيره من كتب المحدثين.

وأما قولنا إن يأجوج ومأجوج من النصارى لا قوم آخرون فثابت بالنصوص القرآنية، لأن القرآن الكريم قد ذكر غلبتهم على وجه الأرض وقال: [مِنْ كُلِّ حَذَبٍ يَنْسُلُونَ]، يعني يملكون كل رفعة في الأرض، ويجعلون أعزّة أهلها أدلّة، ويتلعون كل حكومة ورياسة وسلطنة ودولة ابتلاع الحوت العظيم الصغار. وإنّا نرى بأعيننا أنهم كذلك يفعلون، واضمحلت ریاسات المسلمين، وتطرق الضعف في دولتهم وقوتهم وشوكتهم، ويرون سلاطين النصارى كالسباع حولهم، ولا يبيتون إلا خائفين. وقد ثبت من النصوص القوية القطعية القرآنية أن كأس السلطنة والغلبة على وجه الأرض تدور بين النصارى والمسلمين، ولا تتجاوزهم أبداً إلى يوم القيامة، كما قال الله تعالى: [وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]. ومعلوم أن المتبعين للمسيح في الحقيقة المسلمون، والمتبعين بالادعاء النصارى، والآية تشير إلى الاتباع فقط حقيقياً كان أو ادعائياً. والحق أن الاتباع الحقيقي عسير جداً ولو كان مدعى الاتباع ملكاً من المسلمين المؤمنين، فإن اتباع الأنبياء على وجه الحقيقة والكمال ليس بهيّن، فكل من الملوك يتبع عيسى باتباع ادعائي وإن كانت فيه رائحة من الحقيقة إلا ما شاء الله. نعم قد سبق المسلمون في الاتباع الاعتقادي وفهموا تعليم المسيح كما هو هو، وهم ورثاؤه في عقائد التوحيد بعد وفاته، وأما النصارى فضلوا ضلالاً كبيراً، وليس في يدهم إلا ادعاء فقط. انظر إلى ضلالتهم وفسادهم.. أنهم قد

آمنوا بأن عيسى ﷺ كان يأكل الطعام ويشرب الماء، وربما اثبتني بأمراض وأوجاع، وربما غلب عليه الهم والخوف والقلق والكرب والجوع والعطش، وكان لا يعلم الغيب، وكان يقول إني عبد ليس في نفسي خير إلا بتوفيق الله، وأنه أخذ وصلياً ومات، وهو مع ذلك في زعمهم إله وابن إله. قاتلهم الله! إنهم يعتقدون بأنه إنسان ونبي، فيه سهو وخطأ وضعف وجهل، وأخذ الموت، ولا يبرئونه من ضعف وزهول ونسيان، ثم يقولون إنه هو الله، فتعساً لقوم كافرين. ولكنهم ما قالوا إننا نحن بريئون من عيسى ولا نتبعه، بل آمنوا بنبوته وكتابه، وآمنوا بأنبياء بني إسرائيل وكتبهم، وآمنوا بالملائكة والجنة والنار، فهذا هو السبب الذي أدخلهم الله في المتبعين الضالين، وبشرهم بغلبة على الأرض كما بشر المسلمين.

فالخلاصة أن هذه الآية.. يعني: [وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ] دليل صريح وبرهان واضح على أن القوة والغلبة والشوكة والتسلط الكامل الفائق على وجه الأرض لا يجاوز هذين القومين: النصارى والمسلمين، وتداول الحكومة التامة بينهم إلى يوم القيامة، ولا يكون لغيرهم حظاً منها، بل تُضرب على أعدائهم الذلة والمسكنة، ويدوبون يوماً فيوماً حتى يكونوا كالفانين. فإذا كان الأمر كذلك فوجب أن تكون الحكومة والقوة متداولة بين هذين القومين إلى الدوام ومخصوصة بها، فلزم بناءً على هذا أن يكون يأجوج ومأجوج إما من المسلمين وإما من المنتصرين. ولكنهم قوم مفسدون بطالون، فكيف يجوز أن يكونوا من أهل الإسلام؟ فتقرّر بالقطع أنهم يكونون من النصارى وعلى دين النصارى. وقد جاء في حديث مسلم أن المسيح لا يُحارب يأجوج ومأجوج، وجاء في البخاري أنه يضع الحرب، يعني لا يُحارب النصارى. فثبت أن يأجوج ومأجوج هم النصارى، وثبت أن المسيح الموعود لا يُحاربهم، بل يسأل الله نُصْرَتَهُ في ساعة العسر وهو خير الناصرين. وثبت من ههنا أن المسيح الموعود يأتي عند غلبة النصارى على وجه الأرض، ويدخل من باب الرفق للإصلاح كما دخلوها للإفساد، ولا يرفع السيف عليهم لأنهم ما رفعوه للدين، ويُجادلهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا يقتل الغافلين المعتدين.

وأما ما جاء في حديث مسلم أن تُشأب يأجوج ومأجوج وقسيهم تُحرق كالوقود ويستوقدها المسلمون، فهذا تحريف آخر في الحديث، فإن القسيّ والسهام قد انعدمت وذُهب وقتها وقامت الأسلحة النارية مقامها، فتقبل إن شئت أو أعرض كالمُنكرين. منه

ويقول إنه تُؤفِّي ودُفن في أرض الشام، ولا يؤمن بمعجزاته، ولا يؤمن بأنه خالق الطيور ومحيي الأموات وعالم الغيب وحي قائم إلى الآن في السماء، ولا يؤمن بأن الله قد خصّه وأُمّه بالمعصومية التامة من مسّ الشيطان ومن كل ما هو من لوازم المسّ، ولا يُقرّ بأنهما مخصوصان متفردان في العصمة المذكورة لا شريك لهما فيها أحد من الرسل والنبیین. ويقولون إن هذا الرجل لا يؤمن بالملائكة ونزولهم وصعودهم،

^①حاشية: هذه الأخبار الغيبية تدل على أن هذا الحديث ليس من رسول الله p، لأنه يُعارض القرآن ويُخالف محكماته. وكيف يمكن أن يقدر الدجال الخبيث على بيان الأنبياء المستقبلية وقال الله تعالى في كتابه المحكم: [فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ]، فكيف أخبر الدجال عن الغيب خبرا واضحا صحيحا مطابقا للواقع؟ وكيف قال الدجال أن الخير للناس أن يُطيعوا هذا النبي الأمي العربي فإنه صادق، مع أن الدجال كافر لا يطيع الله، فكيف يأمر بإطاعة نبيه p؟ ومع ذلك هو ليس بقائل بزعم القوم بإله من دون نفسه، فكيف قال: وإني يوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج، بل إن هذا اللفظ يدل على أنه لا يخرج من الدير إلا بإلهام الله تعالى ووحيه، فيلزم من هذا أن يكون الدجال أحدا من الأنبياء، وقد تقرر عندهم أنه من أكابر المفسدين. فتفكّر ولا تكن من الغافلين. منه.

^② يبدو أن التاء زيدت سهواً، والصحيح: ظهر. (الناشر)

^③ حاشية: لا يُقال إن هذا التفسير خلاف الإجماع وأن القوم قد اتفقوا على أنهم قوم لا يُشابهون خلق الإنسان، ولهم آذان طويلة، لأنهم قد اتفقوا على أن يأجوج ومأجوج قوم محصورون في الإقليم الرابع، وهم أزيدُ نسلا وعددا من كل قوم، وهذا باطل بالبداهة، لأننا لا نرى في الإقليم الرابع أثرا منهم ولا من بلادهم ومدنهم وعساكرهم مع أن عمارات الأرض قد ظهرت كلها. فالروايات في هذا الباب باطلة كلها، فقس عليها روايات مثلها، وكُنْ من المحققين. منه

ويحسب الشمس والقمر والنجوم أجسامَ الملائكة، ولا يعتقد بأن محمداً ρ خاتم الأنبياء ومنتهى المرسلين، لا نبي بعده وهو خاتم النبيين.

فهذه كلها **مفتريات** وتحريفات، سبحان ربي ما تكلمتُ مثل هذا، إنَّ هو إلا كذبٌ والله يعلم أنهم من **الدجالين**. وقد سقطوا عليَّ وما أحاطوا معارف أقوالي، وما فهموا حقائق مقالي، وما بلغوا معشار ما قلنا، وخانوا وحرّفوا البيان، ونحتوا البهتان، ووقعوا في حيص بيص، وظنّوا ظنَّ السوء، فتعسّأ لتلك الظانين. والله يعلم أني ما قلتُ إلا ما قال الله تعالى، ولم أقل كلمةً قطُّ تخالفه وما مسّها قلبي في عمري.

وأما قولهم إنَّ المسيح كان خالق الطيور وكان خلّقه كخلق الله تعالى بعينه وكان إحياءه كإحياء الله تعالى بعينه بلا تفاوت، وكان معصوماً تامّاً ومحفوظاً من مسّ الشيطان، وليس كمثلته في هذه العصمة نبينا ρ ، فهذا عندي ظلمٌ وزور، كبرتُ كلمةً تخرج من أفواههم، وإنهم في هذه الكلمات من الكاذبين.

وأما افتراؤهم عليَّ وظنّهم كأني لا أؤمن بالملائكة، فما أقول في جواب هذه الظنون الفاسدة التي لا أصل لها ولا أثر، غير أني أبتهل في حضرة الله سبحانه وأقول رَبِّ الْعِزِّيْ إِنَّ كُنْتُ قُلْتُ مِثْلَ هَذَا، وَإِلَّا فَالْعَنِ الْمُفْتَرِينَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَيَّ بَغَيْرَ عِلْمٍ، وَيَكْفُرُونَ بَغَيْرِ الْحَقِّ، وَلَا يَتَّقُونَ اللَّهَ وَمَا كَانُوا خَائِفِينَ.

والأمر الحق أني ما قلت قولاً يُخالف عقيدة أهل السنة حقيقة، وما جرى على لساني مثل تلك الألفاظ، وما خطر في قلبي شبيه هذه الافتراءات، ولكنهم ما فهموا كلماتي من قلة التدبر، وسوء الفكر، وفساد القلب، وابتدر كل واحد منهم إلى التكفير عَجولاً بادي الرأي، فكيف أهدي قوماً حاسدين؟

نعم.. إني قلت وأقول: إن عيسى ابن مريم ﷺ قد تُؤفِّي كما أخبرنا القرآن العظيم والرسول الكريم، فكيف نرتاب في قول الله ورسوله؟ وكيف نؤثر عليه أقوالاً أخرى؟ أأختار الضلالة بعدما هداني الله؟ والقرآن حَكَمٌ عَدْلٌ بيني وبين المخالفين، وبأيِّ حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟ ألم يكف لهم ما قال رب العالمين؟ ولكنهم ما يقبلون شهادة القرآن، ويتكئون على أقاويل أخرى التي لا يدرون حقيقتها. فليت شعري.. إلى أي أمر يدعونني؟ أيدعونني إلى الجهل والعمى بعدما كنت من المتبصرين؟ والله إني على بصيرة من ربي، وعندى شهادات من الله وكتابه وإمامه وكشفه، فهل من طالب يأخذ سهم رشده مني، ويأبى دواعي البخل والحسد، ويقبل الحق كالمسترشدين؟ ولا أظن أحداً من العاملين العاملين المتقين أن يُقدِّم غير القرآن على القرآن، أو يضع القرآن تحت حديث مع وجود التعارض بينهما، ويرضى له أن يتبع آحاد الآثار ويترك بيّنات القرآن، ويؤثر الشك على اليقين، ويختار الجهل بعدما كان من العارفين.

وإن المسلمين وعلماءهم الراسخين كانوا قد أمروا أن يتبعوا البيّنات، ويحتنبوا الشبهات، وكانوا يعلمون أن البيّنات أحقُّ أن تُتَّبَعَ. وإنما البيّنات هي المعاني التي قد انكشفت وتبينت عند العقل السليم، وتواترت في القرآن العظيم، ووُجدتْ أقرب من الفهم المستقيم، وأبعد عن آفات التناقض وأدخل في سُنّة الله والقانون القديم، وأجلى وأظهر من معان أخرى. ثم ذهلت هذه الطائفة تلك الضابطة المباركة كأنهم لا يعلمون شيئاً وكأنهم من الجاهلين. وإني أرى أنهم لا يعتقدون بأن القرآن كلام حيٍّ، وإمام صادق ومهيمنٌ، ومعيّارٌ كامل، بل يحقرونه ويضعونه تحت أقدام الأحاديث، ويجعلون الأحاديث قاضية عليها من قبل أن يُفتشوا الآثار حق تفتيشها، ويثبتوا موازنة القطعيات بالقطعيات. بل هم يأمرّون تحكُّماً ويقولون ظلماً إن الأحاديث بجميع صورها الظنيّة والشكّيّة أحقُّ قبولاً من القرآن وحكمةً عليه. وإن هو إلا ظلم وزور تكاد السماوات يتفطرن منه. ولا يوجد في القرآن وحديث رسول الله ﷺ إيماض إلى ذلك، ولا إيماء إلى هذه البهتانات، بل الصحابة كانوا يقدّمون القرآن في كل حال ولا يتركونه لأثر من الآحاد. • ألا ترى إلى الصديقة أمّ المؤمنين رضي الله عنها كيف أوّل ♦ الأحاديث للقرآن وما أوّل ♦ القرآن للأحاديث، وما التفتت إلى حديث بعد وجود المعارضة بينه وبين القرآن. وكانت فقيهة فاضلة

• انظروا حديث معاذ الذي فيه وصيّة رسول الله ﷺ لمعاذ. منه.

♦ سهو، والصحيح: "أولت". (الناشر)

موقّعة، حبيبة نبينا ρ، وكانوا يرجعون إليها في كل مسألة دقّت مأخذها. وإن كنت في شك فاقراً البخاري تدبراً، فستجد تلك القصص في أكثر مقاماته. فما حال هؤلاء أنهم لا يقرأون القرآن إلا كالغافلين النائمين، ولا يفهمونه حق فهمه، بل القرآن لا يجاوز حناجرهم، ولا يتبعونه ولا يتتبعون نوره، بل يحملونه على هيئة الجنائز، ولا ينظرون إليه بنية الاستفادة وأخذ العلوم والمعارف، كأنهم في شك عظيم. ولا يرون حياته وبركاته وإشراقاته، ولا يُقدّرونه حق قدره، ولا يدرون ما شأنه وما برهانه، وينبذون صحف الله وراء ظهورهم، ويكفون على حديث ضعيف ولو يُعارض القرآن، وما كانوا من المنتهين.

ووالله ما قلتُ قولاً في وفاة المسيح وعدم نزوله وقيامي مقامه إلا بعد الإلهام المتواتر المتتابع النازل كالوابل، وبعد مكاشفات صريحة بيّنة منيرة كفلق الصبح، وبعد عرض الإلهام على القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة النبوية، وبعد استخارات وتضرعات وابتهالات في حضرة رب العالمين. ثم ما استعجلتُ في أمري هذا، بل أخرته إلى عشر سنة، بل زدتُ عليها وكنت لحكم واضح وأمر صريح من المنتظرين. وكنت صنّفتُ كتاباً في تلك الأيام التي مضت عليها عشر سنة، وسميتها البراهين، وكتبت فيها* بعض إلهاماتي التي أُلهمت من ربي من قبل تأليف ذلك الكتاب، وكانت من جملتها هذا الإلهام، أعني: "يَا عِيسَى ابْنِي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ

* سهو من الناسخ، والصحيح: "سميته البراهين، وكتبت فيه." (الناشر)

اتَّبِعُواكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ". وإن الله قد سَمَّاني في هذا عيسى، ومن جملتها إلهام آخر خاطبني ربي فيه وقال: إني خلقتك من جوهر عيسى، وإنك وعيسى من جوهر واحد، وكشيء واحد. ومن جملتها إلهام سَمَّى فيه كلَّ من خالفني من العلماء "اليهود والنصارى". ثم ما أُلْهِمْتُ إلى عشر سنة بمثل هذه الإلهامات، وما كنت أدري أنني أُؤمر بعد هذه المدة الطويلة وأُسَمَّى **مسيحا موعودا** من الله تعالى، بل كنتُ خِلْتُ أن المسيح نازل من السماء كما هو مركز في مدارك القوم، ولكني كنت أقول في نفسي تعجبا: إن الله لم سَمَّاني عيسى ابن مريم في إلهامه المتواتر المتتابع، ولم قال إنك وإنه من جوهر واحد، ولم سَمَّى المخالفين "اليهود والنصارى"؟ فظهرت عليَّ معاني تلك الإلهامات والإشارات بعد عشر سنة، وبعد إشاعة "البراهين" في أُلُوف من الناس، وبعد إشاعة هذه الإلهامات في خَلْق كثير من المسلمين والمشرَكين.

فاسألوا الذين يظنون أنه افتراء منحوت.. أهذه علامات المفترين؟ وكانوا يقرأون من قبل كتابي "البراهين" ويجدون فيه مجملا كلَّ ما قلتُ في هذه الأيام مفصلا، وكانوا يحبُّون ذلك الكتاب ويصدِّقون إلهاماتٍ مذكورة ولا يُعرضون كالمنكرين. فلما جاء ميقات ربي، وأُمرْتُ لأُصدع بما سُمِّيتُ في الكتاب المذكور انقلبوا منكرين مكفِّرين، كأنهم سمعوا كلمة غريبة أو جاءهم ذكرٌ مُحدثٌ وكأنهم ما كانوا مُطَّلعين على ما كتبت في "البراهين". ولو كانوا عاقلين منصفين طالبين للحق مفتشِينَ

للحقيقة لتفكروا في قول قد كُتِبَ من قبل وطُبع وأُشيع في زمان ما كان أثر هذه الدعاوي فيه، ولتفكروا في سوانح عمري، ولقد لبثت فيهم عُمرًا من قبل، ولتفكروا في رأس المئة وضرورة المجدد بما وعد الله ورسوله، ولتفكروا في مفاسد الزمان وبدعاتها، ونسلِ النصارى من كل حذب. فيا حسرة عليهم! إنهم ظنوا ظن السوء بغير فكر وتحقيق وإمعان، وما كان لهم أن يتكلموا في المؤمن إلا بحسن الظن، وما كان لهم أن يُسارعوا عليّ مجترئين. وما حملهم على الإنكار إلا استعجالهم وسوء ظنهم وبخلهم وعنادهم وقلة تدبرهم، فيا حسرة على الحاسدين والمعاندين والظانين ظن السوء والسالقين!

وأما ما قلتُ في وفاة المسيح فما كان لي أن أقول من عند نفسي، بل اتبعثُ قول الله تعالى وآمنت بما قال الله تعالى Y: "يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْقُطْ إِلَيْنَا وَمُطَهِّرْكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ". فانظر كيف شهد الله على وفاته في كتابه المبين! ومعلوم أن الرفع وتطهير ذيل المسيح من إلزامات اليهود وبهتاناتهم، وغلبة أهل الحق وضرب الذلة على اليهود، وجعلهم مغلوبين مقهورين تحت النصارى والمسلمين.. لقد وقعت هذه الأنباء والمواعيد كلها وتمت وظهرت، وما وقعت إلا على صورتها وترتيبها، وقد انقضت مدة طويلة على ظهورها ووقوعها، فكيف يعتقد عاقل بالغ ذو عقل سليم وفهم مستقيم بأن خبر التوفي الذي قُدِّمَ على هذه الأخبار في ترتيب الآية الموصوفة هو غير واقع إلى وقتنا هذا، وما مات

عيسى بن مريم إلى هذا الزمان الذي فسد بضلالات أُمته، بل يموت بعد نزوله في وقت غير معلوم؟ ولا يخفى سخافة هذا الرأي على المتفكرين.

والقائلون بحياة المسيح لما رأوا أن الآية الموصوفة تُبَيِّن وفاته بتصريح لا يُمكن إخفاؤه، جعلوا يؤوّلونها بتأويلات ركيكة واهية، وقالوا إن لفظ **التوفي** في آية: [يَا عِيسَى ابْنِي مُتَوَفِّيكَ...] كان مؤخراً في الحقيقة من كل هذه الوقائع، يعني من رفع عيسى وتطهيره من البهتانات ببعث النبي المصدّق وغلبة المسلمين على اليهود وجعل اليهود من السافلين، ولكن الله قدّم لفظ "المتوفي" على لفظ "رافعك" وعلى لفظ "مطهّرك" وغيرها مع حذف بعض الفقرات الضرورية رعايةً لصفاء نظم الكلام كالمضطرين. وكان اللفظ المذكور.. يعني: [ابْنِي مُتَوَفِّيكَ] في آخر ألفاظ الآية، فوضّعه الله في أولها اضطراراً لرعاية النظم المحكم، وكان الله في هذا التأخير والتقديم من المعذورين، فلأجل هذا الاضطرار وضع الألفاظ في غير مواضعها وجعل القرآن عريضاً. والآية بزعمهم كانت في الأصل على هذه الصورة: يا عيسى ابني رافعك إليّ، ومطهّرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، ثم مُنزلك من السماء ثم متوَفِّيكَ. فانظر كيف يبدّلون كلام الله ويحرّفون الكلم عن مواضعها، وليس عندهم من برهان على هذا.. إن يتبعون إلا أهواءهم، وما كان لهم أن يتكلموا في القرآن إلا خائفين. وأنت تعلم أن الله مُنَزّه عن هذه الاضطرابات، وكلامه كله مُرتّب

كالجواهرات، والتكلم في شأنه بمثل ذلك جهالة عظيمة، وسفاهة شنيعة، وما يقع في هذه الوسائس إلا الذي نسي قدرة الله تعالى وقوته وحوله، واحتقره وما قدره حق قدره، وما عرف شأن كلامه، بل اجتراً وألحق كلام الله بكلام الشعارين.

وكيف يجوز لأحد من المسلمين أن يتكلم بمثل هذا، ويبدل كلام الله من تلقاء نفسه، ويحرفه عن موضعه من غير سند من الله ورسوله؟ أليست لعنة الله على المحرفين؟ ولو كانوا على الحق فلم لا يأتون ببرهان على هذا التحريف من آية أو حديث أو قول صحابي أو رأي إمام مجتهد إن كانوا من الصادقين؟ وكيف نقبل تحريفاتهم التي لا دليل عليها من الكتاب والسنة ولا نجدها إلا كتحريف اليهود من تلبيس الشياطين. وأما السلف الصالح فما تكلموا في هذه المسألة تفصيلاً، بل آمنوا مجملًا بأن المسيح عيسى بن مريم قد تُوفي كما ورد في القرآن، وآمنوا بمجدد يأتي من هذه الأمة في آخر الزمان عند غلبة النصارى على وجه الأرض اسمه عيسى بن مريم، وفوضوا تفصيل هذه الحقيقة إلى الله تعالى، وما دخلوا في تفاصيله قبل الوقوع، وكذلك كانت سيرتهم في الأنبياء المستقبلية كما هي سنة الصالحين. فحلف من بعدهم حلف أضاعوا سنتهم وتركوا سيرتهم، وأولوا قول الله ورسوله إلى ما اشتتهت أنفسهم، ثم أصروا عليه كأهم عرفوا أسرار الله يقينا وكأنهم كانوا من المستيقنين. ألم يعلموا أن الله صرح في القرآن العظيم بأن المنتصرين ما أشركوا وما ضلّوا إلا بعد وفاة المسيح كما يفهم من آية:

[فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ]؟ فلو لم يُتَوَفَّ المسيح إلى هذا الزمان للزم من هذا أن يكون المنتصرون على الحق إلى هذا الوقت ويكونوا مؤمنين موحدين.

يا حسرة عليهم! لم لا يتفكرون في هذه الآيات؟ أليس فيهم رجل رشيد وفهيم وأمين؟ وأنت تعلم أن آية: [فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي] قد دلّت بدلالة صريحة واضحة بيّنة على أن ضلالة النصارى واتخاذهم العبد إلهًا مشروطةٌ بوفاة عيسى U، ولا يُنكره إلا من عاندَ الحق بسوء تميّزه واستعمل المكابرة والتحكم بجهله وحُقه، وأبى متعمداً من أن يكون من المهتدين. وإذا قيل لهم آمنوا بما صرّح الله في كتابه من وفاة المسيح وضلالة النصارى بعد وفاته لا في زمن حياته، قالوا أنؤمن بمعان تخالف الأحاديث؟ وقد كانوا يعلمون الناس أن الخبر الواحد يُردُّ بمعارضة كتاب الله، فنسوا ما ذكروا الناس وانقلبوا إلى الجهل بعدما كانوا عالمين. وما نجد في حديثٍ ذُكر رفع المسيح حيًّا بجسمه العنصري، بل نجد ذكر وفاة المسيح في البخاري والطبراني وغيرهما من كتب الحديث، فليرجع إلى تلك الكتب من كان من المرتابين.

وأما ذكرُ نزول عيسى بن مريم فما كان لمؤمن أن يحمل هذا الاسم المذكور في الأحاديث على ظاهر معناه، لأنه يخالف قول الله Y: [مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ] ^١. ألا تعلم أن الرب الرحيم المتفضل سمى نبينا p خاتم الأنبياء بغير استثناء،

وفسّره نبئنا في قوله **لا نبي بعدي** بيان واضح للطالبيين؟ ولو جوّزنا ظهور نبي بعد نبينا ρ لجوّزنا انفتاح باب وحي النبوة بعد تغليقها، وهذا حُلْفٌ كما لا يخفى على المسلمين. وكيف يجيء نبي بعد رسولنا ρ وقد انقطع الوحي بعد وفاته وختم الله به النبيين؟ أعتقد بأن عيسى الذي أُنزل عليه الإنجيل هو خاتم الأنبياء، لا رسولنا ρ؟ أعتقد أن ابن مريم يأتي وينسخ بعض أحكام القرآن ويزيد بعضا، فلا يقبل الجزية ولا يضع الحرب، وقد أمر الله بأخذها وأمر بوضع الحرب بعد أخذ الجزية؟ ألا تقرأ آية: [يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ*]؟ كيف ينسخ المسيح محكمات الفرقان؟ وكيف يتصرّف في الكتاب العزيز ويطمس بعض أحكامه بعد تكميلها؟ فأعجبنى أنهم يجعلون المسيح ناسخ بعض أحكام الفرقان ولا ينظرون إلى آية: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ]، ولا يتفكرون أنه لو كانت لتكميل دين الإسلام حالة منتظرة يُرجى ظهورها بعد انقضاء ألف من السنوات، لفسد معنى إكمال الدين والفراغ من كماله بإزالة القرآن، ولكان قول الله Y: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ] من نوع الكذب وخلاف الواقعة، بل كان الواجب في هذه الصورة أن يقول الرب تبارك وتعالى إني ما أنزلت هذا القرآن كاملا على محمد ρ بل سأُنزل بعض آياته على عيسى بن مريم في آخر الزمان، فيومئذ يكمل القرآن وما كمل إلى هذا الحين.

وأنت تعلم أن هذا القول فاسد بالبداهة، ولا يظن كمثل هذا إلا الذي هو من أكابر المعتدين. نعم، يوجد في بعض الأحاديث لفظ نزول عيسى بن مريم، ولكن لن تجد في حديث ذكر نزوله من السماء، بل ذكر وفاته موجود في القرآن، وما جاز أن يكون هذا التوقي بعد النزول، لأن الفتن التي أشير إليها في آية: [فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي] إنما هاجت وظهرت على وجه الأرض من مدة طويلة، وتمت كلمة ربك كما قال، وترى النصارى ينتحون لهم إلهًا وابن إله، وكذلك تدل آية: [يَا عِيسَى ابْنِي مَتَوْفَيْكَ] على أن عيسى قد تُوِّفِّي وكان الله خليفة له إلى يوم القيامة، فكيف يمكن نزوله بعد الموت وقد قال الله تعالى: [وَيُمْسِكُ الَّذِي فَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ]، وقال: [وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ*]. ولا يوجد في حديث أن عيسى يحيى بعد وفاته ويخرج جسمه من القبر. والجسم الذي دُفن في القبر كيف ينزل من السماء؟ فهذه القرائن دالة على أن للنزول معنى آخر، وإلا فكيف يمكن أن يُخبر الله أولاً بوفاة المسيح ويخبر بأنه خليفته بعد وفاته، وبأنه متمم أغراضه بعده وجاعل أتباعه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة بإرسال رسوله الكريم P، وإرسال عباد مُحَدَّثِينَ مُلْهَمِينَ الذين يُصَدِّقُونَ المسيح، ثم يرجع فيناقض قوله الأول ويقول إنه لم يمت بل هو نازل من السماء؟ فكانه نسي قوله السابق ونسي آياته. ولكنك لن تجد اختلافا في كلامه، فلا تنسب إليه أقوالا قد وقعت في غاية الضد

والتناقض. ووجب علينا أن نصرف مثل هذه الكلمات عن الظاهر، ولو كانت موجودة في حديث بالفرض والتقدير، ونرجع إلى تأويل يوافق القرآن.

فانظر كيف بيّن الله تعالى وفاة المسيح في كتابه، ثم انظر هل يكون من البيان والشرح والإيضاح والتصريح أكثر من هذا؟ ثم انظر أنه عز اسمه ما قال رافعك إلى السماء، بل قال: [رَافِعُكَ إِلَيَّ]، وقوله: [رَافِعُكَ إِلَيَّ] يُشابهه قوله: [ارْجِعِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً] ♦، وما معنى هذا إلا الوفاة، فاستيقظ وكن من المتدبرين.

أيها العزيز! كيف نقبل عقيدة يخالف نصوص القرآن ويعارض بيانه، ولا دليل معه ولا سبيل إليه، ولا يأتون بحجة عليه ولا برهان ساطع، وأظن أنك تفهم إذا أنصفت وفكرت، وقد كتبت كل ذلك في كتيبي مع الدلائل، وأكره التطويل في مكتوبي هذا فإنه يوجب الملل، فاقصرت على ما كتبت. ومن يدرس كتاب الله حق دراسته فأتيقن أن يصل إلى أعلى مراتب اليقين في هذا الأمر، ويتفق رأيه برأيي ويكشف بين يديه كل ما قلته. فتدبّر، أنار الله عقلك وجعلك من المستيقنين. وينبغي لك - رحمك الله - أن تُقدّم القرآن وتعظّم آياته، فإنه يقيني، وكل آية قطعية متواترة، وما مسّته أيدي الناس، وما اختلط به شيء من أقوال بني آدم، وإنه كلام رباني لا شك فيه، وإنه آيات إلهية لا ريب فيها. وأما الأحاديث فأنت تعلم أن كلها آحاد إلا القدر القليل

الذي هو كالنادر، فتفكّر في هذا بطهارة النفس وصحة النية وسلامة القلب، وأدعو أن يؤيدك الله بإلهامه، ويهب لك لُطْفَ النظر ودقة الفكر، ويكون معك ويجعلك من العارفين.

وأما إيمان قومنا وعلمائنا بالملائكة وغيرها من العقائد فلسنا نجادلهم فيه ولا نخطّئهم في ذلك، وليس في هذه العقائد عندنا إلا التسليم، وإنما نحن مناظرون في أمر نزول المسيح من السماء، ولا نُسلم أنه ثابت من الكتاب والسنة، وإن كان ثابتاً فلا ينبغي لنا ولا لأحد أن يأبى ويمتنع من قبوله، فإنه لا يفر من قبول الحق إلا ظالم مُعتد لا يُحب الصداقة، أو ضال جاهل لا يعرف قدرها. وأما إن كان غير ثابت فلا ينبغي لصالح أن يختاره لنفسه، فكيف يدعو إليه رجلاً يمشي على صراط مستقيم، وكيف يحسبه من الكافرين؟ وإن أمر الدين أمرٌ جليل الخطب عظيم القدر، لا ينبغي لأحد أن يستعجل فيه، بل اللازم الواجب على كل مسلم مؤمن أن يطرح من بينه البخل والشحناء، ويدعو الله ويسأله بالتضرعات والابتهالات هدايته من لدنه، ومن يهدي إلا الله وهو أحسن الهادين؟ ومن نظر في القرآن، وفكّر في الفرقان بالتدبر والإمعان، فيظهر عليه كل ما سَوَّلَتْ للعلماء أنفسهم وقد عتوا غُثّاً كبيراً، وعاندوا الحق وأشاعوا كذباً وزوراً، وإن الحق يعلو ولو دفنوه تحت الأرضين.

ولندع الآن ذكر هؤلاء ونأخذ في ذكر ادعائنا مكرراً لينظر المنصفون هل يجب عليهم قبول ذلك أو رُدُّه، فنقول إن ديننا هذا

الذي اسمه الإسلام.. ما أراد الله أن يتركه سُدى، وما أراد أن يُبطله ويحتربه من أيدي الأعداء، بل قال وهو أصدق الصادقين: [وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ*]، وقال: [إِنَّا نَحْنُ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِطُونَ^{٥٦}]، وقال: [وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ^{٥٧}]، وقال: [ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ^{٥٨}]. فهذه كلها مواعيد صادقة لتأييد الإسلام عند ظهور الفتن وغلبة المعاصي والآثام، وأي فتن أكبر من هذه الفتن التي ظهرت على وجه الأرض؟ وإن النصارى قد دخلوا على الناس من باب لطيف، وسحروا أعين الناس وقلوبهم وآذانهم بالمكائد التي هي دقيقة المآخذ، وأضلّوا خلقا كثيرا وجاءوا بسحر مبین. ثم اعلم أن للمسيح الموعود كما جاء في الأحاديث ثلاث علامات:

الأول: أنه يجيء عند غلبة النصارى وعند غلبة مكائدهم وشدة جهدهم لإشاعة مذهب التنصر، فيأتي وينزل فيهم ويكسر صليبيهم ويقتل خنازيرهم، ولا يغزو ولا يحارب، بل كل ذلك يفعل بالقوة السماوية، والطاقة الروحانية، والأسلحة الفلكية، ويضع الحرب ويظهر كالمساكين.

والثاني: أنه يتزوج، وذلك إيماء إلى آية يظهر* عند تزوجه من يد القدرة وإرادة حضرة الوتر، وقد ذكرناها مفصلاً في كتابنا التبليغ والتحفة، وأثبتنا فيهما أن هذه الآية سيظهر* على يدي، ولولا هذه الآية لما كان سبب معقول لذكر هذه العلامة، فإن التزوج ليس من أمور نادرة متعسرة، لكي يُقال إنه لا يقدر عليه كاذب إلا المسيح الصادق الذي جاء من رب العالمين، بل التزوج أمر عام يقدر عليه كل رجل ذي مال وثروة حتى الكافر والفاسق، فضلاً من أن يكون محدوداً في نبيٍّ أو وليٍّ. فثبت أنه إشارة إلى آية عظيمة يظهر* عند تزوجه، وقد فصلناها في كتابنا للناظرين.

الثالث: أنه يولد له، وهذا أيضاً كلام إيماضي كمثل قوله يتزوج، وفيه إشارة إلى أنه يولد له ولدٌ صالح يُضاهي كمالاته، وإلا فما التخصيص في الأولاد فقط؟ أوجود الأولاد أمرٌ مستبعدٌ في غير المسيح؟ بل يوجد في كل قوم، وكاذب وصادق.

فهذه علامات للمسيح الصادق أنبأ بها خير المنبئين، وهي كلها صدقت في نفسي، وهذه من علامات يُعرف بها صدقي.

ومن علامات أخرى أن الله تعالى أظهر على يدي بعض آيات، وأنبأني أخباراً قبل وقوعها، وقد استجاب كثيراً من أدعيتي، ونصرني في كل موطن، وقد فُتحت عليَّ أبواب إلهاماته وأنا يومئذ ابن أربعين،

* سهو، والصحيح: تظهر. (الناشر)

فما تركني، وما ودّعني، وما أضاعني، بل خصّصني بالتحديث والمكاملة، وأمرني لأتمّ حجته على المنتصرين.

ولو كان عيسى حيا بجسده العنصري في السماء الثانية كما هو زعم قومي، فكان الواجب أن ينزل في هذا الوقت، فإن الأمم قد هلكت بمكائد النصارى، وبلغت المفاصد منتهاها، والقعود على السماوات مع ضلالة أهل الأرض وفساد أُمته شيءٌ عجيب، وما نعلم ما الفائدة في هذا القعود وإضاعة العمر. وما كان الله ليضيع عمره في زاوية السماوات وقد رأى أُمته قد وقعت في هوة الهلاك، وأفسدت في الأرض أكثر مما أفسد الدجالون من قبل، ولا نظير لهم في إشاعة الكذب والشرك من آدم إلى هذا الوقت. ألا ترى أن موسى ٥ لما كلّم ربّه على طور سينين، واتخذت أُمته من بعده عَجلاً جسداً له حُوار، كيف أنبأ الله موسى ٥ بهذه الواقعات كلها، وقال ارجعْ إلى قومك بقدّم العجلة، فإنهم قد هلكوا باتخاذ العجل إلهاً، فرجع موسى غضباناً أسفاً، وأخذ بلحية أخيه، ووقع ما تقرأ في القرآن، وما كان فتنة العجل أشدّ من فتنة المنتصرين.

وأنت تعلم أن فتنة النصارى مع شدة أهوالها وكثرة ضلالها وغلبتها على وجه الأرض كلها، قد امتدت ومكثت إلى ألفين من سنة وفاة المسيح، ولكن ما نزل عيسى ٥ إلى هذا الوقت الذي أخبر عنه أهل الكشف كلهم، وما نرى آثار نزوله، فهذه أمور لا نرى جوابها عند هذه العلماء. وقد رأوا مني آيات فلم يلتفتوا إلى ذلك، وقالوا استدراج

أو رمل، وُجِّهوا لشدة إعجابهم، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً، وكان لها من قلوبهم مكان، وفي أعينهم قدر، ولكنهم كذبوا حسداً من عند أنفسهم، فنعوذ بالله من الحاسدين. وتركوا الحق المبين، واعتصموا بأقاويل ضعيفة. ألا يتدبرون أن الله ما رأى واقعة من معظّمات الوقاعات الآتية إلا ذكرها في القرآن؟ فكيف ترك واقعة نزول المسيح مع عظمة شأنها وعُلُوّ عجائبها؟ ولم تركها إن كانت حقّاً؟ وقد ذكر قصّة يوسف وقال: [نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقُصَصِ ۖ]، وذكر قصة أصحاب الكهف قال: [كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا*]، ولكن لم يذكر شيئاً من ذكر نزول عيسى من السماء من غير ذكر الوفاة، فلو كان النزول حقّاً لما ترك القرآن هذه القصة، ولذكرها في سورة طويلة، ولجعلها أحسن من كل قصة، لأن عجائبها مخصوصة بها، ولا نظير لها في قصص أخرى، ولجعلها آية لأُمَّة آخر الزمان. فهذا هو الدليل الصريح على أن هذه الألفاظ غير محمولة على الحقيقة، والمراد منها في الأحاديث مجدّد عظيم يأتي على قدم المسيح ويكون نظيره ومثيله، وأُطلق اسم المسيح عليه كما يُطلق اسم البعض على البعض في عالم الرؤيا، وهذه سُنّة جارية في الوحي والرؤيا، وتجد نظيرها بكثرة في كتب الأحاديث وكتب تأويل الرؤيا، فالمراد منه مثيلٌ يكون للمسيح كوجوده، وينزل بمنزلة ذاته من شدة المماثلة، ويخرج عند غلبة النصارى، ويتم على يده حجة الله، ويُعلي كلمة الإسلام، ويظهر

الدين على الأديان كلها بالحجج والبراهين. ومع ذلك نجد في القرآن أن في آخر الزمان تغلب النصارى على وجه الأرض، وينسلون من كل حذب، ويهيجون الفتن، ويصولون على الإسلام بمكائدهم، ويجلبون عليه رَجْلَهُمْ وَخَيْلَهُمْ، ولا يتركون من كيد في إطفاء نور الإسلام، فعند ذلك ينظر الرب الكريم إلى هذه الأمة المرحومة الضعيفة التي لا حول لها ولا قوة، فينفخ في الصور، ويُعَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ مِنْ عِنْدِهِ عِلْمًا وَعَقْلًا، وَيُعْطِي لَهُ آيَاتٍ، وَيُنْزِلُهُ مِنْزَلَةً عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ، فَيُنِيرُ الْحَقَّ وَيُطِيلُ كَيْدَ الْخَائِنِينَ. وأما إقامته في مقام عيسى وتسميته باسمه فله وجهين[•]:

الأول: أن المجدد لا يأتي إلا بمناسبة حال قوم يريد الله أن يتم حجته عليه، فلما كانت الأعداء قوم النصارى، اقتضت الحكمة الإلهية أن يُسَمَّى المجدد مسيحا.

والثاني: أن المجدد لا يأتي إلا على قدم نبي يشابه زماناً المجدد زمانه، فهنا قد شابهَ زمانُ قومنا بزمان المسيح، فإن عيسى ﷺ قد جاء في وقت ما بقيت فيه رئاسة اليهود، وتملكت السلطنة الرومية عليهم، ومع ذلك جاء في وقت قد فسدت قلوب علماء اليهود، وزاغت آراؤهم، وكثرت فيهم المكائد والفسق والفجور وحب الدنيا والخساسة والسفاهة والنفاق والجدال، وغير ذلك من الأخلاق الرديئة، وكذلك كان حال قومنا في هذا الوقت، فاقتضت حكمة إلهية أن تسمى المجدد عيسى ابن مريم، رعايةً لحالات المخالفين والموافقين.

• سهو، والصحيح: "وجهان". (الناشر)

وقالوا إن المسيح ينزل من السماء ويقتل الدجال ويُحارب النصارى، فهذه الآراء كلها قد نشأت من سوء الفهم وقلة التدبر في كلمات خاتم النبيين. وأما النزول من السماء فقد فهمت حقيقته، وقد بينت لك أن النزول من السماء لا يثبت من القرآن العظيم، ولا من حديث النبي الكريم. والعجب منهم أنهم يؤمنون بأن الله أنزل في القرآن آيات فيها ذكرُ وفاة المسيح، ثم يظنون أنه حيّ جالس في السماء الثانية مع ابن خالته يحيى النبي الشهيد - على نبينا وعليهم السلام - ولا يتفكرون ولا ينظرون إلى أن يحيى قد قُتل ولحق بالموتى، فكيف جمع الله الحي بالميت؟ وما للموتى والأحياء؟! فالعجب كل العجب أنهم يجمعون في عقائدهم اختلافات كثيرة، ولا يتنبهون على ذلك، ولا يتقون الأقوال المتهافتة المتناقضة، ويتكلمون كالسكارى أو كالمجانين.

وما نجد في أقوال المفسرين أنهم اتفقوا في أمر حياة عيسى، بل لهم في هذه المسألة اختلافات كثيرة. فذهب بعضهم أنه قد مات ثم أُحيي، ولكن هذا قولهم بأفواههم، وما أتوا بدليل على الحياة بعد الموت من النصوص القرآنية أو الحديثية. وبعضهم ذهب إلى أنه صعد بجسمه العنصري إلى السماء قبل الموت، فخالف بيان القرآن في قوله من غير حجة ولا برهان، ولا دليل شاف ولا سلطان مبين. فالحاصل أنهم نطقوا في أمره بحسب ظنهم كهائم واد، وما اتفقوا على رأي واحد في أمر صعوده، وما استطاعوا أن يأتوا بآية أو حديث أو قول صحابي

على صحة عقيدة الصعود بالجسم العنصري. ثم انصرفوا قبل إثبات هذا الأصل العظيم إلى عقيدة النزول، وما عرفوا أن النزول فرع للصعود، وثبوته فرع لثبوته، وإذا ثبت أن القرآن لا يصدّق صعود عيسى بجسمه العنصري، بل يخالفه ويُيّن وفاته في كثير من آياته، فتارة يقول: [يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ]، وتارة يشير إلى وفاته بقوله: [فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ]، وتارة يقول: [وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ] أي ماتوا كلهم - ولو لم نختر هذا المعنى في هذه الآية المؤخرة يبطل الاستدلال المطلوب - فكيف نترك القرآن وشهاداته؟ وأي شهادة أكبر من شهادة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ فهل تريد - أصلحك الله - دليلاً أوضح من هذا؟ فالأنسب والأولى أن يُعرض غير القرآن على القرآن، ولو كان حديث رسول الله ﷺ، أو كشف ولي، أو إلهام قُطْب، فإن القرآن كتاب قد كفل الله صحته، وقال: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ*]، وإنه لا يتغير بتغيّرات الأزمنة ومرور القرون الكثيرة، ولا ينقص منه حرف ولا تزيد عليه نقطة، ولا تمسه أيدي المخلوق، ولا يُخالطه قول الآدميين. ومع ذلك لا شك أن القرآن وحي متلو، وكله متواتر قطعي، حتى النقاط والحروف، وأنزله الله باهتمام شديد كامل بحراسة الملائكة. ثم ما ترك النبي ﷺ دقيقة من الاهتمامات في أمره، وداوم على أن يكتب أمام عينه آية آية كما كان ينزل حتى جمع

كله، ورُتّب الآيات وجمّعها بنفسه النفيسة، وكان يُداوم على قراءته في الصلاة وغيرها، حتى ارتحل من دار الدنيا ولحق بالرفيق الأعلى، ولاقى محبوبه رب العالمين. ثم بعد ذلك قام الخليفة الأول أبو بكر الصديق π لتعهّد جميع سوره بترتيب سمع من النبي ρ ، ثم بعد الصديق الأكبر وفق الله الخليفة الثالث فجمع القرآن على قراءة واحدة بحسب لغة قريش وأشاعه في البلاد. ومع ذلك كان الصحابة كلهم يقرأون القرآن كالحفاظ، وكان كثير منه في صدور المؤمنين، وكانوا يقرأونه في الصلاة وخارجها، بل كانوا بعضهم حافظ القرآن كله، وكانوا يتلونونه في آناء الليل والنهار، وكانوا على تلاوته مداومين.

فتفكّر أيها العبد الصالح، أين حصل هذا المقام الأعلى والأسنى لحديث في زمان من الأزمنة؟ وإن الأحاديث كلها آحاد[•] وما توجه رسول الله ρ إلى جمعها وكتابتها، ولا صحابته الكرام، وما كفلها الله وما ضمن وما وعد لعصمتها وحفاظتها كوعده لحفاظة القرآن. ومع ذلك كُتبت الأحاديث بعد زمان طويل، وبعد قرون من وفاة نبينا ρ . ومع ذلك يوجد في بعضها اختلاف كثير وتناقض عسير، فهذا هو السبب الذي جعل هذه الأمة فرقةً فرقة، فبعضهم حنفي، وبعضهم

• حاشية: اعلم.. أرشدك الله.. أن الإمام البخاري مع شدة اهتمامه في تصحيح الأحاديث وتوفيقيها وتنقيدها وتفقيش رُواتها عجز عن رفع التناقض الذي يوجد في أحاديث صحيحة حتى تُؤفّق، ثم ما كان لأحد أن يتدارك ما فاتته. ألا تنظر إلى أحاديث المعراج كيف يوجد فيها اختلافات عظيمة، حتى إن بعضهم ذهب إلى أن المعراج كان في اليقظة، وبعضهم ذهب إلى أنه كانت رؤيا صالحة. فتدبّر ولا تكن من النائمين. منه

شافعي، وبعضهم مالكي، وبعضهم حنبلي. ولو كانت الأحاديث متفقة متوافقة، لما اختلف الناس فيها وما افترقوا، ولكنهم وجدوا الأحاديث بعضها يُخالف بعضها، فأخذ كل واحد حديثاً باجتهاد وفوّض الأمر إلى الله، ففريق ذهب إلى رفع اليدين في الصلاة والتأمين بالجهر وقراءة الفاتحة خلف الإمام، وفريق آخر خالفه في اجتهاده، وكل منهما يستدل بحديث، فكَذلك في ألوف من الأحاديث يوجد اختلاف المذاهب. فالأحاديث التي متنزلة من مراتب التواتر والقطعية واليقين، ولا تخلو من الاختلافات والتناقضات والأضداد.. كيف نحسبها قاضية على القرآن؟ أهذه علامات القضية؟ فتفكروا إن كنتم متفكرين.

وإنّا لا ننظر إلى الأحاديث بنظر الاستخفاف والتوهين، بل نحن نشكر أئمة المحدثين ونحمدهم على سعيهم، ولا شك أن للأحاديث شأنًا عظيمًا، وهي حاملة لتواريخ الإسلام ولأكثر مسائل الدين وجزئياته، ونُعظّمها ونعزّها ونقبلها بالرأس والعين، ولكنّا لا نقدّمها على كتاب الله الإمام المهيمن، وإذا تخالف الحديث والفرقان في أمر من القصص فنشهد الثّقَلَيْنِ أنّا مع الفرقان ولا نبالي طعن الطاعنين. ونعلم أن الخير كله والسلامة كلها في جعل القرآن معياراً لمثل هذه الأخبار، فالقانون الصحيح العاصم من الخطأ أن نعرض كل قصة على القرآن، فإن كان ذكرها في القرآن أو ذكر أمر يُشاكلها ويُشابهها فيقبل ويُؤمن به ويُعتقد عليه، وإن لم يوجد شبيهه في القرآن، لا في هذه الأمة

ولا في أمم أخرى، بل يوجد فيه شيء يعارضه، فمن الواجب أن لا يُقبل مثل هذه القصص إلا في زيّ التأويل. فانظر اقتداءً لهذا القانون العاصم الذي بلغنا من رسول الله ρ، هل تجد لقصة صعود المسيح مع جسمه العنصري ولقصة نزوله من السماء واضعاً كفيه على جناحي الملكين أصلاً أو أثراً في القرآن أو قصة مما يُشابه هذه القصة؟ بل القرآن يُنزه شأن الله عن مثل تلك الأفعال في هذه الدنيا ويقول: [قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا]♦. وإنه خالف قصة النزول جهراً بحيث ذكر بشاراتٍ بشر بها المسيح في كلامه المرتب المرصع، فبلغ الكلام من قوله: [إِنِّي مُتَوَفِّيكَ] إلى قوله: [يَوْمَ الْقِيَامَةِ]، وما ذكر فيه قصة صعود المسيح ولا نزوله، ولو كانت صحيحة لذكرها في ضمن هذه البشارات، فهذا دليل واضح على أن الفرقان ما صدّق تلك القصص، بل كذبها لذكره المواعيد والتبشيرات للمسيح إلى يوم القيامة، وتركه تلك القصة، وفي ذلك وجوه شافية للطلابين.

واعلم أن القرآن لا يجوز لأحد أن يرقى في السماوات بجسمه العنصري ويبقى فيها حياً إلى يوم القيامة. وأنت تعلم أن طائفة من قريش اقترحوا سؤالات من عند أنفسهم، فكان منها أنهم قالوا لرسول الله ρ: إِنَّا لَا نُؤْمِنُ بِكَ حَتَّى تَرُقَى فِي السَّمَاءِ، فنزل في جوابهم: [قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا]♦. وأنت تعلم أن رسولنا ρ

أفضل الرسل وخاتمهم وأحبهم إلى الله، فالأمر الذي لم يُجْزَ له.. فكيف يجوز لغيره؟ فتدبر يا أخي.. أيدك الله بإلهام مبين.

وأما معراج رسولنا ρ فكان أمراً إعجازياً من عالم اليقظة الروحانية اللطيفة الكاملة، فقد عرج رسول الله ρ بجسمه إلى السماء وهو يقظان لا شك فيه ولا ريب، ولكن مع ذلك ما فقد جسمه من السرير كما شهد عليه بعض أزواجه - رضي الله عنهم - وكذلك كثير من الصحابة. فأنت تعلم وتفهم أن قصة المعراج شيء آخر لا يضاهيه قصة صعود عيسى U إلى السماء، وإن كنت تشك فيه فارجع إلى البخاري، وما أظن أن تبقى بعده من المرتابين.

وأما قوله تعالى في قصة إدريس: [وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا*] فاتفق المحققون من العلماء أن المراد من الرفع ههنا هو الإمامة بالإكرام ورفع الدرجات، والدليل على ذلك أن لكل إنسان موت مُقَدَّر لقوله تعالى: [كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ] ولا يجوز الموت في السماوات لقوله تعالى: [وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ*]، ولا نجد في القرآن ذكر نزول إدريس وموته ودفنه في الأرض، فثبت بالضرورة أن المراد من الرفع الموت. فحاصل الكلام أن كل ما يخالف القرآن ويعارض قصصه فهي أباطيل وأكاذيب، وإنما هو تقوُّل المفترين.

ثم اعلم.. أيدك الله تعالى.. أن عقيدة نزول المسيح من السماء.. مع عدم ثبوته من النصوص القرآنية ومخالفة القرآن فيها، يضر عقائد

التوحيد ويربي عقائد قوم أهلكوا الناس بمثل هذه القصص، فإنه إن كان هذا هو الأمر الحق.. أن عيسى لم يمت كإخوانه من الأنبياء، بل هو حيٌّ موجود في السماء، ومع ذلك كان يخلق الطيور كممثل خلق الله، ويحيي الأموات كإحياء رب العالمين، فأَيُّ ابتلاء أعظم من هذا للذين يدعون إلى ربوبية المسيح في هذا الزمان الذي تتموج فيه فتن النصارى من كل جهة، ويجاهدون بأموالهم وجميع مكائدهم ليضلوا الناس ويجعلوهم من المنتصرين!

ثم اعلّموا.. أيها الأعزة.. أن حياة رسولنا ρ ثابت بالنصوص الحديثة، وقد قال رسول الله ρ إني لا أترك مَيِّتًا في قبري إلى ثلاثة أيام أو أربعين باختلاف الرواية، بل أُحيا وأُرفع إلى السماء. وأنت تعلم أن جسمه العنصري مدفون في المدينة، فما معنى هذا الحديث إلا الحياة الروحاني والرفع الروحاني الذي هو سُنَّة الله بأصفيائه بعدما توفاهم؟ كما قال Y: [يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكَ*]، وما معنى قول: [ارْجِعِي إِلَى رَبِّكَ] إلا المعنى الذي يفهم من قول: [رَافِعُكَ إِلَيَّ]؟ فإن الرجوع إلى الله راضية مرضية والرفع إلى الله أمرٌ واحد، وقد جرت عادة الله تعالى أنه يرفع إليه عباده الصالحين بعد موتهم، ويؤويهم في السماوات بحسب مراتبهم، ولأجل ذلك لقي نبينا ρ كل نبي خلا من قبله في ليلة المعراج في السماوات، فوجد آدم في السماء الدنيا، ووجد عيسى وابن خالته يحيى في السماء الثانية، ووجد موسى في

السماء الخامسة. وهذه الأحاديث صحيحة تجدها في البخاري وغيره من الصحاح، ثم الذين لا يريدون الحق يتعامون وينسون رفع الأنبياء كلهم، ويصرون على حياة عيسى ورفع، ويقرأون حديث المعراج ثم ينسون، ويضيعون أعمارهم غافلين.

أعيسى حيٌّ ومات المصطفى؟ تلك إذاً قسمة ضيزى! اعدلوا هو أقرب للتقوى. وإذا ثبت أن الأنبياء كلهم أحياء في السماوات، فأيّ خصوصية ثابتة لحياة المسيح؟ أهو يأكل ويشرب وهم لا يأكلون ولا يشربون؟ بل حياة كلهم الله ثابت بنص القرآن الكريم.. ألا تقرأ في القرآن ما قال الله تعالى Y: [فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ]، • وأنت تعلم أن هذه الآية نزلت في موسى، فهي دليل صريح على حياة موسى U، لأنه لقي رسول الله P، والأموات لا يلاقون الأحياء. ولا تجد مثل هذه الآيات في شأن عيسى U، نعم جاء ذكر وفاته في مقامات شتى، فتدبر فإن الله يحب المتدبرين.

ولعلك تقول: لم ذكر الله تعالى قصة رفع عيسى U بالخصوصية، وكذلك قصة نفي صلبه في القرآن؟ وأي سرٍّ ومصلحة في ذكرهما وأي حاجة اشتدت لهذا البيان؟ فاعلم أن علماء اليهود وفقهاءهم - غضب الله عليهم - كانوا ظانين ظن السوء في شأن عيسى U، وكانوا يقولون إنه مفترٍ كذاب، وكان مكتوباً في التوراة أن المتنبي الكاذب يُصَلَّب ويُلَعَن ولا يُرْفَع إلى الله تعالى كالأنبياء الصادقين. فأرادوا أن

يصلبوا المسيح ليُثَبِّتوا كذبه بحسب أحكام التوراة، وليبينوا للناس أنه ملعون كذاب ولا يُرْفَع إلى الله.. قاتلهم الله ولعنهم.. كيف احتالوا في نبي من المقربين! فسعوا لصلبه، وبذلوا له كل كيد ومكرٍ لعله يُصلَّب ويحصل لهم حُجَّةً على كذبه وعدم رفعه بكتاب الله التوراة، فبشّر الله عيسى U قائلاً: [يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ] يعني مميتك حتف أنفك، [وَرَأْفَعُكَ إِلَيَّ] يعني رافعك إلى حضرة القرب كالأنبياء الأصدقاء، ولست بنعمة الله من الملعونين والكذابين. فهذه مواعيد تسلية من الرب الكريم لعيسى U وردُّ على اليهود، وقولٌ مبشّر بأن الله لا يهدي كيد الخائنين. والرفع.. كما علمت آنفا.. ليس مخصوصا بعيسى U، والأنبياء كلهم قد رُفِعوا وكان مقعدهم عند مليك مقتدر، وقد وجد نبينا ρ كل نبي مرفوعا إلى سماء من السماوات، بل وجد بعض الأنبياء أرفع من عيسى U.

وفي آية: [وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ] إشارة أخرى، وهي أن النصرى زعموا أن عيسى صُلب لأجل تطهيرهم من المعاصي، وظنوا كأنه حمل بعد الصلب جميع ذنوبهم على نفسه، وهو كفارة لهم ومطهرهم من جميع المعاصي والخطيئات، ففي نفي الصلب ردُّ على النصرى وهدمٌ لعقيدة الكفارة، ومع ذلك ردُّ على اليهود واستئصال لكيدهم الذي احتالوا اعتصاما بالتوراة، وإظهارٌ لبرية عيسى U من بهتان تلك الأقوام. فهذا هو السبب الذي ذكر الله قصة صلب عيسى في القرآن

♦ سهو الناسخ، والصحيح: "البراءة". (الناشر)

وَكَذَّبَهُ، وإلا فما كان فائدة في ذكره، وكم من نبي قُتِلَ في سبيل الله وما جاء ذكر قتلهم في القرآن. فخذُ مني هذه النكتة وكن من المصدقين.

وربما يختلج في قلبك أن رسول الله ﷺ لم اختار لفظ النزول عند ذكر مجيء المسيح الموعود في كل مقام، وترك لفظ البعث والإرسال وغير ذلك. فاعلم أن فيه سر عظيم قد أشار إليه القرآن في مقامات شتى، وهو أن أنبياء الله - عليهم السلام - يُرفعون إلى الله بعد وفاتهم منقطعين من هذا العالم، لا يكون لهم اهتمام ولا فكر لعالم تركوه، بل يصلون ربهم فرحين، ويقعدون عند ملك مقتدر بطيب العيش والحبور والسرور، ويلحقون بالواصلين. وقد يتفق أن أمة أحد منهم تُفسد إفسادا عظيما في الأرض ويرجعون إلى جاهلية أولى بل إلى أقبح وأشنع منها، فيرتعد النبي المتبوع بسماع هذا الخبر عن الله تعالى، ويدركه همٌّ وغمٌّ واضطراب، ويقصد أن ينزل إلى الأرض ويُصلح أُمَّته، فلا يجد سبيلا إليه لما سبق قول الله تعالى: [أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ]، فالله يجعل له مثيلا في الأرض ويجعل إراداته في إراداته، وتوجهاته في توجهاته، ويجعلهما كشيء واحد كأنهما من جوهر واحد، ويُنزل روحانيته على روحانيته، فيظهر المثلُ بشأن وأخلاق وصفات كان الممثل به يوصف بها. فهذا هو الوجه الذي أختير له لفظ النزول ليدل على أن المسيح الموعود يجيء على قدم المسيح الأصلي كأنه هو، فمعنى لفظ النزول الذي جاء في البخاري أن المسيح الآتي ينزل منزلة المسيح الحقيقي.

ومع ذلك لما كان الدجال المفسد المضل خارجا من الأرض بأنواع المكائد والحيل والفنون الأرضية السفلية.. أُخْتِيرَ لفظ النزول للمسيح الموعود مناسبةً ومحاذاة للخارج الأرضي، وإشارةً إلى أن الدجال يُهَيِّجُ فتنته من الحيل الأرضية والمكائد السفلية، والمسيح الموعود لا يأتي بشيء من الأرض من سيف أو سهم أو رمح بل يأتي بالأسلحة الفلكية، وينزل على أجنحة الملائكة، لا يكون معه شيء من الأسباب الأرضية، ويؤيِّدُ بآيات السماء وبركاتها، فكأنه ملكٌ نزل من السماء لإهلاك العفريت الأرضي ● وإطفاء شعله شروره.

واعلم أن لفظ النزول تبشير سماوي للمسلمين لئلا ينقطع رجائهم في زمان تُصَبَّ عليهم المصائب، وتقل الحيل الأرضية والوسائل السفلية، وترتعد قلوبهم برؤية غلبة النصارى ودولتهم وشدة قوتهم، وقوة مكائد أئمة دينهم الذين هم الدجال الأكبر المعهود، والمظهر الأتم للشيطان، لم ير مثله ومثل مكائدهم في العالمين.

فبشّر الله المسلمين المستضعفين في آخر الزمان وقال إنكم إذا رأيتم أن أئمة دين النصارى قد غلبوا على وجه الأرض، وأهلكوا أهلها بأنواع مكائدهم وحيلهم وعلومهم، وجذبهم قلوب الناس إليهم، ورفقهم ولين قولهم، ومداراتهم التي بطريق النفاق، واستعمالهم ضروبا من الحيل،

● الحاشية: قد جاء في بعض الأحاديث أن الدجال لا يكون من نوع الإنس بل إنما هو شيطان يوسوس في صدور تابعيه في آخر الزمان، فتابعوه يكونون مظاهره ومظهر إرادته. منه.

وتأليف القلوب بالتعليم والأموال والنساء والمناصب والمداواة والتشويقات والأمانى والخداع، وإراءة حكومة الدنيا وسلطانها، ومواعيد القرب من دولتهم والتعزز عند أمرائهم، ووجدتم أنهم قد أحاطوا على البلاد كلها وأفسدوا فسادًا كبيرًا بسحر كلماتهم وعجائب تلبيساتهم، وفننهم الأرضية التي بلغت منتهاها، فلا تخافوا ولا تحزنوا، فإنّا نرى ضعفكم وكسلكم في دينكم، وقلة علمكم وعقلكم وهمتكم ومالككم، وقلة حيلكم في تلك الأيام، ونرى أنكم صرتم قوما مستضعفين، فننزل في تلك الأيام نصرًا من عندنا من السماء، وعبداً من لدنّا، ويأتيكم مددنا من العرش خالصا من أيدينا ومن نفخنا، لا يُخالطه سبب من أسباب الأرض، فتتّم حجة ديننا على الظالمين.

وقد أشير في بعض الأحاديث أن المسيح الموعود والدجال المعهود يظهران في بعض البلاد المشرقية، يعني في ملك الهند، ثم يسافر المسيح الموعود أو خليفة من خلفائه إلى أرض دمشق، فهذا معنى القول الذي جاء في حديث مسلم أن عيسى ينزل عند منارة دمشق، فإن النزول هو المسافر الوارد من ملك آخر. وفي الحديث.. يعني لفظ المشرق.. إشارة إلى أنه يسير إلى مدينة دمشق من بعض البلاد المشرقية وهو ملك الهند. وقد أُلقيَ في قلبي أن قول عيسى عند المنارة دمشق، إشارة إلى زمان ظهوره، فإن أعداد حروفه تدل على السنة الهجرية التي بعثني الله فيه.¹ واختار ذكر لفظ المنارة إشارةً إلى أن أرض دمشق تنير

¹ أي يبعث الله الايمان بالمهدي في قلب خليفته الموعود يوسف بن المسيح

وتشرق بدعوات المسيح الموعود بعدما أظلمت بأنواع البدعات، وأنت تعلم أن أرض دمشق كانت منبع فتن المتنصرين.

وتفصيله كما رأيناه في أناجيل النصارى أن **بولص** الذي كان أول رجل أفسد دين النصارى وأضلهم، وأجاح أصولهم، ومكر مكرًا كُبَارًا، وسار إلى دمشق وافترى من عند نفسه قصة طويلة ليعرضها على بعض سادات النصارى الذين كانوا غافلين من مكائده، وكانوا سفهاء بادي الرأي، ذوي الآراء السطحية والعقول الناقصة الضعيفة، سريعي الإيمان بالخرافات المنقولة والعجائبات المروية، ولو كان ناقلها وراويها امرأً كذاباً مفسدًا، فلقي بولص في دمشق رجالاً منهم الذي كان اسمه أنانيا، وكان أولهم غباوة وسريع الميل إلى مثل هذه المزخرفات، فقال يا سيدي إني رأيت كشفًا عجيبًا.. أني كنت أسير مع جملة فرسان إلى جهة من الجهات، وكنت من أشد الأعداء لدين المسيح، أروح وأغدو في هذا الفكر، فنزل عليّ المسيح وناداني من الضوء، وسمعت صوته وعرفته، فقال لم تؤذيني يا بولص؟ أتطبق أن تضرب يدك على رمح الحديد؟ فزجرني وخوّفني حتى خفت وارتعدت، فقلت: يا ربي إني تبت مما فعلت، فأمر ما أفعل بعد ذلك. فأمرني وقال: سِرْ إلى مدينة دمشق، وابحث فيها عن رجل اسمه أنانيا، واقصصْ عليه هذه القصة، فهو يعرفك ما يكون عملك. فالحمد لله أني وجدتكَ ورأيتكَ على صفات عَرَفني بها ربي المسيح. ثم قال بعد تمهيد هذه المكائد يا سيدي إني بريء من دين اليهود، فأدخلني في الملة المقدسة النصرانية، فإني

جئتكم مؤمنا ومبشرا من المسيح. فتنصّر على يد أنانيا، وأجابه أنانيا في كل ما طلبه وعظمه وأشاع هذه القصة في مدينة دمشق. فأول أرض غرس فيه ◆ شجرة ربوبية المسيح هي مدينة دمشق، وغرس بولص فيها هذه الأشجار الخبيثة وأهلك أهلها، فالنصارى كلهم أشجار بذر بولص الذي بذره في دمشق، فأراد رسول الله ρ أن يذكر مدينة دمشق في نبأ المسيح الموعود تنبيهاً إلى أن تلك الأرض كانت مبدأً للفساد، ومنبعاً أولاً لفتن التنصر ولجعل العبد إلهاً. ثم سيصل عبدٌ مؤخّذٌ إليه في آخر الزمان لإشاعة التوحيد كما وصل بولص لإشاعة الشرك والكفر والخبث، تلبساً من عند نفسه، ليكون له مكانا في أعين النصارى.

فالحاصل أن دمشق كان أصلاً ومنبعاً لفتن المتنصرين، وكان مبدأ الفساد ومبدأ كيد الكائدين. فبشّر الله لعباده أن فتنة ألوهية المسيح بُجّاح وتُزال من وجه الأرض كلها حتى من دمشق الذي كان مبدؤها ومنبعها، وينتهي كمال التوحيد إليه كما ابتدأت الفتن منه. وهذا فعل الله وعجيب في أعين الذين لا يؤمنون بعجائب رحمة أرحم الراحمين. وأما قتل الدجال الذي هو من علامات المسيح.. فاعلموا أيها الأعزة أيديكم الله.. أن لفظ الدجال ليس اسم أحد سماه أبواه به، بل هو في اللغة فئة عظيمة يقطعون نواحي الأرض سيراً، ويغطّون الحق على الباطل ويؤرونه كالحق الخالص المحض، وينجسون وجه الأرض

بالتموهيات والتلبيسات، ويفوقون مكرًا وكيدًا كلَّ مكار وكائد، وتعمُّ الأرض كلها بليّائهم وآفاتهم. ولو كان المراد من لفظ الدجال رجلا خاصًا لبين النبي ρ اسم ذلك الرجل الذي لُقّب بالدجال، أعني الاسم الذي سماه والداه، وبين اسم والديه، ولكن لم يُبين ولم يصرّح اسم أبيه وأمه. فوجب علينا أن لا ننحت من عند أنفسنا رجلا خاصا، بل ننظر في لسان العرب، ونقدم معنى يهدي إليه لغة قريش، فإذا ثبت معناه أنه فئة الكائدين فوجب بضرورة التزام معنى اللفظ أن نقر بأنه فئة عظيمة فاقوا مكرًا وكيدًا وتلبيسًا أهلَ زمانهم، ونجسوا الأرض كلها بخيالاتهم الفاسدة.

ثم إذا رجعنا إلى القرآن ونظرنا فيه.. هل هو يبين ذكر رجل خاص مسمى دجالا، فلا نجد فيه منه أثرًا ولا إليه إشارة، مع أنه كُفِّلَ ذِكْرُ واقعات عظيمة لها دخلٌ في الدين، وقال: [مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ^{٣٩}]، وقال في مقامات كثيرة إن في القرآن تفصيل كل شيء، ولكن لا نجد في القرآن ذكر الدجال - الذي هو فرد خاص بزعم القوم - إجمالاً، فضلاً عن التفصيلات. نعم إننا نرى أن القرآن قد ذكر صريحاً فئة مفسدة في الدين، وذكر أن في آخر الزمان يكون [♦] قوما مكارين مفسدين، ينسلون من كل حذب، ويهيّجون الفتن في الأرض كأمواج البحار، فتلك هي الفئة التي سُمِّيت في الأحاديث دجالاً. والله

• الأنعام: 39

♦ يبدو أن لفظ "يكون" زيد هنا سهواً. (الناشر)

يعلم أن هذا الأمر حق وظهرت العلامات كلها. ألا ترى أنهم أشاعوا الكفر والشرك أكثر مما أشاع الكفار كلهم من وقت آدم إلى هذا الوقت؟ والأماكن التي مروا بها وتسلبوا عليها فقد بذروا فيها بذر الكذب والفتنة والفساد والتنازعات على جيفة الدنيا وأموالها وأراضيها وعماراتها وإماراتها. وقد هيّجوا بعض الناس على بعض بلطائف الحيل والتدابير الموقعة في المجادلات، وقد أشاعوا الفسق والإلحاد والزندقة، وعلموا أهل الدنيا سيرةً دجاليةً وفتناً لطيفةً، وما بقيت الأمانة في هذه الديار ولا الديانة ولا الصدق ولا الوفاء ولا العهد ولا الحياء ولا فكر الآخرة إلا ما شاء رب العالمين. يتوادّون للدنيا، ويتباغضون للدنيا، ويلاقون للدنيا، ويفارقون للدنيا، ولا يستبشرون إلا بذكر الدنيا وزخارفها. وفيهم لصوص وخدّاعون وغاصبون. يتمنون موت الشركاء بل موت الآباء لمتاع قليل من الدنيا وعرضها، وأراهم من موتهم غافلين.

والحاصل أن قوم النصارى قومٌ قويُّ الهمة في إشاعة الفتن والضلالات، وإلقاء التفرقة في الأقوام والقبائل، شديدُ الهيبة صاحب البطش وصاحب الدولة والمال الجزيل، مبدأ الفتن كلها، لا يأمنهم قريب ولا بعيد. وجدوا أهل هذه الديار كعصفور، ففتنوا من ريشهم وأكلوا من لحمهم، وتركوهم في مكاره الدنيا وشدائدها، وجعلوهم كأنفسهم ضالين ومضلين. وقد تعسّرت عليهم تجاراتهم وسوقهم وكسبهم، ونهبت إيمانهم رياح الضلالات، وقد ضل أحداثهم ونسائهم

وذراريهم من هذه الفتن الهائجة كالطوفان العظيم. وتنصّر خلق كثير من سادات القوم ومن أولاد مشائخهم وعلمائهم وأمرائهم، فبعضهم ارتدوا طمعاً في أموالهم، وبعضهم طمعاً في نسائهم، وبعضهم طمعاً في الخمر وطرق الفسق والحرية النصرانية التي قد بلغت إلى الغاية، وبعضهم من التزغيب في حكومة الدنيا وسلطانها ومناصبها ولذاها وشهواتها. وأمّا الذين حماهم فضل الله وعنايته فأبرياء منهم، وقليل ما هم. فهذه مصيبة عظيمة على الإسلام، وداهية يرتعد منه^٥ روح الكرام، ولا تخلّص منها إلا بعناية تنزل من السماء، لأنّ هم المسلمين قد تقاصرت، والمصائب عليهم قد نزلت، والمعاصي قد كثرت، أكبوا على الدنيا وزخارفها، وأكثرهم هلكوا مع الهالكين.

فلا تكن من الممترين في كون النصارى دجالاً معهوداً ومظهرًا عظيمًا للشيطان. وانظر إلى فتنتهم وسحرهم وتسخيرهم المياه والأدخنة والجبال والبحار والأنهار، وإخراجهم خزائن الأرض ومكائدهم وإضلالاتهم، هل تجد نظيرهم في الأولين والآخرين؟

وأما قول بعض علماء الإسلام إنّ المسيح الموعود يُحارب النصارى، ولا يرضى إلا بقتلهم أو إسلامهم، فهذا افتراء على كتاب الله ورسوله. فإنّا إذا نظرنا الصحاح بنظر الإمعان فما وجدنا أثره فيها، ونعلم مستيقناً أن العلماء اخطأوا في فهم تلك الأحاديث، ووضعوا الألفاظ في غير موضعها. ألم يعلموا أن القرآن لا يصدّق هذا البيان..

٥ سهو، والصحيح: "منها". (الناشر)

والبخاري الذي هو أصحّ الكتب بعد كتاب الله يكذّبه بالبيان الصريح؟ وقد جاء فيه حديثٌ ذُكر فيه أن عيسى يضع الحرب، فهذه إشارة صريحة إلى أنه لا يحارب بالسيف والسنان. ثم أنصِفوا - رحمكم الله - أن النصارى لا يحاربون المسلمين لإشاعة دينهم في زماننا هذا، ولا يصدّونهم عن دين الله بأيديهم، فكيف يجوز للمسلمين أن يحاربوهم مع كونهم ممنوعين؟

بل الدولة البريطانية محسنةٌ إلى المسلمين، والملكة المكرّمة التي نحن رعايا لها يرجح الإسلام في باطنها على ملل أخرى، بل سمعنا أزيد من هذا، ولكن لا نرى أن نذكرها. فالحاصل أنها كريمة، وألقى الله في قلبها حب الإسلام، فلهذا السبب جعلها الله مواسية للمسلمين، حتى إنها تحب أن يُشاع الإسلام في بلادها، وتقرأ بعض كتب لساننا من مسلم آواه* عندها، وسُرّت بشيوع ديننا في بلادها المغربية، بل أسلمت طائفةً من قومها في بلدة قريبة من دار دولتها، فرحمتهم وأحسنّت إليهم، وأشاعت كتبهم في أقاربها، وتريد أن تؤوي بعضهم في أعزة أمرائها، وأمرتهم أن يعمّروا مساجد لعبادتهم ويعبدوا ربهم آمنين.

ونحن نعيش تحت ظلها بالأمن والعافية والحرية التامة. نصلي ونصوم، ونأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ونردّ على النصارى كيف نشاء، ولا مانع ولا حارج ولا مزاحم، وهذا كله من حسن نيتها وصفاء قلبها وكمال عدلها. ووالله لو هاجرنا إلى بلاد ملوك الإسلام لما

* سهو، والصحيح: "آوته". (الناشر)

رأينا أمناً وراحةً أزيدَ من هذا. وقد أحسنتُ إلينا وإلى آبائنا بآلاء لا نستطيع شكرها. ومن أعظم الإحسانات أنها وأمراءها لا يُدخلون في ديننا مثقال ذرة، ولا يمنعون أحد منهم من فرائضنا وسُنننا ونوافلنا ودرّنا على مذهب قومهم، ولا ييخلون في النعماء الدنيوية، وإنهم لمن العادلين.

فلا يجوز عندي أن يسلك رعايا الهند من المسلمين مسلك البغاوة، وأن يرفعوا على هذه الدولة المحسنة سيوفهم، أو يعينوا أحدا في هذا الأمر، ويعاونوا على شر أحد من المخالفين بالقول أو الفعل أو الإشارة أو المال أو التدابير المفسدة، بل هذه الأمور حرام قطعي، ومن أرادها فقد عصى الله ورسوله وضل ضلالاً مبيناً. بل الشكر واجب.. ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. وإيذاء المحسن شر وخبث وخروج من طريق الإنصاف والديانة الإسلامية، والله لا يُحب المعتدين.

نعم إن علماء النصارى يفسدون في الأرض باتخاذهم العبد إلهاً ودعوتهم إلى طاغوتهم وإشاعتهم مذهب التنصر في الأكناف والأقطار والقريب والبعيد، ولكن لا شك أن ذيل هذه الدولة منزّه عن مثل هذه الأمور وتحريكاتها، وما أظن أن أحدا من عقلائهم يعتقد بأن عيسى إله في الحقيقة، بل يضحكون على مثل هذه الاعتقادات ويميلون إلى الإسلام يوماً فيوماً. بل إنّا نرى أن في دار دولة الملكة المكرّمة قد هبت رياح نفحات الإسلام، ونرى الناس يدخلون فيه أفواجا في كل سنة، ويردّون على النصارى بالحرية التامة. وأن أمراءها الذين أرسلوا إلى ديار

الهند لنظمها ونسقتها لا يظلمون الناس كظلم الجبارين، ولا يستعجلون في فصل القضايا، وينظرون إلى رعاياهم بعين واحدة، ولا يظلمون الناس، ويعيش كل قوم تحتهم آمنين.

والذين من القسّيسين يدعون إلى الإنجيل وتعاليمه الباطلة المحرفة، فهم لا يظلموننا بأيدينا*، ولا يرفعون السيف علينا، ولا يقتلون لمذهبهم قومنا، ولا يسبون ذرارينا، ولا ينهبون أموالنا، بل يصل شرهم إلينا من طريق التآليفات المفسدة، والتقارير المضلة، وتوهين سيدنا ونبينا P، والرّد على الفرقان الكريم وتعليمه. والدولة البريطانية لا تعينهم في أمر من الأمور، ولا ترجحهم على المسلمين، بل نرى أن هذه الدولة العادلة قد أعطت كل قوم حرية تامة، وأجازتهم إلى حد القانون، فيفعل الناس برعاية قانونهم ما يشاءون، ويرد كل مذهب على مذهب آخر، وتجري المناظرات في هذه الديار كأموج البحار، والدولة لا تداخل فيهم وتتركهم مجادلين. ثم لم أزل أتحقق في هذا السر الغامض.. أعني في أن الله تعالى لم يَرْسل المسيح الموعود بالسيف والسنان، بل أمره للرفق والغربة والتواضع ولين القول والمجادلة بالحكمة والمدارة وحسن البيان، بل منعه أن يزيد على ذلك، فكنتُ أفكر في هذا الأمر حتى كشف الله عليّ هذا السرّ، فعلمت أن الله تبارك وتعالى لا يُرسل مصلحا.. رسولا كان أو مجددا.. إلا بإصلاحات اقتضتها كوائفُ مفاسد الزمان وأهل الأرضين. فقد يتفق أن الناس مع

* سهو، والصحيح: "بأيديهم". (الناشر)

شركهم وفساد عقيدتهم يكونون قوما جبارين معتدين فاسقين، يظلمون الضعفاء ويُعادون أهل الحق عداوةً منجّرةً إلى القتل والنهب والسي، ويسفكون دماءهم، وينهبون أموالهم، ويسبّون ذاريهم، ويعثون في الأرض مفسدين. ويعطيهم الله ابتلاءً من عنده قوةً في الجسم، وكثرةً في المال، وإمارةً في الأرض، فيكفّرون نعم الله، ولا يتوجّهون إلى وعظ واعظ، ولا نداءً مناد، ولا إلى أسرارِ حكمة تخرج من أفواه الحكماء، بل عندهم جوابٌ كلّها السيفُ أو الرمح. ويعيشون كالأنعام أو كالسكارى، ولهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، ولهم أعين لا يُبصرون بها، ويتكبرون بما أعطاهم الله من مُلكٍ ورياسة ومال وثروة، ويؤذون الذين يدخلون في دين الله وكادوا يقتلونهم، ويصدّون عن سبيل الله مستكبرين. ويتعامون بعد رؤية الآيات ومشاهدة البينات، وقد تمتّ عليهم حُجّة الله فلا يبالونها، بل يزيدون في الظلم والعصية وحمية الجاهلية والقساوة وإيذاء المبلّغين. فيغضب الله غضبا شديدا على تلك الأقوام، ويريد أن يفكّ نظامهم، ويجعل أعزّهم أذلةً، ويُنزل عليهم عذابا من الأرض أو من السماء، أو يجعلهم شيعةً ليزيد بعضهم بأسَ بعض، ويأمرُ رسوله ليؤدّبهم بالسيف والسنان، ويستخلص المسلمين منهم ويكسر هامة الظالمين. فيقتل الرسولُ المأمور قَتلا مهيبا، ويُثخن في الأرض إثمنا عجيبا، حتى يضعف المستكبرون ويتقوّى المستضعفون، ويُبدّلهم الله من بعد خوفهم أمنا،

في عبدونه مطمئنين، ويدخلون في دينه آمنين. وإن تطلب نظير هذا النوع من الفساد فتجد في زمان كلیم الله وخاتم النبیین.

وقد يتفق أن الناس يضيِّعون دينهم وديانتهم، ولكنهم لا يقاتلون أنبياء الله ومرسله للدين، ولا يفسدون في الأرض بالسيف والسنان، بل بتقارير المضلّة وزیغ البیان، ولا يريدون أن يُطلوا شعائر الإسلام بالرماح والسهم، بل بالمكائد وسحر الكلام، ولا يؤذون طالب الحق إذا أراد أن يقبل الحق، وكذلك يفعلون لوجه من الوجهين: أحدهما إذا كانت تلك الأقوام الذين أرسل إليهم رسول أو مُحدّث ضعفاء غير قادرين على إيذاء أحد، فلا يظلمون المرسلين لعدم قدرة الظلم وفقدان أسباب البطش والقتل والسفك، ويرى الله أنهم مع خبث أنفسهم وكثرة مكائدهم، لا يستطيعون أن يؤذوا أحداً ويظلموا مُصلحاً، ويرى أنهم مستضعفون مغلوبون. وقد يكون سبب هذا الضعف مشاجرات وقعت بينهم وسلبت طاقتهم، وقد يكون سببه استيلاء قوم آخرين، وقد يجتمعان فيزيدان عجزاً وضعفاً. وثانيهما: إذا كانت تلك الأقوام مهذبين مع كونهم ملوكاً وسلاطين، فلا يمنعون رُسُلَ الله من دعواتهم ولا يظلمون ولا يؤذون، بل تكون حكومتهم حكومة الأمن ولا يعثون في الأرض ظالمين سفاكين، صادّين عن سُبُل الله، ولا يسَلُّون السيوف لإشاعة الباطل كالمعتدين، بل يكيّدون ويمكرون، ويدعون الناس إلى دينهم بلطائف الحيل، ويفسدون النفوس ولا يؤذون الأجسام، بل يتركون الناس منعمين. وإن تطلب نظير هذا النوع من الأقوام فتجد في

زمان عيسى ٧، لأن عيسى أرسل إلى قوم قد مُزّقوا كل ممزّق من قبل مجيئه، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، واضمحلّت رياستهم وبطلت إماراتهم، وكانت الدولة الرومية لا تداخل في دين اليهود، فما رأى عيسى ٧ أن يُقاتلهم، لأن المرسلين يدعون بالرفق والحلم والرحمة، ولا يرفعون السيف إلا على الذين يرفعون عليهم، ويصلحون فساد العقل بالعقل، وفساد السيف بالسيف، ويداوون كل مرض كما يليق وينبغي: السيف بالسيف والكلام بالكلام، ولا يحبّون أن يكونوا من المعتدين.

وكذلك أرسلتُ مجدّدًا محدّدًا لآخر الزمان، ووجدتُ أعداء دين الإسلام لا يقاتلون المسلمين للدين، وما سلّوا سيوفًا وما قوّموا رماحا لإشاعة دينهم، بل يُشيعون دينهم بالمكائد والحيل العقلية، وتألّف الكتب المضلّة المغلّطة، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين. فما كان الله أن يسلّ عليهم السيف، وكيف يقتل الله قوما لا يبارزون بالسيوف، بل يطلبون الدلائل كالفيلسوف؟ ومع ذلك إنهم قوم غافلون، جاءوا من أقصى البلاد لا يعرفون شيئا من حقائق القرآن وأنواره ولطائفه ودقائقه، وقد نشأوا في الديار البعيدة من الإسلام، فلما لاقوا المسلمين ووردوا في ديارنا وجدوا المسلمين في أنواع الظلام من الآثام، فقست قلوبهم برؤية المبتدعين، وكانوا من كلام الله غافلين. وما آذونا وما قتلونا وما سعوا في الأرض سفاكين. فلا يرضى عقل سليم وفهم مستقيم، أن ندفع الحسنة بالسيئة، ونؤذي قوما أحسنوا

إلينا، ورفع السيف على أعناقهم قبل أن نتم الحجة على قلوبهم، وقبل أن نسكتهم بالبراهين العقلية والآيات السماوية، وقبل أن يظهر أنهم عصوا عمداً بعدما رأوا الآيات بعدما تبين الرشد من الغي. فلو تركت الرحم والرفق والمداراة ونقوم عليهم سفاكين جبارين، فلا يكون ذنب أكبر منه، وإذا كنّا أحبث الظالمين.

فهذا هو السبب الذي أرسلني الله تعالى على قدم المسيح. فإنه رأى زماني كزمانه، وقوما كقومه، ورأى النعل طابَقَ بالنعل، فأرسلني قبل عذاب من السماء لأنذر قوما ما أنذر آبائهم ولتستبين سبيل المجرمين. وأنت ترى أن أكثر المسلمين اتبعوا شهواتهم، وأضاعوا الصوم والصلاة، وقست قلوبهم، وفسدت طبائعهم، وما بقي فيهم إلا اسم الإسلام ورسمُ الدخول في المساجد، ولا يعلمون ما الإخلاص وما الذوق وما الشوق، وكثير منهم يزنون ويشربون الخمر ويكذبون، ويحبون المال حبا جما، ويعملون السيئات، ويؤثرون البدعات على هدي رسول الله ﷺ، فكيف الكافرون الغافلون الذين لا يعلمون شيئا ولا يعقلون، ولا يتكلمون إلا كغطيط النائم، وما يدرون ما سبل الإسلام وما البراهين! فظهر من ههنا أن العقيدة التي استحكمت في قلوب العوام أن المهدي والمسيح يظهران في آخر الزمان ويقتلان كل من لم يسلم، ليس بشيء، بل إنه لخطأ مبين.

أُثِّقِي العقل السليم أن الله، الذي هو الرحيم والكريم، يأخذ الغافلين في غفلتهم، ويُهْلِكُهم بالسيف أو عذاب السماء، ولَمَّا

يفهموا حقيقة الإسلام وبراهينه ولم يعلموا ما الإيمان ولا الدين؟ ثم إذا كان مدار الرحم والشفقة إزالة آفة قد أحاطت وكثرت، فكيف يجوز علاج مفاسد الأقلام بالسيوف والسهام؟ بل هذا إقرار صريح بأننا لا نقدر على الجواب، وليس عندنا جواب الأدلة المضلة إلا ضرب السيف البتار وقتل الكفار. وكيف يطمئن قلب المعترض الشاك الغافل بضرب من السيف أو السوط أو جرح من الرمح والسهم، بل هذه الأفعال كلها تزيد ريب المرتابين.

ثم اعلم أن غضب الله ليس كغضب الإنسان، وهو لا يتوجّه إلا إلى قوم قد تمتّ الحجة عليهم، وأزيلت شكوكهم، ودُفعت شبهاتهم، ورأوا الآيات ثم جحدوا مع استيقان القلب، وقاموا على ضلالتهم مبصرين. والعجب من إخواننا أنهم يعلمون أن عذاب الله لا ينزل على قوم إلا بعد إتمام الحجة، ثم يتكلمون بمثل هذه الكلمات. والعجب الآخر أنهم ينتظرون المهدي مع أنهم يقرأون في صحيح ابن ماجه والمستدرک حديث: "لا مهدي إلا عيسى"، ويعلمون أن الصحيحين قد تركا ذكره لضعف أحاديث شُعت في أمره، ويعلمون أن أحاديث ظهور المهدي كلها ضعيفة مجروحة، بل بعضها موضوعة، ما ثبت منها شيء، ثم يُصرون على مجيئه كأنهم ليسوا بعالمين.

وأما الاختلافات التي وقعت في خبر نزول المسيح، فالأصل في هذا الباب أن الأخبار المستقبلية المتعلقة بالدنيا لا تخلو عن الابتلاء،

وكذلك يريد الله منها فتنة قوم واصطفاء قوم، فيجعل في مثل هذه الأخبار استعاراتٍ ومجازات، ويُدقق مأخذها ويجعلها غامضة دقيقة فتنةً للذين يُكذِّبون المرسلين، ويظنون ظن السوء كالمستعجلين. ألا ترى إلى اليهود كيف شقُّوا في ردِّ الرسول الصادق الذي جاء كطلوع الشمس مع وجود خبر مجيئه في كتبهم. ولو شاء الله لكتب في التوراة كل ما يهديهم إلى صراط مستقيم، ولأخبرهم عن اسم خاتم الأنبياء ρ وعن اسم والده واسم بلدته وزمان ظهوره واسم صحابته واسم دار هجرته، ولكتب صريحاً أنه يأتي من بني إسماعيل، ولكن ما فعل الله كذلك بل كتب في التوراة أنه يكون منكم من إخوانكم، فمالت آراء اليهود إلى أن نبي آخر الزمان يكون من بني إسرائيل، ووقعوا من هذا اللفظ المجمل في ابتلاء عظيم، فهلك الذين ما نظروا حق النظر، وظنوا أن يخرج النبي من قومهم ومن بلادهم، وكذَّبوا خاتم النبيين.

واعلم أن هذه السُّنة ليست من قبيل الظلم بل من جميل إحسانات الله على عباده الصالحين، لأنهم يُتِلون عند الأنبياء النظرية الدقيقة بابتلاء دقيق من ربهم، ثم يعرفون بنور عقلهم ولطافة فراستهم الصراطَ المستقيم، فيتحقق لهم الأجر عند ربهم، ويرفع الله درجاتهم، ويميّزهم من غيرهم ويُلحقهم بالواصلين. ولو كان الخبر مشتملاً على انكشاف تام وعلامات بديهة واضحة لجاوز الأمر من حدِّ الإيمان، ولأقرَّ به المفسد المعاند كما أقرَّ به المؤمن المطيع، وما

بقي على وجه الأرض أحد من المنكرين. ألا ترى أن أهل الملل والنحل كلهم مع اختلافاتهم الكثيرة لا يختلفون في أن الليل مظلم والنهار منير، وأن الواحد نصف الاثنين، وأن لكل إنسان لسان* وأذنين، وأنف* وعينين، ولكن الله ما جعل الإيمانيات من البديهيّات، ولو جعل لضاع الثواب وبطل العمل، فتفكّر فإن الله يهدي المتفكرين. ومن كان عالما صالحا مجتهدا في طلب الحق ينور الله قلبه، ويؤيه طريقه، ويعطيه فراسة من عنده، وإن الله لا يضيع أجر المحسنين. والذين كفروني ولعنوني ما تدبروا في كتاب الله حق التدبر، وظنوا ظن السوء، وما تفكروا في أنفسهم أن العاقل لا يختار السوء والضلالة لنفسه، ولا يفترى على الله، وكيف يختار طريقا ويعلم أن فيه هلاكه؟ وأي شيء يحمله على ذلك الوبال مع علمه أنه طريق الخسران في الدنيا والآخرة؟ ولا يخفى على أعدائي أي أمرؤ قد نفذ عمري في تأييد الدين حتى جاءني الشيب من الشباب، فكيف يظن عاقل أن اختار الكفر والإلحاد في كبر سني ووهن جسمي وقربي من القبر؟ سبحان ربي! إن هذا إلا ظلم مبين. وها أنا بريء من بهتانهم، وما أجد عند النظر في عقائدي من سريان الوهم بهذا، والله يعلم ما في قلبي وقلوبهم، وتوكلت عليه. وما حمل عقلاءهم على مخالفتي إلا حب الدنيا وناموسها، والحسد الذي لا ينفك من أكثر العلماء إلا من حفظه الله برحمته. وقد جرت عادة أكثر العلماء هكذا أنهم إذا رأوا رجلا يقول قولاً فوق

* سهو، والصحيح: "لسانا" و "أنفا". (الناشر)

أفهامهم فلا يتفكرون فيه، ولا يسألون القائل ليبين لهم حقيقته، بل يشتعلون بمجرد السماع، ويكفرونه في أول مجلس، ويلعنونه ويكثرون القول فيه، وكادوا أن يقتلوه مشتعلين. وقال الله Y: [يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ]●.

والأمر الحق الذي يعلمه الله أن المسلمين كانوا في هذا الزمان كأفراخ العصافير ما بلغوا أشدهم الروحانية، وسقطوا من أكنانهم وأوكارهم وأعشاشهم، فأراد الله أن يجمعهم تحت جناحي، ويذيقهم حلاوة الإيمان، ولذة أنس الرحمن، ويجعلهم من العارفين. فمن كان عاقلاً طالباً للنجاة فليبادر إليّ، ولا يُبادر إليّ إلا الذي يخاف الله وينبذ الدنيا من أيديه وعرضها وناموسها، ويبادر إلى الآخرة، ويرتضي لنفسه كل لعن وطعن، وأقوال الأعداء وهجر الأحياء، وسب السائين.

التنبية

اعلم يا أخي.. أراك الله من عنده طرق الصواب.. أن الذين يعتقدون نزول عيسى U وصعوده بجسمه العنصري إلى السماء قد يستدلّون على حياته بقوله تعالى: [وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ] ، والله يعلم أنهم خاطئون في هذا الاستدلال وإن هم إلا يظنون، ويُضِلُّون الناس بغير علم، ثم ينهضون لإيذاء أهل الحق بالسنة حداد، ولا يخافون الله ويسمّون المؤمنين كافرين. إنما مثلهم كمثل قوم اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين.

وأنت تعلم أننا لو فرضنا أن اليهود كلهم يؤمنون بعيسى ﷺ قبل موته كما فهموا من هذه الآية للزم المحال الصريح من هذا المعنى، وللزم أن يبقى بني* إسرائيل كلهم إلى نزول عيسى ﷺ أحياء سالمين، لأن أمر إيمان اليهود كلهم لا يتم بحياة المسيح فقط، بل يجب لإتمامه حياة كقار بني إسرائيل كلهم من أول الزمان إلى يوم القيامة، ومع ذلك يجب حياة المسيح إلى يوم الدين. ومعلوم أن كثيرا من اليهود قد ماتوا ودفنوا ولم يؤمنوا بعيسى ﷺ، فكيف يستقيم أن يقال أن اليهود كلهم يؤمنون بالمسيح قبل موته؟ فلا شك أن هذا المعنى بديهي البطلان وظاهر الفساد ولا سبيل إلى صحته، فتفكر إن كنت من المتفكرين.

ثم إذا نظرنا نظرا آخر وتأملنا في قولهم وعقيدتهم واتفاق ندوتهم على أن الموجودين في زمان نزول المسيح يدخلون في دين الإسلام كلهم ولا تبقى نفس واحدة منهم منكرة للإسلام، وتهلك الملل كلها إلا الإسلام، فما وجدنا هذه العقيدة موافقة لتعليم القرآن، بل وجدناها مخالفة لقول رب العالمين؛ فإن القرآن يعلم بتعليم واضح، ويشهد بصوت عال على أن اليهود والنصارى يبقون إلى يوم القيامة كما قال Y: [فَأَعَرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]•. ومعلوم أن وجود العداوة والبغضاء فرغ لوجود المعاندين والمباغضين، ولا يتحقق إلا بعد وجودهم. ولقد وصلنا لهم القول وقلنا غير مرة

• سهو، والصحيح: "بنو". (الناشر)

لعلهم يتذكرون أو يكونون من الخائفين. فكيف نؤمن بأن أهل الملل كلها تهلك في وقت من الأوقات؟ أنكر بأيات كتاب مبين وقد قال الله تعالى: [وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ♦]، وقال: [وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ *]. ومعلوم أن كون اليهود مغلوبين إلى يوم القيامة يقتضي وجودهم وبقاءهم وكفرهم إلى يوم الدين. ومعلوم أن كل ما يُعارض أخبار القرآن ويُخالفه فهو كذب صريح وليس من أحاديث أصدق الصادقين. بل المراد من هلاك الملل كلها هلاكهم بالبينّة، ولا شك أنه من هلك من البينة فقد هلك، ومن أتم الحجة على أحد فقد أهلكه، فتفكر كالمُتوسمين.

واعلم أن حديث هلاك الملل صحيح، ولكن أخطأ العلماء في فهمه، وما فهموا من هلاك أهل الأديان فهو ليس بصحيح، بل المعنى الصحيح هو الذي يشير إليه القرآن في آية: [هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ *]، فقد أشار في هذه الآية إلى غلبة دين الإسلام على كل مذهب ودين. وأنت تعلم أن ديناً إذا صار مغلوباً مقهوراً فهو نوع من هلاك أهله بسلطان مبين. فثبت من هذا التحقيق أن تأويل آية [قَبْلَ مَوْتِهِ] بنحو ذكره العلماء تأويلٌ فاسد، وقد بلغك كلام رب العالمين.

وأما ما رُوِيَ في البخاري عن أبي هريرة ؓ في هذا الباب، فلا تحسبه شيئاً يُتَوَجَّه إليه، وعندنا كتاب الله فلا تطلب الهدى من غيره،

فترجع بالخبية ولن تكون من المهتدين. قال صاحب التفسير **المظهري** إن أبا هريرة صحابي جليل القدر، ولكنه أخطأ في هذا التأويل، ولا يوجد في حديث ما يؤيد زعمه، ولا نرى مستفاداً من الآية ما فهمه، فلا شك أنه خالف الحق المبين.

وما ثبت أن مأخذ قوله من مشكاة النبوة والسنة المطهرة، بل هو رأي سطحي، وكان τ كثير الخطأ في بعض اجتهاداته كما ثبت خطؤه في حديث ذكره البخاري في صحيحه، قال حدثني **عبد الله بن محمد** قال **حدثنا عبد الرزاق** قال أخبرنا **معمر** عن **الزهري** عن **سعيد بن مسيب** عن **أبي هريرة** قال إن النبي ρ قال: ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهلّ صارخاً من مس الشيطان إياه إلا **مريم** وابنها، يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم: [وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم]. هذا ما زعم أبو هريرة، ولكن الذي اغترف شيئاً من بحر كلام الله فيعلم بالبداهة أن هذا الزعم فاسد، ويعلم أن **أبي* هريرة** استعجل في هذا الرأي، وما أرصد نفسه لشهادة بينات القرآن. ألم يعلم أن الله تعالى جعل نبينا أول المعصومين؟ وقد طعن **الرمحشيري** في معنى هذا الحديث وتوقف في صحته، وكيف يجوز أن نخص ابن **مريم** وأُمَّه في العصمة من مسّ الشيطان وقد قال الله تعالى: [إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ]،^٥ وقال: [وَسَلَامٌ عَلَيْهِ

* سهو، والصحيح: "أباً". (الناشر)

• الحجر: 43 ♦ مريم: 16 • الحجر: 41

يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا؟] ♦ وما معنى السلام إلا الحفظ والعصمة؟ وقال: [إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُحْلَصِينَ •]. فلا يصح هذا الحديث إلا أن نريد من ابن مريم وأُمّه معنى عامًا، ونقول إن كل تقِيّ ونقِيّ كان في صفتيهما فهو ابن مريم وأُمّه، وإليه أشار الزمخشري رحمه الله. ولا يُستبعد هذا التأويل، فإن الأنبياء قد يتكلمون في حلل المجازات والاستعارات، ومثل ذلك كثير في كلام سيدنا ومولانا خاتم النبيين، ومن هذا الباب قوله ρ إن عيسى ابن مريم لينزل فيكم، يعني يُبعث رجل منكم على صفته فينزل منزلة عيسى. فما فهم أكثر الناس معنى هذين الحديثين، واعتقدوا أن عيسى الذي كان نبيًّا من بني إسرائيل ينزل من السماء، وإن هذا إلا خطأ مبين.

ثم القرينة الثانية على خطأ أبي هريرة في آية: [قَبْلَ مَوْتِهِ] ما جاء في قراءة أَبِي بن كعب.. أعني: موتهم، فإنه يقرأ هكذا: "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موتهم"، فثبت من هذه القراءة أن ضمير لفظ [موته] لا يرجع إلى عيسى ρ، بل يرجع إلى أهل الكتاب. فإلى أي ثبوتٍ حاجةٌ بعد قراءة أَبِي بن كعب لقوم طالبيين؟

ثم مع ذلك قد اختلف أهل التفسير في مرجع ضمير [به]، فقال بعضهم إن هذا الضمير الذي يوجد في آية [لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ] راجع إلى نبينا ρ، وهذا أرجح الأقوال. وقال بعضهم إنه راجع إلى الفرقان، وقال بعضهم إنه راجع إلى الله تعالى، وقيل إنه راجع إلى عيسى، وهذا قول ضعيف ما التفت إليه أحد من المحققين. فيا حسرة على أعدائنا

المخالفين! إنهم يتركون القرآن وبيّناته، بل قلوبهم في غمرة من هذا ويقولون بإخوانهم • إنّا ننبع أخبار رسول الله P، وليسوا بمتّبعين، بل يتركون أقوالاً ثابتة من رسول الله P، ويبدّلون الخبيث بالطيب، ويكتمون الحق وكانوا عارفين.

إنما مثلهم كمثل سبيع اعتاد أكل الميتة، فلا يتوجه إلى الأغذية اللطيفة النظيفة من الثمرات وسواها، ويسعى في البراري لها ويحتفر القبور ويطلب كل جيفة من حمار أو كلب أو خنزير، فإن وجدها فيكون بها أصفى فرحاً، وأوفى مرحاً، ولا يفارقها بطرد الطاردين. ألا يعلمون أن لفظ التوفيّ الذي يوجد في القرآن قد استعمله الله للموتى الذين خلوا من قبله أو ماتوا من بعده؟ أو لم يكف شهادة رب العالمين؟ أو لم يكف لهم ما اعتاده العرب إلى هذا الوقت؟ وإذا قيل لجاهل أميّ من العرب أن الفلاني تُوفي فيعرف أنه مات. فانظر، أما ترى هذه المحاورة جارية فيهم؟ ثم انظر أنهم كيف فرّوا معرضين.

وقال بعضهم أن آية: [فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي] حقّ، ولا شك أنها يدلّ * على وفاة عيسى U بدلالة قطعية، وإنه مات وإنّا نؤمن به، وكتب التفسير مملوءة من هذا البيان، ولكنه U ما بقي ميتاً بل بُعثَ حيّاً بعد ثلاثة أيام أو سبع ساعات، ثم رُفِعَ إلى السماء بجسده العنصري، ثم ينزل في آخر الزمان على الأرض ويمكث أربعين سنة، ثم يموت مرة

• سهو، والصحيح: "لإخوانهم". (الناشر)

* سهو، والصحيح: "تدلّ". (الناشر)

ثانية ويُدفن في أرض المدينة في قبر رسول الله ﷺ. فحاصل كلامهم أن للخلق كلهم موت واحد^٥ وللمسيح موتين. ولكننا إذا نظرنا في كتاب الله سبحانه فوجدنا هذا القول مخالفاً لنصوصه البينة. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى قال في كتابه المحكم حكايةً عن مؤمن مغبطاً نفسه بما أعطاه الله من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة بلا موت: [أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^٦].

فانظر أيها العزيز.. كيف أشار الله تعالى إلى امتناع الموت الثاني بعد الموت الأولى، وبشّرنا بالخلود في العالم الثاني بعد الموت، فلا تكن من المنكرين. وأنت تعلم أن الهمزة في جملة: [أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ] للاستفهام التقريبي، وفيها معنى التعجب، والفاء ههنا للعطف على محذوف، أي: أَلَنَحْنُ مَخْلُدُونَ مُنْعَمُونَ مع قلة أعمالنا وما نحن بميتين؟ واعلم أن هذا سؤال من أهل الجنة حين يسمعون قول الله تعالى: [كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ^٧]، كما رُوِيَ عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: [هَنِيئًا]، فعند ذلك يقولون [أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى]. واعلم أن قولهم هذا يكون على طريقة الابتهاج والسرور.

٥ سهو، والصحيح: "موتا واحداً". (الناشر)

٦ الصافات: 59-61 ♦ المرسلات: 44

ثم اعلم أن الاستثناء ههنا مُفَرَّغٌ، وقيل منقطع بمعنى لكن. وفي كل حالٍ يثبت من هذه الآية أن أهل الجنة يُبَشَّرُونَ بالدوام والخلد ويُبَشَّرُونَ بأن لهم لا موت إلا موتهم الأولى. وهذا دليل صريح على أن الله ما جعل لأهل الجنة موتين، بل بَشَّرَهُم بالحياة الأبدية بعد الموت الذي قد قُدِّرَ لكل رجل.

وقال في آخر هذه الآية: [إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ]، فأشار إلى أن دوام الحياة وعدم الموت مع نعيم وسرور وحبور من التفضلات العظيمة. فإذا تقرر هذا فكيف يُتَصَوَّرُ ويُظَنُّ أن نبيا كمثل عيسى.. مع كونه من المقربين.. محروم من هذا التفضل العظيم؟ وكيف يُتَصَوَّرُ أن الله يُخْلِفُ وعده ويردّه إلى الدنيا وآلامها وآفاتِها ومصائبها وشدائدها ومراراتها، ثم يُمَيِّتَهُ مرة ثانية، سبحانه هذا بهتان عظيم. وما كان لأحد أن يعود لمثله بعدما اطلع على خطئه إن كان من المؤمنين. وإن الأنبياء لا يُنْقَلُونَ من هذه الدنيا إلى دار الآخرة إلا بعد تكميل رسالات قد أُرْسِلُوا لتبليغها، ولكل برهة من الزمان مناسبة بوجود نبي، فيُرْسَلُ كل نبي برعاية المناسبات، وإلى هذا إشارة في قوله تعالى: [وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ●]. فلو لم يكن لرسولنا ρ وكتاب الله القرآن مناسبة لجميع الأزمنة الآتية وأهلها علاجا ومداوة.. لما أُرْسِلَ ذلك النبي العظيم الكريم لإصلاحهم ومداوتهم للدوام إلى يوم القيامة. فلا حاجة لنا إلى نبي بعد محمد ρ، وقد أحاطت بركاته كلّ

أزمنة، وفيوضه واردةً على قلوب الأولياء والأقطاب والمحدثين، بل على الخلق كلهم، وإن لم يعلموا أنها فائضة منه، فله المنة العظمى على الناس أجمعين.

والذين كثر عليهم فيضان العلوم والمعارف من هذا النبي الرسول الأُمِّي، فمنهم قوم توجَّهوا إلى كتاب الله والتدبر فيه واستنباط دقائقه، وقوم آخرون كانت همَّتُهم أخذ العلوم من الله تبارك وتعالى، فهم الحكماء المحدثون أهل الحكمة الربانية. وكل يأخذون من تلك العين المباركة، ويُرَبِّون من فيوضه إلى يوم الدين. وإلى هذا أشار الله Y في قوله: [وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ^٥]، يعني يُرَكِّي النبي الكريم آخرين من أمته بتوجهاته الباطنية كما كان يُرَكِّي صحابته، فتفكر في هذه الآية واستعد بالله من شر كل مستعجل ولو كان عندك له كرامة وعزاة أو كان من عشيرتك الأقربين. ولن تجد في الأرض أحدا من الصالحين أن يتبدى مُرشدًا وما تفوق من كأس النبي p. فدع عنك الالتفات إلى غيره نبيًا كان أو من المرسلين. وعليك أن تقبل ما قيل، وتحمي القال والقليل، واعلم أنه خاتم الأنبياء، ولا يطلع بعد شمسُه إلا نجم التابعين الذين يستفيضون من نوره. هو منبع الأنوار، وكاد يحل نوره بساحة قوم منكبين.

ثم نرجع إلى كلماتنا الأولى ونقول إن الآية التي ذكرناها آنفا.. أعني قوله تعالى: [إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى]، قد استدل بها الخليفة الأول أبو بكر

الصدّيق τ إذا تُوفّي رسول الله ρ واختلف الناس في وفاته، وقال عمر ما مات رسول الله ρ بموت حقيقي، بل يأتي مرة ثانية في الدنيا ويقطع أنوف المنافقين وأيديهم وآذانهم، فأنكره الصدّيق ومنعه من ذلك، ثم بادرَ إلى بيت عائشة رضي الله عنها وأتى رسولَ الله ρ، وكان ميتًا على الفراش، فنزعَ عن وجهه الرداء وقبله وبكى، وقال: إنك طيب حيا وميتًا، لن يجمع الله عليك الموتين إلا موتتك الأولى. فرد بذلك القول قولَ عمر، وكان مأخذُ قوله قوله تعالى: [إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى]. وكانت لأبي بكر τ مناسبة عجيبة بدقائق القرآن ورموزه وأسراره ومعارفه، وكان له ملكة كاملة في استنباط المسائل من القرآن الكريم، فلذلك هُديَ قلبه إلى الحق وفهم أن الرجوع إلى الدنيا موتة ثانية، وهي لا يجوز* على أهل الجنة بدليل قوله تعالى حكايةً عن أهلها: [إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ]. فإن رجوع أهل الجنة إلى الدنيا ثم موتهم وورود آلام السكرات والأمراض عليهم نوعٌ من التعذيب، وقد نجّى الله إياهم من كل عذاب، وآواهم عنده بإعطاء كل حبور وسرور من يوم انتقلهم إلى الدار الآخرة، فكيف يمكن أن يرجعوا إلى دار التعذيبات مرة ثانية؟ فهذا معنى قول أهل الجنة: [وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ]*.

• سهو، والصحيح: "تجوز". (الناشر)

◻ آل عمران: 145

• الشعراء: 139

فحاصل الكلام.. أن أبا بكر الصديق ردَّ بهذه الآية قولَ عمر ٢. ثم ما اكتفى على ذلك بل قصد المسجد وانطلق معه رهط من الصحابة، فجاء وصعد المنبر، وجمع حوله كلَّ من كان موجودا من أصحاب رسول الله ٢، ثم أثنى على الله وصلى على رسوله ٢ وقال: أيها الناس.. اعلموا أن رسول الله ٢ قد تُوفيَّ، فمن كان يعبد محمدا ٢ فليعلم أنه قد مات، ومن كان يعبد الله فإنه حيّ لا يموت، ثم قرأ: [وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ] ٣. فاستدل بهذه الآية على موت رسول الله ٢ بناءً على أن الأنبياء كلهم قد ماتوا. فلما سمع الصحابة قول الصديق ٢ ما ردَّ أحد على قوله، وما قال أحد له: أيها الرجل.. إنك كذبت أو أخطأت في استدلالك أو ذكرت استدلالا ناقصا وما كنت من المصيبين.

فلو كانوا معتقدين بأن عيسى حيّ إلى ذلك الزمان لردّوا على أبي بكر، وقالوا كيف تفهم من هذه الآية موت الأنبياء كلهم؟ ألا تعلم أن عيسى قد رُفِعَ إلى السماء حيا ويأتي في آخر الزمان؟ فإذا كان عيسى راجعا إلى الدنيا مرة ثانية وأنت تؤمن به، فأبي حرج ومضايقة في أن يأتيانا رسولنا ٢ أيضا كما زعمه عمر.. الذي يجري الحق على لسانه، وله شأن عظيم في الرأي الصائب، ولرأيه موافقة بأحكام القرآن في مواضع، ومع ذلك هو مُلْهَمٌ ومن المُحَدِّثين؟ وإن وفاة نبينا ٢ للمسلمين مصيبة ما أصيبوا بمثله.. فليس من العجب أن يرجع نبينا ٢

إلى الدنيا، بل رجوعه إلى الدنيا أحق وأولى وأنفع من رجوع المسيح، وحاجة المسلمين إلى وجوده المبارك أشدّ وأزید من حاجتهم إلى وجود المسيح. لكنهم ما ردّوا على الصديق ٢ بهذه الكلمات، بل سكتوا كلهم ونبذوا من أيديهم سهام الإنكار، وقبلوا قوله، وبكوا وقالوا إنّنا لله وإنّا إليه راجعون. ونظروا إلى موت الأنبياء كلهم واطمأنوا بها، فإنهم ماتوا كلهم وما كان أحد منهم من الخالدين.

وإذا ثبت أن رجوع أهل الجنة والذين قعدوا عند ملك مقتدر بعبور وسورٍ ممنوعٍ، وخروجهم من نعيمهم ولذاتهم يُخالف وعد الله، فكيف يجوزُ العاقل المؤمن أن المسيح ٣ محروم من هذا الفوز العظيم، ولكل بشر موت وله موتان؟ أليس هذا مما يخالف نصوص القرآن؟ فتدبرْ وسلِّ الله يَهَبْ لك فهم المتدبرين. وقد قال الله تعالى في مقامات أخرى: [وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرِجِينَ]•، وقال: [فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ]•، وقال: [وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ]•. فانظر أيها العزيز! كيف نترك هذا الحق الصريح بناء على خيالات واهية وتحكّيمات فاسدة؟ فتفكّر واتق الله، إن الله يحب المتقين.

وربما يختلج في قلبك أن رجوع الموتى إلى الدنيا بعد دخولهم في الجنة ممنوع، ولكن أي حرج في رجوعٍ كان قبل دخول الجنة؟ فاعلم أن آيات القرآن تدل على أن الميت لا يرجع إلى الدنيا أصلاً، سواء كان في الجنة أو في جهنم أو خارجاً منهما، وقد قرأنا عليك آنفاً آية:

[فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ] و[أَتَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ]. ولا شك أن هذه الآيات تدل بدلالة صريحة على أن الذاهبين من هذه الدنيا لا يرجعون إليها أبدا بالرجوع الحقيقي. وأعني من الرجوع الحقيقي رجوع الموتى إلى الدنيا بجميع شهواتها ولوازمها، ومع كسب الأعمال من خير وشر، ومع استحقاق الأجر على ما كسبوا، ومع ذلك أعني من الرجوع الحقيقي لحوق الموتى بالذين فارقوهم من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة الذين هم موجودون في الدنيا، وكذلك رجوعهم إلى أموالهم التي كانوا اقتترفوها، ومسكنهم التي كانوا بنوها، وزروعهم التي كانوا زرعوها، وخزائنهم التي كانوا جمعوها. ثم من شرائط الرجوع الحقيقي أن يعيشوا في الدنيا كما كانوا يعيشون من قبل، ويتزوجوا إن كانوا إلى النكاح محتاجين، وأن يؤمنوا بالله ورسوله فيقبل إيمانهم ولا يُنظر إلى كفرهم الذي ماتوا عليه، بل ينفعهم إيمانهم بعد رجوعهم إلى الدنيا وكوّنهم من المؤمنين. ولكننا لا نجد في القرآن شيئا من هذه المواعيد، ولا سورة ذُكرت فيها هذه المسائل، بل نجد ما يخالفه كما قال الله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا] ٥. فانظر كيف وعد الله للكافرين لعنة أبدية، فلو رجعوا إلى الدنيا وآمنوا بكتبه ورسله لوجب أن لا يُقبل عنهم إيمانهم، ولا يُنزع عنهم اللعنة الموعودة

إلى الأبد كما هو منطوق الآية. وأنت تعلم أن هذا الأمر يُخالف هدايات القرآن كما لا يخفى على المتفقهين.

وأما إحياء الموتى من دون هذه اللوازم التي ذكرناها، أو إماتة الأحياء لساعة واحدة ثم إحيائهم من غير توقف كما نجد بيانه في قصص القرآن الكريم فهو أمر آخر، وسرٌّ من أسرار الله تعالى، ولا توجد فيه آثار الحياة الحقيقي ولا علامات الموت الحقيقي، بل هو من آيات الله تعالى وإعجازات بعض أنبيائه، نؤمن به وإن لم نعلم حقيقته، ولكننا لا نسّميه إحياءً حقيقياً ولا إماتة حقيقية. فإن رجلاً مثلاً أُحيي بعد ألف سنة بإعجاز نبي ثم أُميت بلا توقف، وما رجع إلى بيته، وما عاد إلى أهله وإلى شهوات الدنيا ولذاتها، وما كان له خيرةٌ من أن تُردَّ إليه زوجه وأمواله وكل ما ملكت يمينه من وراثاء آخرين، بل ما مَسَّ شيئاً منها ومات بلا مكث ولحق بالميتين، فلا نسمي مثل هذا الإحياء إحياءً حقيقياً، بل نسّميه آية من آيات الله تعالى ونفوّض حقيقته إلى رب العالمين.

ولا شك أن إحياء الموتى وإرسالهم إلى الدنيا يقلّب كتاب الله بل يُثبت أنه ناقص، ويوجب فتناً كثيرة في دين الناس ودنياهم، وأكبرها فتن الدين. مثلاً كانت امرأة نكحت زوجاً فتوّي، فنكحت زوجاً آخر فتوّي، فنكحت ثالثاً فتوّي، فأحياهم الله تعالى في وقت واحد، فاختصموا فيها بعولتها، وادّعى كل واحد منهم أنها زوجته، فمن أحقّ منهم في كتاب الله الذي أكمل أحكامه وحدوده؟ وكيف يحكم فيهم

القاضي؟ وكيف يحكم في أموالهم وأملاكهم وبيوتهم من كتاب الله؟ أتؤخذ من الورثاء وترد إلى الموتى الذين صاروا من الأحياء؟ يَبْنُوا تَوَجَّرُوا، إن كنتم على قول الله ورسوله مطلعين.

وكذلك الإماتة التي كانت لساعة أو ساعتين ثم أُحْيِيَ الميت، فليست إماتة حقيقية بل آية من آيات الله تعالى، ولا يعلم حقيقته إلا هو. وأنت تعلم أن الله ما وعد بحشر الموتى في القرآن إلا وعدًا واحدًا وهو الذي يظهر عند يوم القيامة، وأخبر عن عدم رجوع الموتى قبل يوم القيامة، فنحن نؤمن بما أخبر وننزه القرآن عن الاختلافات والتناقضات، ونؤمن بآية: [فَيُؤْمِسُكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ]، ونؤمن بآية: [وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ].

وإنّا لا نقول أن أهل الجنة بعد انتقالهم إلى دار الآخرة يُجَبَّسُونَ في مكان بعيد من الجنة إلى يوم القيامة، ولا يدخل الجنة قبل القيامة إلا الشهداء، كلاً.. بل الأنبياء عندنا أول الداخلين. أيعظن المؤمن الذي يُحِبُّ الله ورسوله أن النبيين والصدّيقين يُعَدُّونَ عن الجنة إلى يوم البعث ولا يجدون منها رائحة، وأما الشهداء فيدخلونها من غير مكث خالدين؟

فاعلم يا أخي أن هذه العقيدة رديئة فاسدة، ومملوءة من سوء الأدب. أما قرأت ما قال رسول الله ﷺ إن الجنة تحت قبري؟ وقال إن قبر المؤمن روضة من روضات الجنة، وقال Y في كتابه المحكم: [يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي

عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي[□]، وقال في مقام آخر: [قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ[●]]. وقصَّ علينا قصة رجل مات ودخل الجنة، وكان له صاحب في الدنيا فاسق، فمات صاحبه أيضا ودخل النار، فذكر الذي دخل الجنة قصة صاحبه عند أصحاب الجنة وقال: [هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ * وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ[●]].

وأنت تعلم أن هذه القصة تدل بدلالة صريحة على أن المؤمنين يدخلون الجنة بعد موتهم من غير مكث، ثم لا يُخرجون منها ويتنعمون فيها خالدين. وكذلك يثبت من القرآن أن أهل جهنم يدخلونها بعد الموت من غير مكث، كما لا يخفى على الذين يتدبرون في آية: [فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ]، وكما قال الله تعالى: [مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا[●]]. وإن كنت تطلب شاهدا من الحديث فانظر إلى أحاديث المعراج، فإن النبي ﷺ رأى جهنم في ليلة المعراج، وكذلك رأى الجنة، فرأى في الجنة أهلها، وفي جهنم أهلها، فريقا في النعيم وفريقا من المعذبين.

وإن قلت إن كتاب الله والأخبار الصحيحة شاهدة على أن البعث حق، والميزان حق، وسؤال الله عن عباده حق واقع لا شبهة فيه، ثم بعد كل هذه الوقعات.. يعني بعد حشر الأجساد والحساب ووزن

□ الفجر: 28-31 • يس: 27 • الصافات: 55-58

• نوح: 26

الأعمال يدخلون أهل الجنة مقام جنتهم، ويدخلون أهل النار مقام نارهم، وإن كان هذا هو الحق فكيف يمكن دخول أهل الجنة وأهل جهنم في مقامهم إلا بعد حشر الأجساد ووزن الأعمال وغيرها كما تقرر في عقائد المسلمين؟

قلنا لو حملنا ألفاظ تلك الآيات على ظواهرها لاختل نظام كتاب الله وما بقي توافُق آيات الله، بل وجب في هذه الصورة أن نُقرّ بأن القرآن مملوء من الاختلافات والتناقضات وبعض آياته يُعارض بعضها. ألا ترى الآيات التي تدل على دخول أهل الجنة وأهل جهنم في رياض الخلد ونيران السعير من غير مكث وتوقف؟ فاعلم أن في هذه الآيات ليست مُحالفة، وليس المراد من الحساب ووزن الأعمال وحشر الأجساد أن يخرج أهل الجنة من جنتهم ومقام عزتهم، وأنهم يؤخذون ويُحاسبون لعلمهم كانوا من أهل النار، ويُخرج أهل النار من نارهم، ويُنظر في أمرهم لعلمهم كانوا من أهل الجنة، لأن الله تعالى يعلم الغيب ويعلم إيمان الناس وكفرهم قبل أن يُخلَقوا، ولا يعجز علمه عن درك المغيبات، بل الحساب والميزان لإظهار مكارم المكرمين وإراءة مفسدات المفسدين. ولا شك أن أهل الصلاح وأهل المعصية يرون ثمرات أعمالهم بعد الموت بغير مكثٍ طرفة عين، وجنتهم ونارهم معهم حيثما كانوا، ولا تفارقانها [♦] في آن. ألا تنظر إلى ما قال رسول الله ﷺ إن القبر روضة من روضات الجنة أو حفرة من حفر النار؟ والميت قد

♦ سهو، والصحيح: "تفارقانهم". (الناشر)

يُدفن وقد يُحرق وقد يأكله الذئب وقد يغرق في البحر، وفي كل صورة لا يفارقه روضةُ جنته أو حفرةُ ناره. وقد ثبت أن كل مؤمن وكافر يُعطى من جسم بعد موته، ويوضع جنته أو جهنمه في قبره، ثم إذا كان يوم القيامة فيبعث كل ميت يبعث جديد، ويحضرون لوزن أعمالهم، وتمشي معهم جنتهم ونارهم ونورهم وغبارهم، ثم بعد حساب الأعمال والسؤال بطريق إظهار العزة أو إراءة الذلة والوبال، وبعد الوزن وغيرها من الأمور التي نؤمن بها، تقتضي رحمة الله تعالى وغضبه تجليات جديدة، فيُمثل الله الجنةَ في أعين أهلها بصورة ما رأتها أعينهم قط كما وعد في كتابه للمسلمين، فيكون لهم ذلك اليوم يوم المسرة العظمى والسعادة الكبرى، فيدخلونها فرحين آمنين. وكذلك تُمثَّل جهنم في أعين أهلها، ويُريها في صورة يفجعهم رؤيتها، ويسمعون تغيطها وزفيرها وشهيقها، ويحسبون أنهم ما رأوا مثلها من قبل وما دخلوها، فيكون لهم ذلك اليوم يوم الفرع الأكبر. والله مجالي كثيرة في أقداره وأسراره وحكمه، فلا تعجبوا من مجالي الله، وادعوا الله يلهمكم طرق المهتدين.

وكل ذلك مكتوب في كلام الله، وما كتبنا حرفا من عندنا، وما حرّفنا وما افترينا. ومن كذّب القرآن فهو هالك، ومن اختار سبيلا غيره فَيُتَبِّ وتأكّله السماء بأنيابها. فاستمسك بكتاب الله ولا تتركْ إلى غيره فتضلّ، وحسبنا كتاب الله إن كنا مؤمنين. ويكفي لك في شأن كتاب الله ما أثنى الله عليه وقال: [مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ

شَيْءٍ^①، فيه تفصيل كلِّ شيء، وما جاء في حديث مسلم عن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يُدعى حُمًّا بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: أما بعد.. ألا يا أيها الناس! إنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تاركٌ فيكم الثَّقَلَيْنِ، أولها كتابُ الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحثَّ على كتاب الله ورعَّب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي. وكتاب الله هو حبل الله، من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على الضلالة. فانظر كيف رَعَّب فيه وخوَّف من تركه مُعرضاً عنه بحيث أخذ غيره الذي يعارضه. فاعلم أن القرآن إمامٌ ونورٌ، ويهدي إلى الحق، وأنه تنزيل رب العالمين.

والذين يؤثرون الأحاديث على كتاب الله هم ينسون عظمة كتاب الله ولا يتبعونه إلا قليلاً، ويريدون أن يجعلوا مقام الأحاديث أرفع من مقام كتاب الله، ولا يخافون الله ولا يبالون ولا يتقون. ويقولون إنَّا ألفينا على هذا آباءنا، ولو كانوا آبائهم من الغافلين المتعصبين. لا يخفى على الله المعوقون منهم والخادعون الذين يقولون للغافلين الأُمِّيِّين هَلُمَّ إِلَيْنَا إِنَّا كُنَّا مهتدين، وإن هؤلاء لمن الكافرين. أيجعلون قصص الأحاديث كقصص كتاب الله؟ لا يستوون عند الله، وبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون إن كانوا مؤمنين؟ أم حسبوا أن يرضى عنهم ربهم بالأحاديث وما يُسألون عن ترك كلام الله؟ كلا.. بل إنهم من

المسؤولين. وكم من دلائل أقمتُ على هذه المسألة في كتيبي، وأسروا الندامة لما رأوا أنها الحق، ولكن ما رجعوا وما كانوا راجعين.

اعلم أيها العزيز أن مدار النجاة تعليم القرآن، ولا يدخل أحد الجنة أو النار إلا من أدخله القرآن، ولا يبقى في النار إلا من قد حبسه كتاب الله، فاعتصموا بكتاب فيه نجاتكم وقوموا لله قانتين. وقد قال رسول الله ﷺ في آخر وصاياه التي تُوفي بعدها: خذوا بكتاب الله واستمسكوا به، وأوصى بكتاب الله. وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسولكم فخذوا به تهتدوا. ما عندنا شيء إلا كتاب الله، فخذوا بكتاب الله. حسبكم القرآن. ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل. قضاء الله أحق. حسبنا كتاب الله. انظروا صحيح البخاري ومسلم، فإن هذه الأحاديث كلها موجودة فيهما، وقال صاحب "التلويح": إنما خبر الواحد يُردّ من معارضة الكتاب. واتفق أهل الحق على أن كتاب الله مقدّم على كل قول، فإنه كتاب أُحكمت آياته، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد حفظه الله وعصمه، وما مسّه أيدي الناس، وما اختلط فيه شيء من أقوال المخلوقين.

ولنرجع إلى بياننا الأول فنقول إن القرآن كما منع من رجوع أهل الجنة إلى الدنيا، كذلك منع من رجوع أهل النار إليها، فقال: [وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ

النَّارِ]. • ثم قال في مقام آخر: [لَا يَبْعُونَ عَنْهَا حَوْلًا*]. ثم قال في مقام آخر: [يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا[□]]. ثم قال في مقام آخر: [فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ[◎]]. وقد علمت أننا أن أهل الجنة والسعير يدخلون مقاميهما بعد موتهم من غير مكث ولا يُنظَرُونَ القيامة، وقال رسول الله p: من مات فقد قامت قيامته. ولولا كان الإنعام والإيلاء واصلا إلى الميت بمجرد موته، فما معنى قيام القيامة في حقه؟ وإذا أقررنا بأن الميت يُعَذَّبُ أو يُنْعَمُ عليه بعد الموت من غير توقف، فقد لزمنا أن نُقَرَّرَ بأن عذاب جهنم وإنعام الجنة يبدو بمجرد واقعة الموت من غير مكث، ولأجل ذلك جاء في الأحاديث أن أدنى نعيم المؤمنين في القبر أن الجنة تُرْلَفُ لهم، وتُفْتَحَ له غرفة من غرفاتها، فيأتيهم في كلِّ وقت رَوْحُ الجنة وريحانها من هذه الغرفة، وأن أدنى عذاب الكافر في القبر أن تُبْرَزَ الجحيم له وتُفْتَحَ له حفرة منها، فيأتيه في كلِّ وقت لظى النار من تلك الحفرة. ويوسع الله للمؤمنين بفضله ورحمته الوسيعة غرفة الجنة من خيرات جارية وباقيات صالحات تركها المؤمن لنفسه في الدنيا، أو من دعاء أبنائه وإخوانه الصالحين، فيزيد الغرفة يوما فيوما حتى يصير قبر المؤمن روضة من روضات الجنة.

فانظر إلى هذه الأحاديث كيف يبين رسول الله p، ثم انظر إلى الذين يقولون لإخوانهم إننا نحن المؤمنون بالقرآن وأحاديث رسول الله

p، ومع ذلك يُصَرِّون على أن الدخول في الجنة مخصوص بالشهداء، والذين هم غيرهم من الأنبياء والصدّيقين حتى سيدنا المصطفى p فهم مُبْعَدُونَ عن الجنة لا يصل إليهم رَوْحُهَا وريحانها، وما كان لهم أن يدخلوها إلا بعد يوم القيامة. فتَعَسَّأَ لهم ولأقوالهم! ما اتقوا الله وفضلوا الشهداء على خاتم النبيين.

ثم لا يخفى عليك أن الموتى بعد وفاتهم لا يُجَبِّسون معطلين، بل يكونون إما في نعيم وإما في عذاب، وما هذا إلا الجنة والنار، فتدبر مع المتدبرين*.

* اعلم أن وفاة عيسى u ثابت بالنصوص القطعية اليقينية، وإن تطلب الثبوت من القرآن ﴿ فتجد فيه آية: [يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ]، وآية: [فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي]، وآية: [كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ]، وآية: [وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ]، وآية: [فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ]. وهذه الآية الأخيرة تدل بمنطوقها على أن بني آدم يحيون في الأرض خاصة ولا يصعدون إلى السماء بجسمهم العنصري، لأن لفظ [فِيهَا] الذي هو مقدّم على لفظ [تَحْيَوْنَ] يوجب تخصيص الحياة بالأرض ويُقَيِّد بها، وفيه ردٌّ على الذين يقولون: لم لا يجوز أن يُرْفَعَ أحد بجسمه العنصري إلى السماء ويحيا فيها إلى مدة أرادها الله؟

والعجب منهم أنهم يفترون علينا ويحسبون كأننا تركنا النصوص القرآنية في رفع المسيح بجسمه العنصري، فليتدبر العاقل ههنا.. نحن تركنا القرآن ونصوصه في هذه العقيدة أم هم كانوا تاركين؟ وقالوا إن الله Y قال: [بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ]، ويحتجّون بهذه الآية على رفع جسم المسيح، ولا يتدبرون أن الأمر لو كان كذلك لتعارض الآيتان.. أعني آية: [بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ] وآية: [فِيهَا تَحْيَوْنَ].

وأنت تعلم أن القرآن منزّه عن التعارض والتخالف، وقال الله تعالى: [وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا]، فأشار في هذه الآية أن الاختلاف لا يوجد في القرآن، وهو كتاب الله وشأنه أرفع من هذا، وإذا ثبت أن كتاب الله منزّه عن الاختلافات فوجب علينا ألا نختار في تفسيره طريقا يوجب التعارض والتناقض، وما كان لليهود غرض وبحث في رفع جسمه أو عدم رفعه، فلا بد من أن نفسر الرفع في آية: [بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ] بالرفع الروحاني كما هو مفهوم آية: [ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُّرْضِيَةً]، فإن الرجوع إلى الله تعالى راضية مرضية والرفع إليه أمر واحد لا فرق بينهما معنى.

ثم انظر وتدبّر.. وهبك الله من عنده قوة الفصلة.. إن النزاع كان في الرفع الروحاني لا في الرفع الجسماني، فإن اليهود كانوا منكبين من رفع عيسى إلى الله كما يُرْفَعُ المَطْهَرُونَ الْمُقَرَّبُونَ من النبيين، وكانوا يصرون - لعنهم الله - على أن عيسى U من الملعونين لا من المرفوعين، كما أنهم يقولون إلى هذه الأيام. وكانوا يستدلون - غضب الله عليهم - على ملعونيته U من مصلوبيته، فإن المصلوب ملعون غير مرفوع في دينهم كما جاء في التوراة في كتاب الاستثناء. فأراد الله تعالى أن يُرْسِيَ نَبِيَّهَ عيسى من هذا البهتان الذي بُني على آية التوراة وواقعة الصلب، فإن التوراة يجعل المصلوب ملعونا غير مرفوع إذا كان يدّعي النبوة ثم مع ذلك كان قُتِلَ وصُلب، فقال Y لذبّ بهتائهم عن عيسى: [مَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ]، [بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ]، يعني الصلب الذي يستلزم الملعونية وعَدَمَ الرفع من حكم التوراة ليس بصحيح، بل رفع الله عيسى إليه، يعني إذا لم يثبت الصلب والقتل لم يثبت الملعونية وعدم الرفع، فثبت الرفع الروحاني كالأنبياء الصادقين وهو المطلوب.

هذه حقيقة هذه القصة، وما كان ههنا جدال ونزاع في الرفع الجسماني، وما كان هذا الأمر تحت بحث اليهود أصلا، وما كان غرضهم متعلقا به، بل علماء اليهود كانوا يمحرون لتكذيب المسيح وتكفيره، ويُفْتَشُونَ لتكذيبه وتكفيره حيلة شرعية، فبدا لهم أن يصلبوه ليثبتوا ملعونيته وعدم رفعه الروحاني كالأنبياء الصادقين بنص

التوراة لئلا يكون حجة لأحد بعد كتاب الله، فصلبوه بزعمهم، وفرحوا بأنهم أثبتوا ملعونيته وعدم رفعه بالتوراة، ولكن الله نجّاه من حيلهم وقتلهم، فأخبر عن هذه القصة في كتابه الذي أنزل بعد الإنجيل حَكَمًا عَدْلًا وَمُبَيَّنًا لظلم كلِّ قوم وإيذائهم وكيدهم ومُكَدِّبًا للكافرين. فكأنه يقول: يا حزب الماكرين! يا أعداء الصدق والصادقين! لم تقولون إنّا قتلنا المسيح ابن مريم وصلبنا وأثبتنا أنه ملعون غير مرفوع؟ فأخبركم أيها القوم الخبيثون، أنكم ما قتلتموه وما صلبتموه ولكن شُبّه لكم، وأنت تعلمون في أنفسكم أنكم ما قتلتموه يقينا، بل نجّاه الله من مكرهم ورزقه الرفع الروحاني الذي كنتم لا تريدون له وتمكرون لئلا يحصل له ذلك المقام، فقد حصل له ورفع الله وكان الله عزيزا حكيما. وهذا القول.. يعني قوله تعالى: [عَزِيزًا حَكِيمًا].. إشارةً إلى أن الله يُعزّز من يشاء، ويحفظ عزة أصفياه بحكمته الدقيقة البالغة اللطيفة، لا يضرها مكرٌ ماكر كما ما أضّر عَزَّةَ عيسى مكرُّ اليهود، بل أعزّه ورفعه ودمّر الماكرين.

فاعلم أيها العزيز! هذا تفسير قوله تعالى: [بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ]، ولكن لا يقبله قومنا ويُحَرِّفون كلام الله ولا يتدبرون في شأن نزوله، ويمشون على الأرض مستكبرين. وإذا قيل لهم إن الله ورسوله قد شهدا على وفاة المسيح وكذلك شهدوا عليه أكابر المؤمنين من الصحابة والتابعين وأئمة المحدثين، فكان آخر جوابهم أن الله قادر على أن يحييه بعد وفاته مرة أخرى، ولا يتفكرون أن قُدرة الله تعالى لا يتعلق بما يُخالف مواعيده الصادقه، وقد قال: [فَيُمَسِّكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ]، وقال: [وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ]، وقال: [لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ]، ولا شك أنه من مات من الصلحاء فإنه نال حظًا من الجنة وحُرِّم عليه الموتة الثانية، فكيف يجوز أن يُردَّ عيسى إلى الدنيا ويُخرج من حظ الجنة ونعيمها أو يُسَدَّ عليه غرفتها ثم يُتَوَقَّى مرة ثانية؟ مع أن الآية المتقدمة.. أعني: [لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ] تدل على دوام الحياة وعدم ذوق الموت. وإلى هذا يُشير الاستثناء المنقطع، فإنه جرى مجرى التأكيد والتنصيص على حفظ العموم وجعل النفي الأول العام بمنزلة النص الذي لا

هذا ما ذكرنا من نصوص القرآن على وفاة المسيح وعلى نفي صعوده مع الجسم العنصري، ونفي رجوعه إلى الدنيا[●]. وأما

يتطرق إليه استثناء البتة، إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفراد لكان أولى بذكره من العدول عنه إلى الاستثناء المنقطع، فاحفظه فإنه من أسرار مفيدة للمحققين. منه.

=====

◆ الحاشية تحت الحاشية: وأما ثبوت وفاة عيسى ν من قول رسول الله ρ فينكشف عليك إذا تدبرت في حديث البخاري الذي جاء في تفسير آية: [فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي]. والبخاري ذكر هذا الحديث في كتاب التفسير ليشير إلى أن قول رسول الله ρ واستعماله آية: [فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي] لنفسه كما استعمل عيسى لنفسه نوعاً من التفسير، ولأجل ذلك أيد البخاري هذا التفسير بقول ابن عباس: متوفيك مميتك. والبخاري أشار إلى مذهبه المختار بهذا الاجتهاد.

فالحاصل أن لفظ "توفي" ليس كلفظ يُفسره أحد برأيه، بل أول مفسره القرآن من حيث إنه ذكر هذا اللفظ في كل مقامه بمعنى الإمامة وقبض الروح، والمفسر الثاني رسول الله ρ ، والمفسر الثالث أبو بكر الصديق τ ، والمفسر الرابع ابن عباس τ ، والمفسر الخامس جماعة من التابعين، والمفسر السادس الإمام البخاري في صحيحه، والمفسر السابع إمام المحدثين ابن القيم، بل إنه كتب في كتابه: "مدارج السالكين": لو كان موسى وعيسى حين لكانا من أتباع نبيا ρ ، وأشار إلى الحديث النبوي، والمفسر الثامن محدث وقته ولي الله الدهلوي، فإنه فسر معنى [يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ] في كتابه: "الفوز الكبير" وقال: متوفيك مميتك. ومع ذلك قد ذهب حزب كثير من الأولين والآخرين إلى هذا المعنى، وقد اتفقوا على أن معنى التوفي في هذه الآية هو الإمامة لا غير. ثم الذين في قلوبهم مرض لا يُبالون قول الله ولا تفسير رسوله ولا ما فسر صحابته ولا أقوال التابعين والأئمة والمحدثين. فلا نعلم كيف نقبل معناهم الذي لا دليل عليه من بيان الله وتفسير رسوله، وأين نفر من الرشد الذي قد تبين؟ أنترك الله ورسوله لقول قوم ضالين؟ منه.

● حاشية: قال بعض الناس الذي لا علم عنده إن آية: [وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ]، وآية: [بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ] دليل على أن المسيح رُفِعَ حياً بجسمه العنصري. هذا قوله واستدلالة، ولكن لو كان هذا الرجل مطلعاً على شأن نزول هذه الآية لرجع من قوله، بل ما التفت إلى معنى يخالف طريق المعقول والمنقول، وما تكلم بالفضول، وكان من المتنمدين.

الأحاديث النبوية فلن نجد فيها أثرًا من رفع المسيح بجسمه العنصري،
 ونجد في كل مقامٍ ذُكر وفاته كما ذكرنا قليلًا منها ولا حاجة إلى
 الإعادة. وما نجد في حديثٍ معنى التوفي رَفْع رجلٍ إلى السماء مع
 جسمه، بل جاء في البخاري عن ابن عباس في تفسير آية [يَا عِيسَى
 إِنِّي مُتَوَفِّيكَ]: مميتك، وما خالفه في هذا التفسير أحد من أصحاب
 رسول الله ﷺ. فإذا تحقق أن معنى التوفي الوفاة لا غيره فلا يُقال إن
 إمامة المسيح التي رُوِيَتْ عن ابن عباس وعدٌ غير واقع إلى هذا الوقت
 بل يقع في آخر الزمان، لأن المواعيد التي ذُكرت في هذه الآية بالترتيب
 قد وقعت وامت كلها على ترتيبها الذي يوجد في تلك الآية، ووعدُ
 التوفي مقدّم عليها في الترتيب. وأنت تعلم أن وعد [رَافِعُكَ إِلَيَّ] قد
 وقع، وهكذا وعدُ [مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا] وقع وتم بيعث نبينا ﷺ،

فاسمع أيها العزيز! إن اليهود كانوا يقرأون في التوراة أن الكاذب في دعوى النبوة يُقتل، وإن
 الذي صُلِبَ فهو ملعون لا يُرْفَع إلى الله. وكانت عقيدتهم مستحكمة على ذلك، ثم شُبّه
 لهم ابتلاءً من عند الله كأنهم صلبوا المسيح ابن مريم وقتلوه، فحسبوه ملعونًا غير مرفوع،
 ورتبوا الشكل هكذا: المسيح ابن مريم مصلوب، وكل مصلوب ملعون وليس بمرفوع، فثبت
 عندهم من الشكل الأول الذي هو بَيِّنُ الإنتاج أن عيسى - نعوذ بالله - ملعون وليس
 بمرفوع. فأراد الله أن يزيل هذا الوهم ويبرئ عيسى من هذا البهتان فقال ما قتلوه وما صلبوه
 ولكن شُبّه لهم... بل رفعه الله. وحاصل كلام تعالى أن شأن عيسى منزّه عن الصلب
 والنتيجة التي هي الملعونية وعدمُ الرفع، بل هو مات حتف أنفه، وُرفِعَ إلى الله كما يُرْفَعُ
 المقرَّبون وما كان من الملعونين. وهذا هو السبب الذي ذكر الله تعالى لأجله قصة عدم
 صلب عيسى، وبرأه مما قالوا، وإلا فأبَيَّ ضرورة كانت داعية إلى ذكر هذه القصة، وما كان
 موت القتل نقصًا لأنبيائه وكسرًا لشأنهم وعزتهم، وكأين من النبيين قُتلوا في سبيل الله كيحيى
 U وأبيه، فتفكّر واطلب صراط المهتدين ولا تجلس مع الغاوين. منه.

وقد شهد القرآن على أن المسيح وأمه مبرّءان مما قالت اليهود، فقال: [مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ^{٥٦}]، وقال: [وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّرِينَ^{٥٧}]، وكذا تم وعد [وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا]^{٥٨}، وقد وقع كما وعد، وما نرى اليهود إلا مغلوبين ومقهورين.

وأنت تعلم أن في ترتيب هذه الآية كانت هذه المواعيد كلها بعد وعد التوفي، وكان وعد التوفي مقدّما على كلها، وقد اتفق القوم على أنها وقعت بترتيب يوجد في الآية، فلو فرضنا أن لفظ التوفي مؤخر من لفظ الرفع، للزمنا أن نقر بأن عيسى ﷺ قد توفي بعد الرفع وقبل وقوع المواعيد الباقية، وهذا مما لا يعتقد به أحد من المخالفين. ولو قلنا إن لفظ التوفي مؤخر من جملة: [وَمُطَهَّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا] ومقدّم من وعد وقع في ترتيب الآية بعدها، للزمنا أن نقر بأن وفاة عيسى ﷺ كان بعد نبينا ρ من غير مكث قبل غلبة أتباعه على أعدائهم، وهذا باطل أيضا بزعم القوم، فإنهم قد اعتقدوا أن المسيح لا يموت إلا بعد هلاك الملل كلها. فلو رجعنا من هذه الأقوال كلها وقلنا إن المسيح لا يموت إلا بعد تكميل وعد الغلبة الممتدة إلى يوم القيامة كما صرحت آية: [وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]^{٥٩}، للزمنا أن نقر بأن المسيح لا يموت إلا بعد يوم القيامة، فإن الوعد قد امتد إلى يوم القيامة، ولا يمكن نزول المسيح إلا بعد وقوعه على الوجه الأتم

والأكمل، فما نجد له موضعَ قدم في كتاب الله إلا بعد يوم الحشر على طريق فرض المحال. وليت شعري.. إن أعداءنا يقولون بأفواههم إن لفظ [مُتَوَقِّعٌ] في آية: [يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ] مؤخر في الحقيقة، وليس هذا الموضع موضعه، ولكنهم لا يُبَيِّنُونَا بِأَن[⊙] لو نرفع هذا اللفظ من هذا المقام فأين نضعه، أنسقطه من كتاب الله كالمحرّفين؟ والذين يقولون إن لفظ التوفي مؤخر من لفظ الرفع ومقدم على مواعيد أخرى، فيضحك العاقل من قولهم، ويتعجب من حمقهم. ألا يعلمون أن هذا القول خلاف ما يعتقدون في وقت وفاة المسيح بزعمهم؟ وإنّا ذكرنا آنفاً أنهم يعتقدون أن وعد التوفي لا يظهر ولا يقع إلا بعد هلاك أهل الملل كلها، فلزمهم أن يعتقدوا أن لفظ التوفي مؤخر من هذا الوعد الآخر لا من الرفع فقط، فإن التأخر الوضعي يتبع التأخر الطبيعي، كما لا يخفى على المتفكرين.

ثم ما كان لنا أن نؤخر من عند أنفسنا ما قدّم الله تعالى في كتابه المحكم من غير سند من الله ورسوله، وما هذا إلا التحريف الذي لعن الله لأجله اليهود؛ فاتقوه ولا تقلّبوا آيات الله بعد ترتيبها إن كنتم خائفين.

وقد علمتم أن آية: [فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي] شاهدة أخرى على وفاة عيسى ρ ، فإن رسول الله ρ استعمل لنفسه جملة [فلما توفيتني] من غير تغيير وتبديل ومن غير تفسير يُخالف أصل التفسير، وكان رسول الله ρ

⊙ سهو، ولعل الصحيح: "بأننا". (الناشر)

أعلم الناس بمعاني القرآن ورموزه وأسراره. فلو كان معنى التوفي في هذه الآية رَفَعَ الجسم حيًّا إلى السماء، لما جعل نفسه مصداقَ هذه الآية، ولكنه نسب هذه الآية إلى نفسه كما هي نُسبت إلى المسيح، فهذا أول دليل على أن لفظ [تَوَفَّيْتَنِي] في هذه الآية بمعنى: أَمَتَّنِي. فهذا هو السبب الذي استدل البخاري في صحيحه على وفاة المسيح بهذه الآية، وأكد هذا المعنى بقول ابن عباس: متوفيك: مميتك. فأى دليل أوضح من هذا على موت عيسى U لقوم طالبيين؟ وقد بين الله في هذه الآية وقت وفاة المسيح فكأنه قال أيها الناس، إذا رأيتم أن النصارى اتخذوا عيسى إلهًا، وأفسدوا مذهبهم، فاعلموا أن عيسى قد مات. فانظر كيف اتضح وانكشف معنى التوفي بتفسير رسول الله ﷺ، ثم بتفسير ابن عباس، وانظر كيف ثبت وقوع موته من قبل فساد مذهب النصارى واتخاذهم عيسى إلهًا. وأنت تعلم أننا إذا فرضنا أن عيسى حيَّ إلى هذا الوقت فلزمنا أن نقر بأن مذهب النصارى صحيح خالص إلى هذا الزمان، ما اختلط به شيء من الشرك، فتفكر وسل المتفكرين.

قال بعض المستعجلين إن لفظ "التوفي" قد جاء في القرآن بمعنى الإنامة أيضًا، كما قال الله تعالى: [اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا]، وكما قال الله تعالى: [وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى] ♦.

فاعلم أن الله تعالى ما أراد في هذه الآيات من لفظ التوفي إلا الإمامة وقبض الروح، فلاجل ذلك أقام القرائن، وقال: [وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا]، يعني والتي لم تمت بموت حقيقي يتوفاه الله في منامها بموت مجازي. فانظر كيف أشار في هذه الآية إلى أن قبض الروح في النوم موت مجازي. فذكر لفظ التوفي ههنا بإقامة قرينة المنام تنبيهاً على أن لفظ التوفي ههنا قد نُقل من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي، وإشارةً إلى أن معنى لفظ التوفي حقيقةً هو الموت لا غيره. وكذلك أقام قرينةً قوله: [ثُمَّ يَبْعَثُكُم] وقرينةً الليل في آية أخرى.. أعني آية: [هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ.. الخ]، تنبيهاً على أن لفظ التوفي ههنا ليس بمعنى الإنامة بل المقصود الإمامة، والبعث بعد الإمامة ليكون دليلاً على بعث يوم الدين، فلاجل ذلك ذكر بعث يوم القيامة بعد هذه الآية وقال: [ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ]، ليجعل هذا الموت المجازي والبعث المجازي دليلاً على الموت الحقيقي والبعث الحقيقي. فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين. ألا تنظر كيف ذكر لفظ **البعث** بعد ذكر التوفي وقال: [ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيهِ]؟ ومعلوم أن للنائمين يُستعمل لفظ **الإيقاظ** لا لفظ **البعث**، فلو كان مراداً من لفظ التوفي ههنا **الإنامة** لقال: هو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم **يوقظكم** فيه، ولكنه تعالى ما قال: ثم **يوقظكم** فيه، بل قال: [ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيهِ]. فأبي دليل أوضح من هذا؟ فإن **البعث** يتعلّق بالموتى لا بالنائمين.

ومثل هذه الاستعارة كثير في القرآن كما قال Y: [اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا*]، فلا يُقال إن لفظ [يُحْيِي] ههنا بمعنى يُنبِت من حيث اللغة، بل هو استعارة، والمقصود منه تشبيه الإنبات بالإحياء، لِيُسْتَدَلَّ به على بعث الموتى. وكما قال Y: [فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ]*، فلا يُقال إن لفظ: [أَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى] بمعنى أَضْلَهُمْ من حيث اللغة، بل هي استعارة، والمقصود منها تشبيه الضالين المعرضين بالصُّمِّ والعُمى. فلا تَطْمَعُ ولا تُتَعَبُ نفسك في أن تجعل معنى التوفي الإنامة من حيث اللغة، فإنه إن كان ذلك هو الحق فلزمك أن تقرّ بأن لفظ [يُحْيِي] في آية: [يُحْيِي الْأَرْضَ] بمعنى يُنبِت، ثم تثبتها من كتب اللغة، وكذلك إن أصررت على هذا فلزمك أن تقرّ بأن لفظ [فَأَصَمَّهُمْ] ولفظ [وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ] بمعنى أَضْلَهُمْ وأبعدهم عن الحق وأزاع قلوبهم، ثم تُرِينَا من كتب لغة العرب هذه • المعنى، وأين لك هذا؟ فلا تتبع الفكر المشوب بالوهم، ولا بد أن تقبل ما ثبت وتلحق بقوم صادقين.

واعلم أنك لن تجد أثرا من هذه المعاني التي تتخيل في بادي النظر في الآيات المتقدمة في كتاب من كتب لسان العرب على وجه الحقيقة، والقرآن مملوء من هذه النظائر إن كنت من الناظرين. وقد تقرر عند القوم أن المعنى الحقيقي هو الذي كثرت * استعماله في موضع من غير

* الحديد: 118 * محمد: 24

• سهو، والصحيح: "هذا". (الناشر)

* سهو، والصحيح: "كثير". (الناشر)

أن يُقام القرينة عليه، فعليك أن تنظر القرآن تدبراً ليتبين لك أن استعمال لفظ التوفي مطلقاً من غير إقامة قرينة.. ما جاء في القرآن إلا في معنى الإمامة، ولن تجد في حديث أو في شعر شاعر.. إذا نُسب التوفي إلى الله تعالى وكان الإنسان مفعولاً به.. معنى آخر من غير الإمامة، فأخرج لنا وخذ منا ما وعدنا من الإنعام إن كنت من الصادقين.

والذين قالوا إن لفظ [مُتَوَفِّيك] في آية: [يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ تَوَفَّيْكَ] بمعنى إني مُنيمك، ما كان خطؤهم خطأ واحداً، بل جمعوا أنواع العثرات في قولهم وتركوا تفسير رسول الله ﷺ، وهو خير البشر وكان تكلُّمه بالروح الرحماني، وكان قوله خيراً من أقوال كلها، وقد أحاطت كلماته طرق الذوق والوجدان والعلم والعرفان والنور الذي أُعطي له من الرحمن، وتركوا ما قال ابن عباس في معنى: [مُتَوَفِّيك]، وما نظروا إلى القرآن وطريق استعماله في هذا اللفظ، ووروده فيه بمعنى الإمامة بالتواتر والتتابع، فضلوا وأضلوا وما كانوا من المهتدين.

ثم إذا فرضنا أن التوفي بمعنى الإنامة، فما نرى أن ينفعهم هذا المعنى مثقال ذرة، فإن النوم مراد من قبض الروح وتعطُّل حواس الجسم مع بقاء تعلُّق بين الروح والجسد، فمن أين يثبت من هذا أن الله قبض جسم المسيح؟ ألا تنظر إلى سُنَّة الله القديمة.. فإنه يقبض الأرواح في حالة النوم ويترك الأجسام على الأرض. فمن أين علمت أن لفظ [مُتَوَفِّيك] مُشعرٌ برفع الجسد؟ والخلق ينامون كلهم ولكن لا يقبض

الله جسم أحد منهم. فاترك التحكّم والمكابرة، وانظر إيماناً وديانة لينفخ الله في روحك ويجعلك من العارفين.

وعلى تقدير فرض هذا المعنى يلزم فساد آخر، وهو أن لفظ التوفي في هذه الآية وعدٌ مُحدثٌ من الله تعالى كمواعيد أخرى التي ذكرها الله فيها، ولو كان هذا المعنى هو الحق فيلزم منه أن يكون نوم المسيح عند الرفع أول أمر ورد عليه في عمره، ويلزمهم أن يعتقدوا أن عيسى U كان لا ينام قبل الرفع قط، فإن الأمر الذي قد وقع عليه في حياته غير مرة.. كيف يمكن أن يذكره الله في مواعيد جديدة محدثة؟ فإن وعد الشيء يدل على عدم وجود الشيء قبل الوعد، وإلا فيلزم تحصيل حاصل، وهو فعل لغو لا يليق بشأن الله تعالى، ووجب أن يُنزّه عنه وعدٌ رب العالمين.

ثم لو كان هذا المعنى هو الصحيح.. فما تقول في آية: [فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ*]؟ أظن أن النصارى اتخذوا المسيح إلهاً بعد نومه لا بعد وفاته؟ وتظن أن المسيح ما نام قط في عمره إلا في وقت ضلالة النصارى.. ولم تذق عينه طعم النوم قط إلا عند الرفع وكان قبل الرفع مستيقظاً دائماً؟ فانظر منصفاً.. أيستقيم هذا المعنى في هذا الموضع ويحصل منه ثلج القلب وسكينة الروح واطمئنان الباطن؟ وأنت تعلم أنه مستبعد جداً وفاسد بالبدهاة، وما كان أن يُصلحه تأويل المؤولين. فهذه غفلة شديدة من العلماء المكفّرين حيث حكموا

على المعنى الفاسد بالصلاحي، فاسمعوا إن كنتم سامعين.

ثم مع ذلك قد جاء في البخاري عن ابن عباس ؓ في معنى التوفي شرح واضح فقال: متوفيك: مميتك، وتبعه سائر الصحابة والتابعين ومن تبعهم، ولم يشذ أحد منهم بخلاف، فأى دليل يكون أوضح من هذا إن كان رجل من الطالبين؟

وقد ذكرت آنفا أننا لو فرضنا على سبيل التنزل وقلنا إن التوفي ههنا.. أعني في آية: [يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ خُذْ زِينَتَكَ] بمعنى الإناطة.. لكنت هذه الواقعة واقعة أخرى، ولا ينفع الاستدلال بها قوما مخالفين. فإن المطلوب المخالفين من خبطهم أن يُثبتوا رفع المسيح مع جسمه العنصري، ولكن لا يحصل هذا المطلوب من هذا المعنى، بل يحصل ما يُخالفه؛ فإن معنى الآية في هذه الصورة يكون هكذا: يا عيسى ابني قابض روحك وتارك جسدك على الأرض مع بقاء علاقة بين الجسد والروح، فإن النوم عبارة عن قبض الروح وترك الجسد مع بقاء علاقتهما على وجه تام. فانظر.. أتى يحصل المطلوب المخالفين من هذا المعنى؟ وأين يثبت منه رفع جسد عيسى ؑ إلى السماء، بل الأمر بقي على حاله مع حمل معنى التوفي على غير محله. ولا شك أن كل منصف يفهم قولنا هذا وينتفع به إلا الذي لم يبق إنصافه على صرافته، واختلطت به ظلمة التعصب ودخان الحقد، فلا ينفع الدلائل والبراهين قوما متعصبين.

ثم إن دقت النظر في هذه الآية، وتحملها على أحسن وجوها

ومعانيها، فلا يخفى عليك أن مفهومها وسياق عبارتها يدل على وفاة المسيح كما يدل عليه منطوقها، فإن الله قد ذكر بعد قوله: [يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَقِّعُكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ] كلماتٍ فيها تسليّة للمسيح وتبشير له وإخبار عن أيام فتح متّبعيه وغلبيتهم على أعدائهم بعد وفاته؛ وهذا دليل واضح على أن موت عيسى كان قبل نصر من الله وقبل غلبة كان ينتظرها ويسأل الله فتحه.

والأصل في هذا الباب أن الله قد فطر أنبياءه على أنهم يحبّون أن تُعلَى كلمة الحق على أيديهم، ويُجمَع شمل أمتهم بهم أمام أعينهم، ويريدون أن تَهْلِكَ الملل كلها إلا الحق، وكذلك جرت عادة الله تعالى بهم، فإنه قد يُريهم غلبتهم وفتحهم وذلة أعدائهم ولا يتوفاهم إلا بعد الفتح المبين. ونظير ذلك سوانح رسولنا ﷺ، فإن الله لما رأى أن الكفار يكذبون رسوله ويتلاعبون بوحى الله ويستهزئون ويؤذون.. فأَيَّد نبيّه ونصره وأخزى كل من عاداه وأهلكه حتى ماز الخبيث من الطيب، وأرى نبيّه أن الناس يدخلون في دين الله أفواجا، وأراه أن الحق قد حق وأن الباطل قد بطل، وتبين الرشد من الغي وظهرت ذلة المفسدين.

وقد تقتضي حكمة الله تعالى ودقائق مصالحه أنه يتوفى نبيا قبل مجيء أيام فتحه وإقباله، فلا يتوفاه حزينا يائسا، بل يبشّره بتبشيرات متوالية متتابعة بغلبة متّبعيه بعد وفاته، ليطمئن بها قلبه، ولكي لا يحزن ولكي لا يرجع إلى ربه بقلب أليم، بل ينتقل من هذا العالم بسكينة وسرور وحبور وقرّة عين، ولا يبقى له همٌّ بعد تبشير الله ومواعيده

الصادقة، ويذهب إلى ربه فرحان غير حزين. فكذلك كان أمر عيسى
 .. فإنه ما رأى غلبة في زمن حياته، واقترب يوم وفاته فبشره الله
 تعالى بغلبة متّبعيه بعد موته، وما بشره بغلبة في أيام حياته، فارجع إلى
 الآية المتقدمة ودقق النظر فيها.. هل ترى في هذا المعنى من فتور؟
 فكأنه قال في هذه الآية يا عيسى إني متوفيك قبل أن ترى ظفرك
 وفتحك وغلبتك، وإني معطيك مقام العزة والرفع والقرب على خلاف
 زعم اليهود، فلا تبتئس بما تموت قبل رؤية غلبتك، ولا تحش على
 ضعف متبعيك وكثرة أعدائك، فإني خليفتك بعدك، فأمزق أعداءك
 كل ممزق، وأستأصلهم للأبد، وأجعل الذين اتبعوك وتصدوا لخلافتك
 فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، هذا تفسير ما قال أحسن القائلين.
 ولو كان عيسى نازلا من السماء في وقت من الأوقات لما قال
 كذلك، بل قال يا عيسى لا تحف ولا تحزن، فإنّا لا نميتك بل نرفعك
 حيا إلى السماء، ثم إنّنا نُنزلك إلى الأرض ونردك إلى أمتك، ونجعلك
 غالبا على أعدائك، ثم نجعل متّبعيك غالبين عليهم إلى يوم القيامة،
 فلا تحسب نفسك من المغلوبين. ولكن الله ما وعد له أن يُنزله من
 السماء، ثم يجعله غالبا على أعدائه، بل وعد له أن يجعل متبعيه غالبين
 على الكافرين إلى يوم القيامة، ففعل كما وعد ومضى عليه قرون
 كثيرة.

وأما النزول فشيء لا ترى أثره إلى هذا الوقت، فتفكر.. لم ما نزل
 مع أن عمر الدنيا قد بلغ إلى آخر الزمان؟ فالسر الكاشف لهذا

الإشكال هو أن النزول ما كان داخلا في مواعيد الله بل كان من مفتريات الطبائع الزائغة والأفكار المخطئة، فما خرج من زاوية العدم لأنه ما كان من الله تعالى، والمواعيد التي كانت من الله تعالى ظهرت كلها وتمت. ألا ترى أن الله تعالى كيف بعث رسولا أميًّا بعد عيسى ليصدق وعده، أعنى قوله: [وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا]؟ ثم كيف جعل متبعي عيسى U غالبين على اليهود ليصدق وعده: [وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ .. الخ]. فلو كان وعد النزول جزءا من هذه المواعيد لظهر معها، فانظر أين غاب وانعدم وعدُّ النزول مع ظهور أجزاء أخرى. فوالذي نفسي بيده إن هذا الذي قلت هو الحق، وأما عقيدة النزول فليس من أجزاء هذه المواعيد، وما ذُكر معها في القرآن، بل لا يوجد أثر منه في كتاب الله وإن هو إلا وهم المتهمين. فلما تبين الحق فلا تر الحق بعين الاحتقار والازدراء، واتق الله وكن من المتورعين. ولا تجد في القرآن إشارة إلى حياته بل القرآن يخبر عن وفاته بعدما ترعرع وتكلم كهلاً، وبُعث وبلغ رسالات الله وأتم حجته على المنكرين.

فأيها الناس! لا تكتموا شهادات الحق في وقت تبينها، ولا تفسدوا في الأرض، وتوادوا ولا تباغضوا، وأتمروا بينكم في المعروف ولا تعاصوا، واتبعوا الحق ولا تعبدوا، وفكروا في أنفسكم ولا تعجلوا، وإني أذكركم الله ربكم فانتقون إن كنتم مؤمنين. واعلموا أن الله يعلم ما تكتُمون وما تقولون، ولا يخفى عليه خافية، فالذي عتا عن أمر ربه وعصاه فسوف يُريه عذابا نُكْرًا، ويحاسبه حسابا شديدا، وبذيقه وبال

أمره، ويُدخله في الهالكين.

لا يقال إن الجملة الآتية في الآية المتقدمة.. يعني [وَرَأْفَعَكَ إِلَيَّ] يدل على رفع الجسد بعد الإنامة، فإنه لما ثبت وتحقق أن معنى التوفي قبض الروح فقط لا قبض الجسم، ثبت من ههنا أن الرفع يتعلق بالروح لا بالجسم، فإن الله لا يرفع إلا الشيء الذي قبضه، ومعلوم أن الله لا يقبض الأجسام بل يقبض الأرواح فقط. وأنت تعلم أن القرآن يشهد على هذا في كل مواضعه، ولن تجد في القرآن لفظاً من ألفاظ التوفي الذي كان معناه رفع الجسم مع الروح، وكذلك جرت عادة الله تعالى من يوم خلق آدم إلى هذا اليوم، فإنه يقبض الأرواح ويترك الأجسام مطروحة على الأرض أو السرر أو القُرش. فالشيء الذي ما قبضه الله تعالى.. كيف يُرفع إليه؟ فإن القبض شرط ضروري للرفع.

ثم إذا تفحصنا عن ألفاظ التوفي في القرآن فوجدناها في خمسة وعشرين موضعاً من مواضعه، ولكن الله لم يستعمله في موضع إلا بمعنى قبض الروح. فانظر القرآن من أوله إلى آخره.. هل تجد فيه معنى يُخالف هذا البيان؟ وانظر في قوله تعالى: [رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ^①]، وفي قوله تعالى: [تَوَقَّيْ مُسْلِمًا وَالْحَفْنِي بِالصَّالِحِينَ^②]، وفي قوله تعالى: [وَأِمَّا نُزِيرَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ^③]، وفي

① الأعراف: 127 ◆ يوسف: 102 * يونس: 47 • يونس: 105

* النساء: 16 * الأعراف: 38

قوله تعالى: [وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ] ●، وفي قوله تعالى: [حَتَّى يَتَوَفَّاَهُنَّ الْمَوْتُ] *، وفي قوله تعالى: [إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ] *، وفي أقوال أخرى. وتأمل في هذه الألفاظ.. أعني التوفي.. هل تجد معناه الإمامة في هذه الآيات أو معاني أخرى؟ وأما نظائره في الصحاح الستة وأحاديث أخرى وكلام الشعراء فلا تُحصى كثرة، ففكر ولا تكن من المستنكرين. وينبغي أن تحتاط في فكرك ولا تجيب كالمستعجلين.

واعلموا أن الذين خالفوا بياننا هذا وقالوا إن التوفي في آية: [يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ] وفي آية: [فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي] إنما جاء بمعنى الرفع مع الجسد، فهو قول لا دليل عليه، وما نصّوا على ذلك، وما استدلوا بمحاورة كلام الله وتفسير رسوله أو أصحابه أو شهادة أحد من أهل اللسان، فلا شك أنه تحكم محض كما هو عادة المتعصبين.

وإذا ثبت أن لفظ التوفي في القرآن في كل مواضعها ما جاء إلا للإمامة وقبض الروح، فما ظنك في هذا اللفظ الذي جاء في آية: [يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ]؟ أهو عندك مثل هذه الألفاظ التي تجدها في القرآن بمعنى الإمامة وقبض الروح بالتواتر والتتابع في كل موضع من مواضعه؟ أم له معنى مخصوص الذي لا يوجد في القرآن مثله ولا في حديث ولا في قول صحابي، ولا في كلمات بلغاء العرب وشعرائهم من الأولين والآخرين؟ فإن كنت تظن أن لهذا المعنى الذي نحتة العلماء في لفظ [مُتَوَفِّيكَ] بالتكلفات الباردة الركيكة أمثالا أخرى في لسان العرب والقرآن المجيد وأحاديث رسول الله ﷺ فأت بها إن كنت من

الصادقين. وإن لم تأتوا بها.. ولن تأتوا بها.. فاتقوا الله الذي إليه تُرجعون ثم تُسألون عما تعلمون وتعملون، والله يعلم ما في صدور العالمين.

وبوجه الله وعزته.. إني قرأت كتاب الله آيةً آيةً وتدبرت فيه، ثم قرأت كتب الحديث بنظر عميق وتدبرت فيها، فما وجدت لفظ التوفي في القرآن ولا في الأحاديث - إذا كان الله فاعله وأحد من الناس مفعولا به - إلا بمعنى الإمامة وقبض الروح. ومن يُثبت خلاف تحقيقي هذا فله ألف من الدارهم المروجة إنعاما مني، كذلك وعدت في كتي التي طبعتها وأشعتها للمنكرين وللذين يظنون أن لفظ التوفي لا يختص بقبض الروح والإمامة عند استعمال الله لعباده بل جاء بمعنى عام في الأحاديث وكتاب رب العالمين.

والحق أن لفظ التوفي إذا جاء في كلام وكان فاعله الله، والمفعول به أحد من بني آدم صريحا أو إشارة، مثلا إذا كان الكلام هكذا: توفي الله زيدا، أو توفي الله بكرا، أو تُوفي خالد، فلا يكون معناه في لسان العرب إلا الإمامة والإهلاك، ولن تجد ما يُخالفه في كلام الله ولا في كلام رسوله ولا في كلام أحد من شعراء العرب ونوابغهم. فانظر إلى كل جهة هل صدقنا في قولنا هذا أم كنا من الكاذبين. وقد أطنبنا في تقريرنا هذا ليتدبر من كان من المتدبرين.

والعجب من بعض الجهلاء أنهم إذا سمعوا منا هذه الحجة فما قبلوها كالمسترشدين، بل نهضوا معارضين، وقرأوا آية: [ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ

نَفْسٍ] ونحوها نقضاً منهم، ولم يعلموا من حقهم وشدة جهلهم أن هذه الآيات التي يقرأون ردًّا علينا هي كلها من باب التفعيل لا من باب التفعّل الذي هو محل النزاع. فانظر كيف يسعون هؤلاء إلى كل جهة ليطففوا نور الحق، ثم انظر كيف ينقلبون خائبين. وكأين من آية في القرآن يقرأونها ثم يمرون عليها غافلين، وأبصرهم كثرتهم فيظلمون الضعفاء متكبرين.

واعلم.. حماك الله وحفظك ورخص درن أوزارك.. أن للمخالفين اعتراضات أخرى قد نشأت من سوء فهمهم وقلة تدبرهم، فأردنا أن نكتبها في كتابنا هذا مع جوابها لينتفع بها كل من كان رشيدا من الناس، مصطفى مبرراً من دنس التعصب وكان من الطالبين.

فمنها أنهم يقولون إن الملائكة ينزلون إلى الأرض كنزول الإنسان من جبل إلى حضيض، فيبعُدون عن مقرهم، ويتركون مقاماتهم خالية إلى أن يرجعوا إليها صاعدين. هذه عقيدتهم التي يبينون، وإنّا لا نقبلها ونقول إنهم ليسوا فيها على الحق. فاشتد غيظهم وقالوا إن هؤلاء خرجوا من عقائد أهل السنّة والجماعة، بل كفروا وارتدوا، فقاموا علينا معترضين.

وأما الجواب فاعلم أنهم قد أخطأوا إذ قاسوا الملائكة بالناس، ولا يخفى على الذي خلّق من طينة الحرية، وتفوّق دَرّ الدراية اليقينية، أن الملائكة لا يشابهون الناس في صفة من الصفات أصلاً، ولم يقدّم دليل من الكتاب ولا السنّة ولا الإجماع على أنهم إذا نزلوا إلى الأرض

فيتركون السماوات خالية كبلدة خرجت أهلها منها ويقصدون الناس بشقّ الأنفس، ويصلون الأرض بعد مكابدة الأسفار وآلام بُعْدِ الشُّقَّةِ ومتاعبها وشدائدِها، ومعاناةٍ كل مشقة وجهد، بل القرآن الكريم يبيّن أن الملائكة يشابهون بصفاتهم صفاتِ الله تعالى كما قال Y: [وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا]، فانظر.. رزقك الله دقائق المعرفة.. أنه تعالى كيف أشار في هذه الآية إلى أن مجيئه ومجيء الملائكة ونزوله ونزول الملائكة متحد في الحقيقة والكيفية. ولا حاجة إلى أن نذكر ما ثبت من نزول الله تعالى من العرش في الثلث الآخر من الليل فإنك تعرفه، ومع ذلك ما أظن أن تحمل ذلك النزول على النزول الجسماني وتعتقد أن الله تعالى إذا ما نزل إلى السماء الدنيا فبقي العرش خالياً من وجوده. فاعلم أن نزول الملائكة كمثل نزول الله كما تشير إليه الآيات المتقدمة، والله أدخل وجود الملائكة في الإيمانيات كما أدخل فيها نفسه وقال: [وَلَكِنَّ الْإِبْرَءَمَ آمَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلٰٓئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ]، وقال: [وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ]*. فبين للناس أن حقيقة الملائكة وحقيقة صفاتهم متعالية عن طور العقل، ولا يعلمها أحد إلا الله، فلا تضربوا لله ولا لملائكته الأمثال وأتوه مسلمين. وأنت تعلم أن كل مسلم مؤمن يعتقد أن الله ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الآخر من الليل مع وجوده واستوائه على العرش، ولا

﴿ الفجر: 23 ﴾

﴿ البقرة: 178 ﴾ * المدّثر: 32 • الصافات: 165

يتوجّه إليه لو لم لائم ولا طعن طاعن لأجل هذه العقيدة، بل المسلمون قد اتفقوا عليها وما حاجّهم أحدٌ من المؤمنين. فكذلك الملائكة ينزلون إلى الأرض مع قرارهم وثباتهم في مقامات معلومة، وهذا سرٌّ من أسرار قدرته، ولولا الأسرار لما عُرف الرب القهار. ومقامات الملائكة في السماوات ثابتة لا ريب فيها كما قال Y حكاية عنهم: [وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ] • . وما نرى في القرآن آية تشير إلى أنهم يتركون مقاماتهم في وقت من الأوقات، بل القرآن يُشير إلى أنهم لا يتركون مقاماتهم التي ثبّتهم الله عليها، ومع ذلك ينزلون إلى الأرض ويُدركون أهلها بإذن الله تعالى، ويتبرزون في برزات كثيرة، فتارة يتمثلون للأنبياء في صور بني آدم، ومرة يتراءون كالنور، وكرة يراهم أهل الكشف كالأطفال وأخرى كالأمارد، ويخلق لهم الله في الأرض أجسادًا جديدة غير أجسادهم الأصلية بقدرته اللطيفة المحيطة، ومع ذلك تكون لهم أجساد في السماء، وهم لا يفارقون أجسادهم السماوية، ولا يبرحون مقاماتهم، ويحيئون الأنبياء وكل من أُرسِلوا إليه مع أنهم لا يتركون المقامات. وهذا سر من أسرار الله فلا تعجب منه، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير، فلا تكن من المكذبين.

وانظر إلى الملائكة.. كيف جعلهم الله كجوارحه، وجعلهم وسائط قدره في الأمور وَكُنْفَيْكُوتِيَّتِهِ* في كل أمر، ينفخون في الصور على

* لقد ورد في النص فوق هذه الكلمة الجملة التالية: "وهذا لفظ مركب من كن فيكون".
(الناشر)

مكانتهم، ويبلغون صيحتهم إلى من يشاءون، ولا يعجز أحد منهم عن أن يدرك كلَّ من في المشارق والمغرب في طرفة عين أو في أقل منها، ولا يشغله شأن عن شأن. فانظروا مثلاً إلى ملك الموت الذي وُكِّل بالناس.. كيف يقبض كل نفس في الوقت المقدر، وإن كان أحد من الذين يُتَوَقَّون في آن واحد في أقصى المشرق والآخر في منتهى بلاد المغرب. فلو كانت سلسلة هذا النظام الإلهي موقوفة على نقل خطوات الملائكة من السماء إلى الأرض، ثم من بلدة إلى بلدة، ومن مُلْكٍ إلى مُلْكٍ، لفسد هذا النظام الأمرى، ولتطرقَ حرج عظيم في أمور قضاء الله وقدره، ولَمَا كان للملِك عند انتقاله من مكان إلى مكان أن يأمن إضاعة الوقت وفوت الأمر المقصود، ولَوَرَدَ في وقت من الأوقات مورد العتاب، ولَأُزْهِقَ في يوم من الأيام بعثة رب الأرباب، لأجل ما فاتته فعلُ الأمر على وقته، ولَأُخِذَ بأنواع العقاب. وأنت تعلم أن شأن الملائكة منزَّه عن هذا، وهم يفعلون من غير مُكْثٍ، وفعلهم فعلُ الله من غير تفاوت، فتدبر ولا تكن من الغافلين.*

* ههنا سؤال ينشأ طبعاً في كل فهم سليم، وهو أن الملائكة.. هل يستطيعون أن يفعلوا ما أُمروا في مقدار وقت لا يكتفي ♦ لانتقالهم من مكان إلى مكان، بل يمضي قبل أن يقوموا من مقامهم أو لا؟ فإن قيل في جوابه أنهم يستطيعون، فالنزول عبث وداخل في تضييع الأوقات، بل هو من أماراة العجز، بل الحق إنه نوع من العصيان والغفلة، ومن غفل متعمدا فقد عصى. فإن قيل أنهم لا يستطيعون.. فهذا يوجب أن ينتظر الله تعالى مطلوبه إلى مدة نزول الملائكة إلى الأرض، ولا يخفى فساد هذا القول على العقلاء، فإن نقص الانتظار على الله مُحال، ولا يصح عليه أن يتطرق في إرادته حرجٌ وفي مشيئته توقُّفٌ، ويأتي

ثم تدبر.. نصرِكَ اللهُ ورزقك الإقبال على المعارف.. أن الملائكة أعظم جسما من كل ما في السماوات والأرض كما ثبت من النصوص القرآنية والحديثية، فلا شك أنه لو نزل أحد منهم إلى الأرض بجسمه العظيم القوي لغشي الأقاليم كلها، وأهلك أهلها، وما وسعته الأرض. فالحق أنهم ينزلون كنزول تمثلي، ولا تنزل أجسامهم الأصلية من السماوات، ولكن الله يخلق لهم أجسادا أخرى على الأرض بحيث تسعها الأرض، وتقتضيها المعدات الخارجية بقدر تدركه أبصار المبصرين. ففكر في قولنا هذا كما هو شرط الفكر ولا تعجل، بل تكلف للفهم لبنة، وانظر كلامي هذا بنظر الإنصاف كرامة، وتفتش حقيقة كلمتي مرة، واستمع عني نفثتي تارة، ثم لك الخيار من بعد، ويبدك القبول والرد.

وحاصل قولنا أن الملائكة قد حُلِقُوا حاملين للقدرة الأبدية الإلهية، منزّهين عن التعب واللعب والمشقة، ولا يجوز عليهم مشقة السفر وتعب طي المراحل، والوصول إلى المنازل والمقاصد بشق الأنفس

عليه زمان كالمُتَظَرِّين. فإن الوقت مقدار غير قارٍ، فلا شك أن وقت النزول غير جزء الذي كان هو وقت المقام وسماع الكلام من الله العلام، وأنت تعلم أنما أمره إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون. اتحسبون أن ملائكة الله كانوا أقل همة وقوة من صاحب سليمان الذي ما قام من مجلسه وما نُقِلَ إلى مكان وأتى بعرش بلقيس قبل أن يرتد طرف سليمان؟ فتدبر، والإشارة مكتفية للعاقِلين. منه.

=====

♦ يبدو أنه سهو، والصحيح: "يكفي". (الناشر)
 • يبدو أنه سهو، والصحيح: "كافية". (الناشر)

وصرف الأوقات، فإنهم بمنزلة جوارح الله لإتمام أغراضه بمجرد إرادته من غير مكث، فلو كان نزولهم وصعودهم على طرزي صعود الإنسان ونزوله، لاختل نظام ملكوت السماوات وفسد كل ما فيهما، ولعاد كل هذا النقص إلى الله الذي أقامهم مقامه في المهمات الربوبية والخالقية وغيرهما، فإنهم مدبرات أمره، والحافظون من لدنه على كل شيء، وإنما أمرهم إذا أرادوا شيئاً فيكون الشيء المقصود من غير توقف. فأتى ههنا السفر؟ وأين طي المراحل وترك المقامات والنزول إلى الأرض بصرف وقت؟ فلا ثمار في هذا ولا تستفت الذين اعتراهم جنون التعصب فكانوا بجنونهم محجوبين.

وقد ثبت من رسول الله ρ ما يؤيد قولنا هذا من عدم نزول الملائكة، كما جاء عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ρ : ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملكٌ ساجد أو قائم، وذلك قول الملائكة: [وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ] ^٥.

فاعلم.. رحمك الله.. أن هذا دليل قطعي على أن الملائكة لا يتركون مقاماتهم، وإلا فكيف يصح أن يُقال إنه لا يوجد في السماء موضع قدم إلا عليه ملكٌ؟ وكيف تبقى هذه الصورة عند نزول الملائكة إلى الأرض؟ ألا تعتقدون أن لجبرئيل جسمٌ ^٦ يملأ المشرق والمغرب؟ فإذا نزل جبرائيل بذلك الجسم العظيم إلى الأرض وبقيت السماء

٥ الصافات: 165

٦ سهو، والصحيح: "جسمًا". (الناشر)

خالية منه، فَفَكَّرَ في مقدارٍ خالٍ وتذكَّرَ حديثَ "موضع قدم"، وكن من المتندمين.

ثم إذا فكرت في سورة ليلة القدر فيكون لك ندامة وحسرة أزيد من هذا، فإن الله Y يقول في هذه السورة أن الملائكة والروح تنزلون* في تلك الليلة بإذن ربهم، ويمكنون في الأرض إلى مطلع الفجر، فإذا نزلت الملائكة كلهم في تلك الليلة إلى الأرض فلزم بناءً على اعتقادك أن تبقي السماء كلها خالية بعد نزولهم، وهذا كما تقدم في حديث "موضع قدم"، فلا تنقل قدمك إلى الضلالة البديهة وأنت تعلم أن الرشد قد تبين من الغي، ولن تستطيع أن تُخرج لنا حديثاً دالاً على أن السماء تبقى خالية بعد نزول الملائكة إلى الأرض، فلا تجترئ على الله ورسوله، ولا تقفُ ما ليس لك به علم فتقع ملوماً مخذولاً، وتدخل في الضالين.

إن الذين يطلبون سبل الله لا يُصِرُّون على ما قالوا أو فعلوا، وإذا رأوا أنهم قد ضلوا فرجعوا إلى الحق مستغفرين، هنالك ترى أعينهم تفيض من الدمع ربنا اغفر لنا إنّا كنا خاطئين، فيغفر لهم ربهم ويتوب عليهم رحمة وفضلاً، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

واعلم أن الله ورسوله، الذي أُوتِيَ جوامع الكلم، كثيراً ما يستعملان استعارات في الكلام، فيغلط فيها رجل لا ينظر حق النظر، والذي يفسرها قبل وقتها ويعتقد أنها محمولة على الظاهر وما هي محمولة

* سهو، والصحيح: "ينزلون". (الناشر)

عليه، ولكنه يُخطئ لدخله قبل وقت الدخول، فيصّر على خطئه أو تدركه عناية الله فيكون من المبصرين.

قد جرت عادة الله تعالى أنه قد يكون في أنبائه المستقبلية ومعارفه الدقيقة اللطيفة المزيّنة بالاستعارات أجزاءً تُبلى بها الناس، فالذين يكون في قلوبهم مرض فيزيدهم الله مرضاً بتلك الابتلاءات، فيستعجلون ويكذبون كلام الله.. أو يكذبون الذي رزقه الله علمه.. ظلمًا وعُلُوًّا ولا يتدبرون خائفين. ثم إذا ظهرت براءته وأنارت حجته، فيرجعون إليه متندمين، أو يموتون في هوة التعصب، ويستغني الله والله غني عن العالمين. وأما من أوتي فراصة من عند الله ونُور من لدنه، فيمهر في العلم الإلهي، ويعرف الحقيقة، وينظر بنور الله، ويرزقه الله إصابة المحفوظين.

ولنرجع إلى كلامنا الأول فنقول إن الله تبارك وتعالى قال في كتابه المحكم: [إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ^٥]، فلما كانت الملائكة حافضين لنفوس النجوم والشمس والقمر والأفلاك والعرش وكل ما في الأرض، لزم أن لا يفارقوا ما يحفظونه طرفة عين، فانظر كيف ظهر من هذا الأمر الحق، وبطل ما زعم الزاعمون من نزولهم وصعودهم بأجسامهم الأصلية. فلا مفر إلى سبيل من قبول دقيقة المعرفة التي كتبناها.. أعني أن الملائكة لا ينزلون بنزول حقيقي، ولا يرون وعشاء السفر، بل إذا أراد الله إراءتهم في الناسوت فيخلق لهم وجوداً تمثلياً في

الأرض، فتراهم العين التي تسرح في روضات الكشف. ولو لم يكن كذلك للزم أن يرى الملائكة الناس كلهم عند نزولهم إلى الأرض لقبض الأرواح وغيرها من المهمات، وللزم أن يرى مَلَك الموت مثلاً كلَّ من تُؤَيِّ أحدٌ من أقاربه ومن يُّأخيه ومن عشيرته وعقبه وقومه وأصدقائه أمام عينه، فإن جسم الملائكة جسم كأجسام أخرى، فلا وَجَهَ لعدم رؤيتهم مع نزولهم بأجسامهم الأصلية. وأنت تعلم أن خَلْقًا كثيرًا يموتون أمام أعيننا فلا نرى عند نزعهم وغمره موتهم الملائكة التي تَوَفَّتْهم، وما نسمع ما يسألون الموتى وما يكلمونهم. فالحق أن هذا الأمر وأمثاله من عالم المثال الذي ما أراد الله كَشَفَ كُنْهه على العقول والأعين. وأما نظائر عالم المثال فكثيرة ومنها نزول الملائكة، ومنها ما جاء في الأحاديث أن قبر المؤمن روضة من روضات الجنة أو حفرة من حفر النار، ومنها ما جاء في بعض الأحاديث أن الله يكشف لمؤمن غرفة إلى الجنة في قبره، ويكشف لكافر غرفة إلى جهنم، ولكننا ربما ننزور القبور أو نحفر أرضها فلا نرى غرفة إلى الجنة أو إلى جهنم، ولا نرى فيها شجرة واحدة فضلاً عن الروضات، ولا جمرة من النار فضلاً عن النيران الموقدة المحرقة، ولا نرى هناك ميثاقاً قاعداً عائشاً بعد الموت، كما أخبر عن قعود الموتى وحياتهم عند السؤال والجواب، بل نرى ميثاقاً مُكَفَّنًا قد أكلت الأرض لحمه وكفنه. وقد جاء في الأحاديث أن الشهداء يُرْزَقون من ثمرة الجنات وألبانها وشرابها الطهور، ولكننا لا نرى في قبورهم.. التي هي روضة من روضات الجنة.. من ثمرة أو ربحان أو

من قدح لبن أو كأس خمر. وربما لا ندفن الموتى إلى أيام فلا نرى مجيء الملائكة عندهم ولا ذهابهم. وقد أخبر الله تعالى في كتابه أن الملائكة يضربون وجوه الكفار، ولكننا لا نرى ملكًا ضاربًا ولا أثر الضرب، ولا نسمع صراخ المضروبين. وقد جاء في بعض الأحاديث أن الطفل الرضيع إذا مات قبل تكميل أيام الرضاعة فتم أيامها في القبر، ولكننا لا نرى مُرضعًا قاعدة في القبر، ولا طفلًا يمصّ لبنها. وقد جاء في بعض الآثار أن قبر المؤمن يُوسَّع عليه بمقدار كذا وكذا، ولكننا لا نرى أثرًا من ذلك التوسيع، بل نراه كقبر كافر من غير تفاؤُت سعة وضيق، فكيف ندعي الحقيقة ولا نرى آثارها؟ وكذلك قيل إن الشهداء أحياء يأكلون ويشربون ولكننا لا نرى أنهم لاقوا الناس كالأحياء ووثبوا من قبورهم ورجعوا إلى دورهم. فلو كانت هذه الأمور - أعني نزول الملائكة، وتوسيع قبور المؤمنين ووجود الجنات فيها، وقعود الموتى في القبور أحياء، وغيرها التي يوجد ذكرها في القرآن والأحاديث - من الأمور الحقيقية الحسيّة التي هي من هذا العالم لا من عالم المثال.. لرأيناه كما نرى أشياء أخرى التي توجد في هذه الدنيا. وأنت تعلم أن أحدًا منّا لا يرى هذه الوقعات بعين يرى بها أشياء هذا العالم، فإنّا نرى أشجار هذا العالم وبساتينها عن بعيد، ونرى ثمراتها معلقة بأغصانها، ولكننا إذا كشفنا قبر شهيد من الشهداء فلا نجد فيها أثرًا منها، وقد آمنّا بأن قبورهم أُودِعَت لفائف النعيم، وضُيِّخت بالطيب العميم، وسيقّ إليها شربٌ من تسنيم، وأريج نسيم، وفيها روضة من

روضات الجنة، وكأس من كأس اللبن والخمر، ولكنا ما شاهدنا شيئاً منها بأعيننا، ولا تحسسنه بحاسة أخرى، فلم نجد بُدّاً من تأويل، فقلنا إن هذه الأمور كلها.. أعنى نزول الملائكة ونزول الجنة وغيرها.. متشابهة يشابه بعضها بعضاً، ولا شك أن لها حقيقة واحدة من غير اختلاف وتفاوت، ولا شك أن هذه الوقائع كلها منسلكة في سلك واحد. فتبصّر تسترخّ من سهام المعترضين، ولا تركزْ إلى الذين ظلموا واكتسوا ثوب الذل والخطأ بعدما تبين الرشد من الغي، واتبع قولاً قد انكشف كل الانكشاف ومزّق رقعة تقليد الجهلاء شذّر مَذَر، ولا تبالِ أَعْدَلْ أحدٌ أو عَدَر، وكُنْ من الذين يقومون لله قانتين.

ولا بد لك أن تؤمن وتعتقد أن نزول الملائكة، وحياة الموتى في قبورهم، وقعودهم في أجداثهم، ووجود الجنة والسعير فيها، ليس من واقعات هذا العالم ولا من مدركات هذه الحواس، بل هي من عالم آخر، ولا ينبغي لأحد أن يحملها على واقعات هذا العالم، أو يقيس عليه حقائق تلك ◈ العالم، بل هي أمور متعالية عن طور هذا العالم ومُدركاته، ولا يعلم كُنْهها إلا الله. فلا تضرب لها الأمثال ولا تكن من المعتدين.

وأنت تعلم أن الله تعالى ما قال في كتابه إن الملائكة يشابهون الناس في صعودهم ونزولهم، بل أشار في كثير من مقامات كتابه المحكم إلى أن نزول الملائكة وصعودهم كنزوله تعالى وصعوده. ولا يخفى

عليك أن الله تعالى ينزل في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا، فلا يقال إن العرش يبقى خاليًا عند نزوله. وكذلك أشار الله في كتابه إلى نزوله في ظلل من الغمام مع الملائكة المقربين، فإذا حل الله الأرض مع جميع ملائكته.. فإن كان هذا النزول كنزول الأجسام فلا بد لك أن تعتقد أن العرش والسموات تبقى خالية يومئذ.. ليس فيها الرحمن ولا ملائكته. فَادْكِرْ إن كنت من المدكرين، وأحسنِ النظر إلى ما قلنا، واستعدّ لقبول المعارف إن كنت من الطالبين.

أفتظن أن السماء لا تبقى على حالة واحدة.. فقد تكون مملوءة من الملائكة.. مكتظة بحفلهم، وقد تكون كمواضع خالية ليس أحد فيها؟ فإن كنت تصدّق هذه العقيدة الباطلة وتصرّ على نزول الملائكة بأجسامهم، فعليك أن تثبتها من النصوص القرآنية أو الحديثية كما ادعيتهَا أو تتوب كرجال متقين.

وقد جاء في بعض الأحاديث أن جبرائيل ٧ مكث على الأرض مع عيسى ٧ إلى ثلاثين سنة ما فارقه في وقت، وجاء في أحاديث أخرى أنه لا يلقى الوحي إلا حال كونه في السماء، ويلقى الوحي من لدن ربّه ثم يُطْلَع عليه آخرين. فهذه مصيبة أخرى عليك، ولن تقدر على تطبيق هذه الأحاديث وتوفيقيها.

وربما يحتلج في قلبك وهمٌ وتقول إني لست قائلًا بخلوّ السموات بعد نزول الملائكة. فيقال لك إنك تنسى عقيدتك؛ ألسنت تعتقد أن الملائكة ينزلون بنزول حقيقي؟ فلزمك من هذا أن تقول إنهم ينزلون

بأجسامهم الأصلية، وأنت تعلم أن نزولهم بأجسامهم الأصلية يستلزم حُلُولَ السماوات بعد النزول. وإن كنت تعتقد أن الملائكة لا ينزلون بأجسامهم الأصلية بل يخلق الله لهم في الأرض أجساماً أخرى التي لا تُدرك ولا تُرى، فهذا هو مذهبنا. ولكنك إذا أصرت على نزولهم بأجسامهم الأصلية فهذا قول يُخالف القرآن العظيم، لأن القرآن يُدخل وجودَ الملائكة في الإيمانيات، ويجعل لهم مقامات معلومة في السماء.. أعني المقامات التي أقامهم الله عليها، ولا يذكر أنهم يتكون مقاماتهم في حين من الأحيان. وأما ذكر نزولهم فهو كذكر نزول الله، لا تفاوتَ بينهما، فمنهم الصافُّون، ومنهم المسبِّحون، ومنهم الراكعون ومنهم الساجدون، ومنهم القائمون كما أشار إليه القرآن، وليس أحد منهم قاعداً كالفارغين. فإذا نزل أحد منهم بجسمه العنصري.. فلزم أن يترك مقامه خالياً ويخرج من صقّه، ويبعد عن مقام تسيحه أو ركوعه أو سجدته الذي أقامه الله عليه، وينزل إلى الأرض كالمسافرين، وما نرى في القرآن أثراً من هذا التعليم، بل جعل الله نزول الملائكة كنزول نفسه، وجعل مجيئهم كمجيء ذاته. ألا تنظر إلى هذه الآية.. أعني قوله تعالى: [وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا]، وقوله Y: [هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ] * . وههنا نكتة أخرى.. وهي أن الله إذا نزل إلى الأرض مع ملائكته فلا بد من أن ينزل الملائكة كلهم، فإن

الملائكة جند الله فلا يجوز أن يتخلف أحد منهم عند نزول رب العرش إلى الأرض، فإذا تقرر هذا فيلزم منه أن تبقى كل سماء من العرش إلى السماء الدنيا خالية عند نزول الله تعالى على الأرض، ليس فيها رب رحيم رب العرش ولا ملكٌ من الملائكة، واللازم باطل فالملزوم مثله كما لا يخفى على المتفكرين.

ثم إذا فرضنا أن في الأرض مثلاً مئة ألف من الأنبياء، بعضهم في المشرق وبعضهم في المغرب، وبعضهم في نواحي الجنوب وبعضهم في أقصى بلاد الشمال، وأمر الله تعالى لجبرائيل أن يُوحى إليهم كلهم في آن واحد لا يتأخر منه أحد ولا يتقدم؛ أو إذا فرضنا أن الله أمر ملك الموت أن يتوفى مئة ألف من الرجال الذين بعضهم في المشرق وبعضهم في المغرب في طرفة عين، لا يقدم ولا يؤخر، فما ظنك أن جبرائيل أو ملك الموت يعجز عن ذلك أو يقدر على إتمام أمر المغرب مع كونه في المشرق، فإن كان قادراً، فكذلك يقدر أن لا ينزل من السماء ويفعل كل ما يشاء كالنازليين.

ومثل آخر نستفسرك جوابه.. وهو أن ملك الموت حلّ بلدة عظيمة من البلاد المشرقية في أيام الوباء ليقبض أرواح سكان تلك البلدة، فاشتدت الضرورة لقيامه فيها إلى الشهرين بما كثرت فيها واقعات الموت مسلسلّة متواترة، وما فرغ من قبض نفس إلا وجاء وقت قبض نفس أخرى، فحبسه هذه السلسلة المتواليه المتتابعة فيها، وما كان أن يتحاماها قبل أن يتوفى أهلها، فمكث فيها إلى أن تمادى

المقام وامتدت الأيام إلى شهرين، فما بال قوم قد جاء أجلهم في تلك الأيام في البلاد المغربية، وما قدر ملك الموت على أن يصلهم على وقتهم، أ هم يموتون من غير أن يحضرهم قابض الأرواح أو تطيش سهام مناياهم؟ بئنا إن كنتم صادقين.

لا يُقال إن ملك الموت قادر على أن يقبض نفوس المغريين مع كونه مقيما في المشرق.. لأننا نقول إنه لو كان قادرا على مثل تلك الأفعال لما اضطر إلى النزول من السماء وما كان محتاجا إلى سير الأرضين.

وإذا قبلتم وسلمتم أن ملكا من الملائكة يتصرف على كل وجه الأرض مع كونه في بلدة من البلاد، ولا يشغله شأن عن شأن، ويتوفى المشرقي في المشرق مع كونه في المغرب، فأى حرج في ذلك أن تقول إن الملائكة مع كونهم في السماء يتصرفون في الأرض بإذن الله تعالى. فأى ضرورة اشتدت لنزولهم مع كونهم قادرين على أن يتصرفوا في سكان مكان مع كونهم في مكان آخر من الأرضين؟

وإن كنت تطلب منا من مثل ينكشف به عليك مذهبنا فاعلم أنه أمرٌ أرفع وأبعد عن ضرب الأمثال، وقد يقال تقريبا لا تحقيقا. إن مثل نزول الملائكة إلى الأرض كمثال نجوم السماء.. تنطبع أشكالها في البحار والأنهار والحياض والمرايا التي قابلتها، والحق أن أمر النزول أمر متعالٍ عن طور العقل وضرب الأمثال، وإن هو إلا خلق جديد من القادر الذي هو بكل خلقٍ عليمٌ، ولا تدرك الأبصار كنه حِكْمِهِ

وكوائف أسرارهِ. فتشبيه نزول الملائكة بنزول الناس حمقٌ وضلالة، والإنكار منه إلحادٌ وزندقة، وقبول معنى يليق بشأن الملائكة الذين هم كجوارح الله معرفةً تامة وصراط مستقيم، رزقها الله لنا ولجميع عباده الصالحين.

وهذا من أحسن العبارات عن معنى النزول الذي تشابه على أكثر الناس، فخذها مني شاكرًا، فإنها من علوم نفتها الله في روعي وشرح بها صدري، وإنها هي السكينة التي تنطق على لسان المحدثين حين يحتاج الخلق إلى إزالة أوهامهم، فتفكر ولا تحذ منه إن كنت تطلب سبل اليقين. وقد جعلني الله إمامًا لحل تلك الغوامض، وإن كانت طبعتي تأبى الإمامة وتأنف منها، ولكنه فعل كذلك فضلًا من لدنه ليحسن إلى من كذب ولعن وكفر، ويحسن إلى خلقه، وليري الأعداء أنهم كانوا كاذبين مخدوعين، وليرزق أبناء الزمان علومًا اقتضت طبائعهم كشفها، والله يفعل ما يشاء، ما كان للناس أن يسألوه عما فعل وهم من المسؤولين.

ووالذي نفسي بيده.. إنه نظر إليّ فقبلني، وأحسن إليّ ورباني، وأعطاني من لدنه فهما سليما وعقلا مستقيما. وكم من نور قذف في قلبي، فعرفت من القرآن ما لم يعرف غيري، ودركت ♦ منه ما لا يدرك مخالفني، ووصلت في فهمه إلى مرتبة تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، وإن هذا إلا إحسانه وهو خير المحسنين.

♦ سهو، والصحيح: "أدركت". (الناشر)

ومن اعتراضاتهم أنهم إذا قرأوا كتابي "التوضيح"، ووجدوا فيه مكتوبا أن للشمس والقمر والنجوم تأثيرات يُريّ الله بها كل ما يوجد في الأرضين.. فاعترضوا عليّ وقالوا إن هذه العقيدة عقيدة فاسدة تخالف ما جاء في الأحاديث. فيا حسرة عليهم! إنهم ما فهموا معنى الأحاديث، وما فهموا معنى قولي، وقاموا مستعجلين ظانّين ظن السوء، وما استفسروا معنى كلماتي مني كدأب أهل الصلاح، بل امتلأوا غضبًا وغيظًا، وردّوا عليّ وكفروني وأطالوا الألسنة، وقلّلوا الإنظار وأزوا خبثهم وهتارهم، وما هتكوا إلا أستارهم، وما كانوا على جهلهم متنبهين.

فاعلموا يا أولي الأبصار الرامقة والبصائر الرائقة، أنّا ما كتبنا في كتاب شيئا يُخالف النصوص القرآنية أو الحديثية، وما تفوّهنا به يوما من الدهر، وقد أعادنا الله من مثل ذلك، ولكنهم يعترضون قبل أن يفهموا، ويحسبوننا ضالين قبل أن يكونوا مهتدين. والله يعلم.. ونُشهد الثّقَلَيْنِ.. أنّا لا نعتقد أن أحدا من الشمس والقمر والنجوم فاعل مستقل في فعله ومؤثر بذاته، أو له اختيار في إفاضة التأثيرات أو له دخلٌ إراديّ في إيصال الأنوار وإنزال الأمطار وتربية الأبدان والأجسام والثمرات. ولا نعتقد أن أحدا من تلك الأجرام النورانية يستحق الحمد والشكر والعبادة على إفاضته، أو له مِنّة وإحسان على أهل الأرض مثقال ذرّة، أو هو يسمع دعاء الناس ويرضى عن الحامدين. ومن عزا

إلينا أمرًا من هذه الأمور فقد ظلمنا، والله يعلم أنه مفترٍ كذاب،
وُجَاهِرٌ بِالْقِحَّةِ وَالْفِرْيَةِ، وَيَتَّبِعُ سَبِيلَ الْخَادِعِينَ.

بل نؤمن ونعتقد أن الله أحد صمد، لا شريك له في ذاته ولا في
جميع صفاته، لا في السماوات ولا في الأرضين. ومن أشرك بالله شيئًا
من أشياء السماء أو الأرض فهو كافر مرتد عندنا، ومُفَارِقٌ لِدِينِ
الإسلام، وداخل في المشركين.

ومع ذلك إِنَّا نعتقد أن خواص الأشياء حق، وفيها تأثيرات بإذن
العليم الحكيم الذي ما خلق شيئًا باطلا، ونرى أن في كل شيء
خاصية وأثرًا أودعه الله، حتى البعوضة والذباب والقمل والدود وما
دونها، فكيف نظن أن خلق الشمس والقمر والنجوم هي أدنى من
هذه الأشياء وما في طبائعها من خاصة ونفع للناس، وإنما هي باطلة
الحقيقة، وخلقها الله كأشياء ♦ عبثٍ وردٍ ما أودعها الله منفعةً
عظيمة لعباده إلا القليل الذي يقوم مقامه كثير من الأشياء، كما أنت
تزعم في خلق النجوم وتقول إنها علامات هادية للمسافرين. وأنت
تعلم أن الناس قد صنعوا وعملوا لأنفسهم لأسفار برّهم وبحرهم طرقا
أخرى أغنتهم عن النجوم، بل ما بقي لهم حاجة إلى هذه العلامات
أصلا. ثم إذا أنصفت فوجب عليك أن تقول إن الناس لا يحتاجون
إلى النجوم كلها ليتخذوها علامات عند أسفارهم إلا إلى كواكب
معدودة، وأما النجوم التي كثرت عدتها في السماء حتى إنكم لا

♦ سهو، والصحيح: "كشيء". (الناشر)

تستطيعون أن تعدّوها.. فأَيّ حاجة للمسافرين إليها؟ يَبْنُوا تُؤَجِّروا إن كنتم لدعواكم مَبِينين، وإن لم تَبِينُوا.. ولن تَبِينُوا.. فاتقوا الله الذي لا يُحب المبطلين.

وكيف تظن أن الله خلق النجوم باطلة الحقيقة وما خلق فيها تأثيرات عجيبة؟ وإنا نرى خواصا وتأثيرات في أدنى مخلوقاته.. وكيف نعتقد أن الله الذي وشّح تلك الأجرام بالأنوار الظاهرة، وزيّنها بالصور المنيرة المشرقة المعجبة، لم يلتفت إلى أن يُودع بواطنها أنوارا أخرى.. أعني تأثيرات مما ينفع الناس؟ وقد سحّر الشمس والقمر والنجوم للناس، وأشار إلى أن كل ◆ منها حُلِق لمصالح العباد، وإلى أن وجود تلك الأجرام من أعظم إحساناته وتفضلاته. وإنه لم يذكر تأثيرات بعض الأشياء في كتابه المحكم وأنها قد ثبتت عند أولي التجارب، فما لنا أن لا نقر بتأثيرات أشياء قد ذكرها الله تعالى في القرآن العظيم، بل فضّلها على أكثر النعماء وحث عباده على أن يُفكِّروا في خلق السماوات والأرض وآياتها وقال: [إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ●]. والحق أن تأثيرات الشمس والقمر والنجوم شيء يراه الخلق في كل وقت وحين، ولا سبيل إلى إنكارها. مثلا اختلاف الفصول وطبائعها، وخصوصية كل فصل بأمراض مخصوصة ونباتات معروفة وحشرات مشهورة.. شيء تعرفه فلا

◆ سهو، والصحيح: "مُكَلَّلٌ". (الناشر)

حاجة إلى تفصيلها. وأنت تعلم أنه إذا طلعت الشمس وفاضت الأنوار فلا شك لهذا الوقت تأثير في النباتات والجمادات والحيوانات، ثم إذا هرم النهار وكاد جُرْفُ اليوم ينهار، ففي ذلك الوقت تأثيرات أخرى. والحاصل أن لبعد الشمس وقربها أثرا جليا وتأثيرات قوية في الأشجار والأثمار والأحجار وأمزجة بني آدم، ولا بد من أن نقرّ بها وإلا فأين نفرّ من علوم حسّية بديهة ثابتة عند كل قوم. وكم من خواص القمر يعلمها الدهاقين وأرباب الفلاحة، فيا حسرة على الذين يقولون إنّنا نحن العلماء ثم يتكلمون كأرذل الجاهلين.

وقد اتفق الحكماء على أن أعدل أصناف الناس سگان خط الاستواء، وما هذا إلا لتأثير خاص يكون سببا لكمال صحتهم وزيادة فهمهم وحزمهم. ولا شك أن هذا من العلوم الحسّية البديهة المرئية، ولا يُعرض عنه إلا الذي لا يحظى بسراج الحجة ويزيغ عن المحجّة، فتعسّا للمعرضين. وقد تقرر في ديننا أن بعض الأوقات مباركة مُجّاب فيها الدعوات، وتُسمع فيها التضرّعات.. كليلة القدر وثُلث الأخير من الليل. وقال المحققون إن في الأوقات التي عُيّنَت للصلاة بركات مخفية فلذلك خصّها الله للعبادات، فمن حافظ عليها وقضى كل صلاة بحضور القلب في وقتها فلا شك أنه يُعطى بركاتها ويُصيّبه حظ منها، وينال سعادة مطلوبة ويُنجّى من بئس القرين. فتأمل هذا الموضع حق التأمل فإنه موضع عظيم. ومن جدّ في الطلب وجاهد فتقارنه

العناية والتوفيق والاجتباء، ويعصمه الله من الخذلان، ويجعله من الموفقين.

وإذا عرفت هذا.. فإن كنت ذا قلب سليم فقد عرفت الحقيقة، وزالت عنك شكوك كثيرة وشبهات في هذا الباب، وانجابت غشاوة الاسترابة، وبانت أمانة الحق، وكُشف عنك العُمى، وهُديت إلى نور اليقين. وإن كنت لا يكفيك هذا، وتجد في نفسك طلب الزيادة في الإيضاح والإفصاح، فاعلم أن القرآن قد صرّح بهذا في غير موضع، كقوله Y: [فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا*]، وكقوله: [يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ] *، وكقوله: [يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ] *، فهذه الآيات كلها تدل على أن الله الحكيم العليم الرحيم الكريم المتفضل خلق السماوات والأرض كذکرٍ وأنثى، واقتضت حكمته أن يجمعهما من حيث الفعل والانفعال، ويجعل بعضهما مؤثرا في بعض، وهذا معنى قوله: [فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا]. ففكر في هذه الآية حق الفكر، ولا تفرط في جنب الله، وقم لكسب الحسنات وتلافي الهفوات قبل الوفاة، ولا تكن من الغافلين.

ثم انظر أنه تعالى قال في مقام آخر: [قَدْ أُنْزِلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا] *، وقال: [وَأُنْزِلْنَا الْحَدِيدَ] *، [وَأُنْزِلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ] *، ومعلوم

© حم السجدة: 12-13 * الطلاق: 13 * السجدة: 6

★ الأعراف: 27 * الحديد: 26 * الزمر: 7

أن هذه الأشياء لا تنزل من السماء، فما عزاها الله إليها إلا إشارةً إلى أن العلة الأولى من العلل التي قدّر الله تعالى لخلق تلك الأشياء وتولّدها وتكوّنها تأثيراتٌ فلكية وشمسية وقمرية ونجومية، وأشار Y في هذه الآيات إلى أن الأرض كامرأة والسماء كبعليها، ولا تتمُّ فعل إحداها إلا بالأخرى، فزوَّجهما حكمةً من عنده وكان الله عليهما حكيماً.

فندبّر في هذه الآيات بنظر عميق وكرّر النظر فيها، واعلم أن هذا الموضوع من أجلّ المواضيع لمن حقّقه وفهمه ونظره بدقة النظر. ويؤيد هذه الآيات قوله تعالى: [فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ *]. وأنت تفهم أن في هذا القول إشارةً إلى أن للنجوم ومواقعها دخلٌ ⑥ لتحسُّسِ زمان النبوة ونزول الوحي، ولأجل ذلك قيل إن بعض النجوم لا يطلع إلا في وقت ظهور نبي من الأنبياء. فطوبى للذي يفهم إشارات الله ثم يقبلها كالتقاة، ولا يصول كالذي هو خليع الرسن ومديد الوسن ومن العصاة ومن المتكبرين.

وإن كنت ما سمعت من قبل بيانا واضحا كمثل بياننا هذا.. فلا تعجب من ذلك، فإن لكل موطن رجال *، ولكل وقت مقال *، وإن

① سهو، والصحيح: "يتم". (الناشر)

② الواقعة: 76

③ سهو، والصحيح: "دخلاً". (الناشر)

* سهو، والصحيح: "رجالا" و "مقالا". (الناشر)

الله لا يُنزل دقائق المعارف ولا يبسطها كل البسط إلا في وقت ضرورتها. وكم من لطائف ونكات تخفى من أهل زمان ثم يأتي وقت إظهارها في زمان آخر، فيبعث الله مجددا في ذلك الوقت، وينطق محدثُ الوقت بتلك النكات، فيفصل مجملاتٍ اقتضت حالة الزمان تفصيلها، وتلقى على لسانه معارفُ كتابِ الله التي قد جاء وقتُ تبينها، فيبينها للناس على وجه البصيرة بجأشٍ متين. فيقبله الذي ركن من الدنيا إلى الله، ويُعرض عنه الجاهل لغباوته وغلبة شقاوته، فاتق الله وكن من الصالحين.

واعلم أن كثيرا من العلماء الراسخين ذهبوا إلى ما ذهبنا في تفسير هذه الآيات المتقدمة، وكانوا يعتقدون أن في الشمس والقمر والنجوم تأثيرات خلقها الله لمصالح عباده، كما قال الرازي في تفسيره الكبير وهو هذا:

"فإن الشمس سلطان النهار، والقمر سلطان الليل، ولولا الشمس لما حصلت الفصول الأربعة، ولولاها لاختلفت مصالح العالم بالكلية. وقد ذكرنا منافع الشمس والقمر بالاستقصاء في أول هذا الكتاب".
تم كلامه، فتفكر فيه ولا تمر بها كالنائمين.

وقال صاحب "حجة الله البالغة":

"أما الأنواء والنجوم فلا يبعد أن يكون لهما حقيقة، فإن الشرع إنما أتى بالنهي عن الاشتغال به لا نفي الحقيقة البتة. وإنما توارث من السلف الصالح ترك الاشتغال به وذم المشتغلين وعدم القبول بتلك

التأثيرات لا القولُ بالعدم أصلاً. وإن منها ما يلحق البديهة الأولى
 كاختلاف الفصول باختلاف أحوال الشمس والقمر ونحو ذلك،
 ومنها ما يدل عليه الحدس والتجربة والرصد.. كمثل ما تدل هذه على
 حرارة الزنجبيل وبرودة الكافور. ولا يبعد أن يكون تأثيرها على
 وجهين.. وجهٌ يُشبه الطبايع، فكما أن لكل نوع طبايع مختصة به من
 الحر والبرد واليبوسة والرطوبة، بها يتمسك في دفع الأمراض.. فكذلك
 للأفلاك والكواكب طبايع وخواص كحر الشمس ورطوبة القمر، فإذا
 جاء ذلك الكوكب في محله ظهرت قوّته في الأرض. ألا تعلم أن المرارة
 إنما اختصّت بعادات النساء وأخلاقهن بشيء يرجع إلى طبيعتها..
 وإن خفي إدراكها، والرجل إنما اختص بالجرأة والجهورية ونحوهما لمعنى
 في مزاجه، فلا تنكر أن يكون لحلول قوى الزهرة والمريخ بالأرض أثر
 كأثر هذه الطبايع الخفية. وثانيهما.. وجهٌ يُشبه قوةً روحانية مشتركة
 مع الطبيعة، وذلك مثل قوة نفسانية في الجنين من قبل أمه وأبيه.
 والمواليد بالنسبة إلى السماوات والأرضين كالجنين بالنسبة إلى أبيه
 وأمه، فتلك القوة تُهيئ العالم لفيضان صورة حيوانية ثم إنسانية. ولحلول
 تلك القوى بحسب الاتصالات الفلكية أنواع، ولكل نوع خواص،
 فأمعن قوم في هذا العلم فحصل لهم علم النجوم.. يتعرفون به الوقائع
 الآتية. غير أن القضاء إذا انعقد على خلافه جعل قوة الكواكب

متصورةً بصورة أخرى قريبة من تلك الصورة، وأتم الله قضاءه من غير أن ينخرم نظام الكواكب في خواصها".^٥

تمّ كلامه، رحمه الله.

فانظر أيها العزيز.. كان الله معك.. إن هذا القائل بتأثير النجوم عالم ربّاني من علماء الهند، وكان هو مجدد زمانه، وفضائله متبينة في هذه الديار، وهو إمام في أعين الكبار والصغار، ولا يختلف في علو

• هناك بعض الاختلاف في النص الأصلي والمقتبس، لذا نورد فيما يلي النص المذكور من "حجة الله البالغة": "أما الأنواء والنجوم فلا يبعد أن يكون لهما حقيقة ما، فإن الشرع إنما أتى بالنهي عن الاشتغال به لا نفسي الحقيقة البتة. وإنما توارث السلف الصالح ترك الاشتغال به وذهم المشتغلين وعدم القبول بتلك التأثيرات، لا القول بالعدم أصلاً. وإنّ منها ما يلحق البديهيّات الأولى كاختلاف الفصول باختلاف أحوال الشمس والقمر ونحو ذلك، ومنها ما يدل عليه الحدس والتجربة والرصد.. كمثّل ما تدل هذه على حرارة الزنجبيل وبرودة الكافور. ولا يبعد أن يكون تأثيرها على وجهين.. وجه يُشبه الطبائع، فكما أن لكل نوع طبائع مختصة به من الحر والبرد واليبوسة والرطوبة، بما يتمسك في دفع الأمراض، فكذلك للأفلاك والكواكب طبائع وخواص كحر الشمس ورطوبة القمر، فإذا جاء ذلك الكوكب في محله ظهرت قوّته في الأرض. ألا تعلم أن المرأة إنما اختصت بعبادات النساء وأخلاقهنّ لشيء يرجع إلى طبيعتها.. وإن خفي إدراكها، والرجل إنما اختص بالجرأة والجهورية ونحوهما لمعنى في مزاجه، فلا تُنكر أن يكون لحلول قوى الزهرة والمريخ بالأرض أثر كأثر هذه الطبائع الخفية. وثانيهما.. وجه يُشبه قوّة روحانية متراكبة مع الطبيعة، وذلك مثل قوة نفسانية في الجنين من قبل أمّه وأبيه. والموليد بالنسبة إلى السماوات والأرضين كالجنين بالنسبة إلى أبيه وأمّه، فتلك القوة تُهيئ العالم لفيضان صورة حيوانية ثم إنسانية. ولحلول تلك القوى بحسب الاتصالات الفلكية أنواع، ولكل نوع خواص، فأمعن قوم في هذا العلم فحصل لهم علم النجوم.. يتعرّفون به الوقائع الآتية، غير أن القضاء إذا انعقد على خلافه جعل قوّة الكوكب متصورةً بصورة أخرى قريبة من تلك الصورة، وأتم الله قضاءه من غير أن ينخرم نظام الكواكب في خواصها." (الناشر)

شأنه أحد من المؤمنين. فويل للذين يطيلون لُسْنَهُم لتكفير المسلمين كالوُفَاح المتسلطة، ولا يتفكرون في كلمات أتمتتهم، ويريدون أن يزيدوا الكفار ويُقلّلوا أهل الإسلام، ويريدون أن يُلقُوا الأُمَّةَ في فتنة صمّاء يكفر بعضهم بعضاً، ويبيعون الإيمان لفضالة المأكّل وثمالة المنهل، ويسقطون كالذباب على قَيْحٍ ومُخاطٍ وبُراز الناس، ويتركون وَرْدًا وريحانة ومسكا وعنبرا وأنهار ماءٍ مَعِين.

ثم اعلم أن الفاضل الذي كتبنا قليلا من كلامه قال في "فيوض الحرمين" أزيد من هذا، فلندكّر قليلا من عباراته التي فيها بيان تأثير النجوم والأفلاك، وهي هذه:

"ربما لم يكن الرجل شريفا في الأصل، ولكنه وُلِدَ في زمان تقضي الاتصالاتُ الفلكية يومئذ نباهةً نسبه. وأرى أن ذلك بنوع امتزاج زُحل مع الشمس والمشتري، بحيث يكون الزحل مرآةً ونورَ الشمس والمشتري منعكسًا فيه، فحينئذ يكون.. والله أعلم.. براعة النسب والنباهة من أجله. ويكون ذلك الاتصال بحيث ينحفظ في صورته المفاضة حُكْمُ هذا الاتصال كما ينحفظ في الأولاد أشكال الوالدين وتخطيطهما، وهذا الرجل ليس له شرفٌ موروث."

ثم قال في مقام آخر من كتابه "الفيوض":

"هاك ما فهمني ربي.. أنه يجيء من مدد السماء الأولى نُقُولٌ وتوسّطاتٌ وزيّ، ومن السماء الثانية قواعدٌ منضبطة، فتُكْتَبُ وتُسَطَّرُ وتُعَلَّمُ وتُؤَثَّرُ كابرا عن كابر، وتُوقَرُ بها الصدور وتُمَلَأُ به الصحف، ومن

السماء الثالثة لون طبيعي، فتصير طبيعته وتميل إليه الطبائع وتهيج لها حمية منهم فيحمونها وينصرونها ويناضلون دونهما، ويجبونها كحب الأموال والأولاد والأنفس. ومن السماء الرابعة غلبة وقوة وتسخير، فيكون مسحراً لها أكابر الناس وأصاغرهم، علماؤهم وأمرأؤهم، ومن السماء الخامسة نكاية وشدة، فلن ترى منكرا لها إلا وقد امُتحن بالحن، وابتلي بالبلايا ولعن وعوقب كأن من الغيب ناصر لها. ومن السماء السادسة هداية معظمة، فيكون سببا لاهتدائهم ومثابة للناس إلى كما لهم. ومن السابعة الشرف الدائم الذي كاندب في الحجر لا يزال حتى تُمَزَّع أوصاله وتُقَطَّع أجزاؤه. فهذه أركان سبعة نلت في الملاء الأعلى، فيكون جسداً مسوياً فيهم، فينفخ من التدلي الأعظم جذب فيها بمنزلة الروح في الجسد، فمن تلبس بتلك الأذكار والأفكار، وتزيّن بذلك الزيّ شملته الرحمة الإلهية، وأتاه الجذب من فوقه ومن تحته ويمينه وشماله ومن حيث لا يحتسب. ثم يربي هذا الطفل سادات الملاء الأعلى، ويخدمه الملاء السافل، فلا يزال يتقرر أمره ويزداد شأنه، حتى يأتي أمر الله على ذلك. فهذه هي الطريقة، وقس عليه المذهب في الفروع والأصول. فكل من ادعى أن الله تعالى أعطى طريقة أو مذهبا ولم يكن الذي أُعطي كما وصفنا فقد عجز عن معرفة الأمر على ما هو عليه. ثم ليس كل أحد يُقضى له بالطريقة، وليس عند الله جزاف ولا تخمين في شيء من الأشياء، بل إنما يعطي من جبل مباركاً زكياً فيه إمداد الأفلاك السبعة والملاء الأعلى والسافل، وله رحمة خاصة من

التدلي الأعظم. وكم من عارف عظيم المعرفة أو فانٍ باقٍ شديد الفناء
 سابغ البقاء ليس بمبارك وزكيّ فلا يُعطاهَا. وكذلك لا يتعاطى حفظها
 كل أحد، بل لكل أمر رجلٌ خُلِقَ له ويُسرَّتْ جَبَلَةٌ لذلك. وأما صورةُ
 ظهورها فنشأة أخرى وراء النشأة المتعارفة حقيقتها بركة فائضة في
 الأعراض والأفعال. ♦

♦ هناك بعض الاختلاف في النص الأصلي والمقتبس، لذا نورد فيما يلي النص المذكور من
 "فيوض الحرمين": "ربما لم يكن الرجل شريفاً في الأصل، ولكنه وُلِدَ في زمان تقتضي
 الاتصالات الفلكية يومئذ نباهةً نسبه، وأرى أن ذلك بنوع امتزاج زحل مع الشمس
 والمشتري، بحيث يكون الزحل مرآةً ونورَ الشمس والمشتري منعكساً فيه، فحينئذ يكون..
 والله أعلم.. في هذا المولود براعةُ النسب والنباهة من أجله، ويكون ذلك الاتصالُ بحيث
 ينحفظ في صورته المُقَاضة حكْمُ هذا الاتصال كما ينحفظ في المولودات أشكال الوالدين
 وتخطيطهما، وهذا الرجل ليس له شرف موروث."

"وهاك ما فهمني ربي.. يجيء من مدد السماء الأولى نُقُولُ وتوسّطاتٌ وزيّ. ومن السماء
 الثانية قواعد منصبطة، فتكتب وتُسَطَّر وتُعَلَّم وتؤثّر كابرا عن كابر، وتوقّر بها الصدور وتُمَلَأُ
 به الصحف. ومن السماء الثالثة لون طبيعي، فتصير طبيعة وتميل إليه الطبائع وتهيج لها
 حمية منهم، فيحمونها وينصرونها ويناضلون دونها، ويحبونها كحب الأموال والأولاد
 والأنفس. ومن السماء الرابعة غلبة وقوة وتسخير، فيكون مسخرها أكابر الناس
 وأصاغرهم، علماؤهم وأمراؤهم. ومن السماء الخامسة نكايةٌ وشدة، فلن ترى منكرها إلا
 وقد امتحن بالحن، وابتلي بالبلايا ولعن وعوقب كأن من الغيب ناصر لها. ومن السماء
 السادسة هداية معظمة، فيكون سببا لاهتدائهم ومثابة للناس إلى كمالهم. ومن السماء
 السابعة الشرف الدائم الذي كالندب في الحجر لا يزول حتى تُنزع أوصاله وتُقطع أجزاؤه.
 فهذه أركان سبعة تلتئم في المأل الأعلى، فيكون جسداً مسوّى فيهم، فينفخ من التدلي
 الأعظم جذبٌ فيها بمنزلة الروح في الجسد، فمن تلبس بتلك الأذكار والأفكار، وتزكّياً
 بذلك الزيّ شملته الرحمة الإلهية، وأتاه الجذب من فوقه ومن تحته ومن عن يمينه ومن عن
 شماله ومن حيث لا يحتسب. ثم يربي هذا الطفل سادات المأل الأعلى، ويخدمه المأل
 السافل، فلا يزال يتقرر أمره ويزداد شأنه، حتى يأتي أمر الله على ذلك. فهذه هي الطريقة

تمّ كلامه رحمه الله. فإن كُفِّرَتْ أحدًا بهذه العقائد فكُفِّرْهُ أولاً، فإن الفضل للمتقدمين.

ومن اعتراضاتهم أنهم قالوا إن هذا الرجل يحقّر معجزات المسيح ويستهزئ بها ويقول إنها ليست بشيء، ولو أردتُ لأُريّ مثلها بل أكبر منها، ولكني أكره ولا أتوجّه إليها كالشائقين.

أما الجواب فاعلم أن المعجزة ليس من فعل العباد بل من أفعال الله تعالى، فما كان لرجل أن يقول أيّ أفعال كذا وكذا باختياري وإرادتي. وما يفعل إنسان باختياره وإرادته وتدييره فهو فعلٌ من أفعال الإنسان، ولا نسّميه معجزة بل هو مكيدة أو سحر. فافهم يا أخي .. زادك الله رشداً.. أيّ ما قلت كما فهم المستعجلون، بل قلتُ متكلماً بزيّ رجلٍ محمدي نظراً على فضلٍ كان على سيدنا محمد المصطفى خاتم النبيين.

وما ضحككُ على المسيح وما استهزأت بمعجزاته، بل كان مرادي من كلماتي كلها أنا أوتينا ديناً كاملاً ونبياً كاملاً، ولا شك أنا نحن

وقس عليه المذهب في الفروع والأصول. فكل من ادّعى أن الله تعالى أعطاه طريقة أو مذهبا، ولم يكن الذي أُعطى كما وصفنا فقد عجز عن معرفة الأمر على ما هو عليه. ثم ليس كل أحد يُقضى له بالطريقة، وليس عند الله جزاف ولا تخمين في شيء من الأشياء، بل إنما يُعطى من جِبِلٍّ مباركاً زكياً فيه إمداد الأفلاك السبعة والماء الأعلى والسافل، وله رحمة خاصة من التدلي الأعظم. فكم من عارف عظيم المعرفة، أو فاني باقي شديد الفناء سابع البقاء، ليس بمبارك زكي فلا يُعطاه. وكذلك لا يتعطى حفظها كلُّ أحد، بل لكل أمر رجلٌ تُخلق له ويُسرّرتْ جِبَلَّتْه لذلك. وأما صورة ظهورها فنشأة أخرى وراء النشأة المتعارفة، حقيقتها بركة فائضة في الأعراض والأفعال. " (الناشر)

خير أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ. فكم من كمال يوجد في الأنبياء بالإصالة، ويحصل لنا أفضل منه وأولى منه بالطريق الظلي، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء. ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ إذ قال: إن في الجنة مكانا لا يناله إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو، فبكى رجل من سماع هذا الكلام وقال: يا رسول الله ﷺ، لا أصبر على فراقك، ولا أستطيع أن تكون في مكان وأنا في مكان بعيد عنك محجوبا عن رؤية وجهك، فقال له رسول الله ﷺ: أنت تكون معي وفي مكاني. فانظر كيف فضّله على الأنبياء الذين لا يجدون ذلك المكان.

ثم انظر إلى قوله تعالى ودعائه الذي علّمنا: [اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ]، فإنّا أمرنا أن نقندي الأنبياء كلهم ونطلب من الله كمالاتهم، ولما كانت كمالات الأنبياء كأجزاء متفرقة وأمرنا أن نطلبها كلها ونجمع مجموعة تلك الأجزاء في أنفسنا، فلم أن يحصل لنا شيء بالظلية ومتابعة رسول الله ﷺ ما لم يحصل لفرد فرد من الأنبياء. وقد اتفق علماء الإسلام أنه قد يوجد فضيلة جزئية في غير نبي لا توجد في نبي. ثم انظر إلى كلام ابن سيرين حين سئل عن مرتبة المهدي.. وقيل أهو كأبي بكر في فضائله؟ قال: بل هو أفضل من بعض الأنبياء. وما اختلف اثنان من علماء هذه الأمة في أن الفضائل الظلية التي توجد في هذه الأمة قد تفوق بعض الفضائل التي توجد في الأنبياء بالأصالة، ولذلك قيل إن الأنبياء السابقين كانوا ينظرون إلى هذه الأمة بعين الغبطة، وتمنى أكثرهم أن يكونوا منهم. فلو لم يكن في هذه الأمة

شيء من أنواع الفضائل التي لم توجد في أنبياء بني إسرائيل.. فلم سألوا ربهم أن يجعلهم من هذه الأمة؟

وأما كراهتنا من بعض معجزات المسيح فأمرٌ حق، وكيف لا نكره أمورا لا توجد حِلَّتْها في شريعتنا؟ مثلاً.. قد كُتِبَ في إنجيل يوحنا الإصحاح الثاني أن عيسى دُعي مع أُمِّه إلى العُرس وجعل الماء خمرًا من آنية ليشرب الناس منها. فانظر.. كيف لا نكره مثل هذه الآيات؟ فإِنَّ لا نشرب الخمر، ولا نحسبه شيئًا طيبًا، فكيف نرضى بمثل هذه الآية؟ وكم من أمور كانت من سنن الأنبياء، ولكننا نكرهها ولا نرضى بها، فإن آدم.. صفى الله.. كان يُزَوِّج بنته ابنه ونحن لا نحسب هذا العمل حسنا طيبا في زماننا، بل كنا كارهين.

فلكل وقت حكمٌ، ولكل أُمَّة منهاجٌ، وكذلك نكره أن يكون لنا آيةٌ خَلَقَ الطيور، فإن الله ما أعطى رسولنا هذا الإعجاز، وما خَلَقَ نبيُّنا ذبابة فضلا عن أن يخلق طيرا عظيما. وكان السر في ذلك إعلاء كلمة التوحيد وتنجية الناس من كل ما هو كان محل الخطر، بل قد يكون كبذر الشرك. هذا ما كان مرادنا في كتابنا، وإنما الأعمال بالنبات، فتدبَّر ساعة، لعل الله يجعلك من المصدِّقين.

ومن اعتراضاتهم أنهم قالوا إن هذا الرجل يحسب الملائكة أرواح الشمس والقمر والنجوم. أما الجواب فاعلم أنهم قد أخطأوا في هذا، والله يعلم أني لا أجعل أرواح النجوم ملائكة، بل أعلم من ربي أن الملائكة مدبِّرات للشمس والقمر والنجوم وكلِّ ما في السماء والأرض، وقد قال الله تعالى: [إِنَّ كُلَّ

نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ•]، وقال: [وَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا]◉. ومثل تلك الآيات كثير في القرآن، فطوبى للمتدبرين.

ومن اعتراضات المكفرين أنهم قالوا إن هذا الرجل ادّعى النبوة وقال إني من النبيين. أما الجواب فاعلم يا أخي أي ما ادّعت النبوة وما قلت لهم إني نبي، ولكنهم تعجلوا وأخطأوا في فهم قولي، وما فكروا حق الفكر بل اجتزأوا على نحتِ بهتان مبین. وتراهم يسارعون إلى التكفير ويكفرون بعض المؤمنين ويخادعون البعض، ولا يخفى على الله ما في صدور الظالمين. ومنهم من يُعجب الناسَ قوله ويُقسم بالله أنه على الحق وهو أول المبطلين. يلبس الحق بالباطل ويغطي الصدق على الكذب، ويسعى سعي العفاريت، وينجس وجه الأرض بالتمويهات والتلبيسات، ويفوق بمكره كل مكار، ثم يسمي الصادقين دجالين.

وما قلت للناس إلا ما كتبت في كتبي من أنني محدث ويكلمني الله كما يكلم المحدثين. والله يعلم أنه أعطاني هذه المرتبة، فكيف أرد ما أعطاني الله ورزقني من رزق.. أأعرض عن فيض رب العالمين؟ وما كان لي أن أدعي النبوة وأخرج من الإسلام وألحق بقوم كافرين. وها إني لا أصدق إلهاما من إلهاماتي إلا بعد أن أعرضه على كتاب الله، وأعلم أنه كل ما يخالف القرآن فهو كذب وإلحاد وزندقة، فكيف أدعي النبوة وأنا من المسلمين؟ وأحمد الله على أي ما وجدت إلهاما من إلهاماتي يخالف كتاب الله، بل وجدت كلها موافقا بكتاب رب العالمين.

ومن الناس من يقول إن باب الإلهام مسدود على هذه الأمة، وما تدبّر في القرآن حق التدبر، وما لقي الملهمين. فاعلم أيها الرشيد أن هذا القول باطل بالبداهة، ويخالف الكتاب والسنة وشهادات الصالحين. أما كتاب الله.. فأنت تقرأ في القرآن الكريم آياتٍ تؤيد قولنا هذا، وقد أخبر الله تعالى في كتابه المحكم عن بعض رجال ونساء كلّمهم ربهم وخاطبهم وأمرهم ونهّاهم، وما كانوا من الأنبياء ولا رسل رب العالمين. ألا تقرأ في القرآن: [وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ] ♦.

فتدبّر أيها المنصف العاقل.. كيف لا يجوز مكالمات الله ببعض رجال هذه الأمة التي هي خير الأمم وقد كلّم الله نساء قوم خلوا من قبلكم، وقد أتاكم مثل الأولين؟ فإن كان بعض الناس في شك من إلهامي، وكان لهم عجبٌ من أن يخاطب الله أحدا من هذه الأمة ويكلّمه من غير أن يكون نبيا.. فلم لا يحكّمون القرآن فيما شجر بينهم؟ ولم لا يردّون الأمر إلى الله ورسوله إن كانوا مؤمنين؟ وقد قال الله تعالى: [لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] ♦، وقال: [إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ] ♦، وقال: [يُلْقِي

♦ القصص:8 • يونس:65

• الطلاق:3-4

• غافر:16

• فصلت:31-32

الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ۖ [٥]، وقال: يجعل لهم فرقانا، ويجعل لهم نورا يمشون به. فالنور.. الذي هو الأمر الفارق بين خواص عباد الله وبين عباد آخرين.. هو الإلهام والكشف والتحديث، وعلوم غامضة دقيقة تنزل على قلوب الخواص من عند الله. وكذلك قال Y: [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ] ۖ.

وأنت تعلم أن الذين يصلون مقامات الكمال من الاتقاء وخوف هجر الرب، لا يبقى لهم همٌّ واهتمام في فكر الرزق الذي هو حظّ الجسم.. أعني الخبز واللحم وأنواع الطعام والشراب والألبسة، بل ينهضون لاكتساب الأموال الروحانية، ويُجذب قلبهم وروحهم وشوقهم إلى المولى، وإلى رزقٍ يزيد لهم يقينا ومعرفة ويدخلهم في الواصلين. ولا يريدون الدنيا وشهواتها ولذاتها، وما كان أعظم مرادهم الدنيا ولا أن يأكلوا ويشربوا ويثلبوا أعمارهم في الخضم والقضم، ويعيشوا كالمترفين. فالرزق الذي هو مُرادُ رجالِ أُولي التقوى إنما هو فيوض الغيب من الكشف والإلهام والمخاطبات، ليلغوا مراتب اليقين كلها، ويدخلوا في عباد الله العارفين. فقد وعد الله لهم وقال: [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ]، وأما الذين يظنون أن الرزق منحصر في التعمعات الجسمانية، فقد أخطأوا خطأ كبيرا، وما تدبروا في القرآن حق التدبر، وكانوا من الغافلين.

وكذلك قوله تعالى: [إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْكُمْ قَوْلًا: [لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا]، وكمثله من كلمات تطمئن بها قلوبهم. فهذه الآيات كلها تدل على أن الله قد يكلم أوليائه ويخاطبهم ليزداد يقينهم وبصيرتهم وليكونوا من المطمئنين.

وكذلك علم الله عباده دعاء: [اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ] * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ]، ومعلوم أن من أنواع الهداية كشف وإلهام ورؤيا صالحة ومكالمات ومخاطبات وتحديث لينكشف بها غوامض القرآن ويزداد اليقين، بل لا معنى للإنعام من غير هذه الفيوض السماوية، فإنها أصل المقاصد للسالكين الذين يريدون أن تنكشف عليهم دقائق المعرفة، ويعرفوا ربهم في هذه الدنيا، ويزدادوا حُبًّا وإيمانًا، ويصلوا محبوبهم متبتلين. فلأجل ذلك.. حثَّ الله عباده على أن يطلبوا هذا الإنعام من حضرته، فإنه كان عليما بما في قلوبهم من عطش الوصال واليقين والمعرفة، فرحمهم وأمدَّ كلَّ معرفة للطالبن، ثم أمرهم ليطلبوها في الصباح والمساء والليل والنهار، وما أمرهم إلا بعدما رضي بإعطاء هذه النعماء، بل بعدما قدَّر لهم أن يُرزقوا منها، وبعدهما جعلهم ورثاء الأنبياء الذين أُوتوا من قبلهم كلَّ نعمة الهداية على طريق الأصالة. فانظر كيف منَّ الله علينا. وأمروا في أم الكتاب لنطلب فيه هدايات الأنبياء كلها، ليكشف علينا

كل ما كشف عليهم، ولكن بالاتباع والظلية، وعلى قدر ظروف الاستعدادات والهمم. فكيف نردّ نعمة الله التي أُعِدَّتْ لنا إن كنا طُلباء الهداية؟ وكيف نُنكرها بعدما أخبرنا عن أصدق الصادقين؟

وأما ما ثبت من **سُنة رسول الله** وآثاره في هذا الباب فاعلم أنه قال p: لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يُكَلِّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يك في أمتي منهم أحدٌ **فعمُرُ**. وقال: قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدّثون، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه **عمر بن الخطاب**. وجاء في البخاري في آية: [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَتَّى ... الآية] ♦ عن ابن عباس أنه كان يزيد فيه "**ولا محدّثٍ**"، يعني يقرأ: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدّث. وتجد هذا الذكر مفصلاً في "فتح الباري"، فلا تُعرَضُ عن الحق بعدما جاءك، وتدبر مع المتدبرين.

وإني كتبت في بعض كتبي أن **مقام التحديث** أشدّ تشبُّهًا بمقام النبوة، ولا فرق إلا فرق القوة والفعل. وما فهموا قولي وقالوا إن هذا الرجل يدّعي النبوة، والله يعلم أن قولهم هذا كذب بحت، لا يُمازجه شيء من الصدق، ولا أصل له أصلاً، وما نحتوه إلا ليهيِّجوا الناس على التكفير والسب واللعن والطعن، وينهضوا هم للعناد والفساد، ويفرّقوا بين المؤمنين.

وإني والله أوّمن بالله ورسوله، وأؤمن بأنه خاتم النبيين. نعم، قلت إن أجزاء النبوة توجد في التحديث كلها، ولكن بالقوة لا بالفعل، فالمحدّث نبيّ بالقوة، ولو لم يكن سدّ باب النبوة لكان نبيا بالفعل، وجاز على هذا أن نقول: النبي مُحدّث على وجه الكمال، لأنه جامع لجميع كمالاته على الوجه الأتمّ الأبلغ بالفعل، وكذلك جاز أن نقول إن المحدّث نبي بناءً على استعداده الباطني أعني أن المحدّث نبي بالقوة، وكمالات النبوة جميعها مخفية مضمرة في التحديث، وما حبس ظهورها وخروجها إلى الفعل إلا سدّ باب النبوة. وإلى ذلك أشار النبي ρ في قوله: "لو كان بعدي نبي لكان عمر"، وما قال هذا إلا بناءً على أن عمر كان محدّثاً، فأشار إلى أن مادة النبوة وبذرها يكون موجوداً في التحديث، ولكن الله ما شاء أن يُخرجها من مَكْمَن القوة إلى حيّز الفعل، وإلى ذلك إشارة في قراءة ابن عباس: وما أرسلنا من رسول ولا نبي ولا محدّث، فانظر كيف أُدخل الرسل والنبيون والمحدّثون في هذه القراءة في شأن واحد، وبين الله أن كلهم من المحفوظين ومن المرسلين.

ولا شك أن التحديث موهبة مجردة لا تُنال بكسب البتّة.. كما هو شأن النبوة، ويكلم الله المحدّثين كما يُكلم النبيين، ويرسل المحدّثين كما يرسل المرسل، ويشرب المحدّث من عين يشرب فيها النبي، فلا شك أنه نبي لولا سد الباب، وهذا هو السر في أن رسول الله ρ إذا سمى الفاروق محدّثاً فَقَيّ على أثره قوله: لو كان بعدي نبي لكان

عمر، وما كان هذا إلا إشارة إلى أن المحدث يجمع كمالات النبوة في نفسه، ولا فرق إلا فرق الظاهر والباطن، والقوة والفعل. فالنبوة شجرة موجودة في الخارج مثمرة بالغة إلى حدها، والتحديث كمثال بذر فيه يوجد في القوة كل ما يوجد في الشجر بالفعل وفي الخارج. وهذا مثال واضح للذين يطلبون معارف الدين، وإلى هذا أشار رسول الله ρ في حديث: **علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**، والمراد من العلماء المحدثون الذين يؤتَوْنَ العلم من لدن ربهم ويكونون من المكملين.

وقد استصعب الفرق بين التحديث والنبوة على بعض الناس، فالحق أن بينهما فرق القوة والفعل كما بينتُ آنفاً في مثال الشجرة وبذرهما، فحُذِّها مني ولا تخفْ إلا الله، وادعُ الله أن تكون من العارفين. هذا ما قلنا في بعض كتبنا استنباطاً من الأحاديث النبوية والقرآن الكريم، وما قال بعض السلف فهو أكبر من هذا، ألا ترى إلى قول ابن سيرين أنه ذُكر المهدي عنده وسئل عنه هل هو أفضل من أبي بكر فقال: ما أبو بكر؟ هو أفضل من بعض النبيين!

هذا ما كتب صاحب "فتح البيان" **صديق حسن** في كتابه "الحُجَج"، ومثله أقوال أخرى ولكننا نتركها خوفاً من الإطباب.

وعليك أن تدقق النظر بالإنصاف الكامل ليتضح لك الحق الحقيقي وتكون من الفائزين. وقد بيّنت لك كل ما هو كلمة الكفر في أعين المستعجلين، فانظر.. أين هذا وأين ادعاء النبوة؟ فلا تظن يا أخي أني قلت كلمة فيه رائحة ادعاء النبوة كما فهم المتهورون في

إيماني وعرضي، بل كل ما قلت إنما قلتها تبييناً لمعارف القرآن ودقائقه، وإنما الأعمال بالنيات، ومعاذ الله أن أدعي النبوة بعدما جعل الله نبيّاً وسيدنا محمداً المصطفى ﷺ خاتم النبيين.

ومن اعتراضاتهم أنهم قالوا إن المسيح الموعود لا يأتي إلا عند قرب القيامة وظهور أماراتها الكبرى.. يعني ظهور يأجوج ومأجوج، ودابة الأرض، والدجال الذي تسير معه الجنة والنار، وطلوع الشمس من مغربها، وما ظهر شيء من هذه العلامات.. فمن أين جاء المسيح الموعود مع عدم مجيء آيات أخرى؟ وكيف يطمئن القلب على هذا وكيف يحصل الثلج واليقين؟

أما الجواب فاعلم أن هذه الأنباء قد تمت كلها، ووقعت كما كان في الآثار المنتقاة المدونة عن الثقات، ولكن الناس ما عرفوها وكانوا غافلين.

والكلام المفصل في ذلك أن أمارات القيامة على قسمين: الأمارات الصغرى، والأمارات الكبرى. أما الأمارات الصغرى فقد تبدو وتظهر على صورتها الظاهرة، وقد تنكشف وجودها في حُلل الاستعارات. ولكن الأمارات الكبرى فلا تظهر على صورتها الظاهرة أصلاً، ولا بد فيها أن تظهر في حُلل الاستعارات والمجازات. والسر في هذا الأمر أن الساعة لا تأتي إلا بغتة كما قال الله تعالى: [يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا

هُوَ ثَقُلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَعْتُهُ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ
خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ*
وقال في مقام آخر: [أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ
تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ* قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ
عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي].^①

[بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ*]
وقال: [كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ* لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى
يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ* فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ]^②
وقال: [هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ]
◆

وقال: [وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً
أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ]^③

ثبت من قوله Y.. أعني [وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ] أن
العلامات القطعية المزيلة للمرية، والأمارات الظاهرة الناطقة الدالة على
قُرب القيامة.. لا تظهر أبداً، وإنما تظهر آيات نظرية التي تحتاج إلى
التأويلات، ولا تظهر إلا في حُلل الاستعارات، وإلا فكيف يمكن أن
تفتح أبواب السماء وينزل منها عيسى أمام أعين الناس وفي يده
حرية، وتنزل الملائكة معه، وتنشق الأرض وتخرج منها دابة عجيبة

① الأعراف: 188 ② يوسف: 108-109 * الأنبياء: 41

③ الشعراء: 201-203 ◆ الزخرف: 67 * الحج: 56

تَكَلِّمَ النَّاسَ أَنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَيُخْرِجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
بصورهم الغربية وآذانهم الطويلة، ويخرج حمار الدِّجَالِ ويرى الناس "بين
أذنيه سبعون باعا"، ويخرج الدِّجَالِ ويرى الناس الجنة والنار معه
والخزائن التي تتبعه، وتطلُّع الشمس من مغربها كما أخبر عنها رسول
الله ﷺ، ويسمع الخلق أصواتا متواترة عن السماء أن المهدي خليفة الله،
ومع ذلك يبقى الشك والشبهة في قلوب الكافرين. ولأجل ذلك
كتبْتُ في كتبي غير مرة أن هذه كلها استعارات وما أراد الله بها إلا
ابتلاء الناس ليعلم من يعرفها بنور القلب ومن يكون من الضالين. ولو
فرضنا أنها تظهر بصورها الظاهرة فلا شك أن من ثمراتها الضرورية أن
يرتفع الشك والشبهة والمرية من قلوب الناس كلهم كما يرتفع في يوم
القيامة، فإذا زالت الشكوك وُفِّعَت الحجب فأبْطِغَ فرق بقي بعد
انكشاف هذه العلامات المهيبة الغربية في تلك الأيام وفي يوم القيامة؟
انظر أيها العاقل.. أنه إذا رأى الناس رجلا نازلا من السماء وفي
يده حربته ومعه ملائكة الذين كانوا غائبين من بدء الدنيا وكان الناس
يشكُّون في وجودهم، فنزلوا وشهدوا أن الرسول حق، وكذلك سمع
الناس صوت الله من السماء أن المهدي خليفة الله، وقرأوا لفظ
"الكافر" في جبهة الدِّجَالِ، ورأوا أن الشمس قد طلعت من المغرب،
وانشَقَّت الأرض وخرجت منها دابة الأرض التي قدمه في الأرض
ورأسه تَمَسُّ السماء، ووسَّمت المؤمن والكافر، وكتبْتُ ما بين عينهم
مؤمن أو كافر، وشهدت بأعلى صوتها بأن الإسلام حق، وحصَّص

الحق وبرق من كل جهة، وتبينت أنوار صدق الإسلام حتى شهد البهائم والسباع والعقارب على صدقه، فكيف يمكن أن يبقى كافر على وجه الأرض بعد رؤية هذه الآيات العظيمة، أو يبقى شك في الله وفي يوم الساعة؟ فإن العلوم الحسّية البديهة شيء يقبله كافر ومؤمن، ولا يختلف فيه أحد من الذين أُعطوا قوى الإنسانية؛ مثلاً إذا كان النهار موجودا والشمس طالعة والناس مستيقظين فلا يُنكره أحد من الكافرين والمؤمنين. فكذا إذا رُفعت الحجب كلها، وتواترت الشهادات، وتظاهرت الآيات، وظهرت المخفّيات، وتنزلت الملائكة، وسمعت أصوات السماء، فأى تفاؤلت بقيت؟ • بين تلك الأيام وبين يوم القيامة، وأي مفر بقي للمنكرين؟ فلزم من ذلك أن يُسلم الكفار كلهم في تلك الأيام، ولا يبقى لهم شك في الساعة؛ ولكن القرآن قد قال غير مرة إن الكفار يبقون على كفرهم إلى يوم القيامة، ويبقون في مَريتهم وشكّهم في الساعة حتى تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون. ولفظ "البغتة" تدل بدلالة واضحة على أن العلامات القطعية التي لا تبقى شك بعده ♦ على وقوع القيامة لا تظهر أبدا، ولا تجليها ⊙ الله بحيث تُرفع الحجب كلها وتكون تلك الأمارات مرآة يقينية لرؤية القيامة، بل يبقى الأمر نظريا إلى يوم القيامة، والأمارات تظهر كلها

• سهو، والصحيح: "بقي". (الناشر)

♦ سهو، والصحيح: "لا يبقى شك بعدها". (الناشر)

⊙ سهو، والصحيح: "يجليها". (الناشر)

ولكن لا كالأمر البديهي الذي لا مفر من قبوله، بل كأمر ينتفع منها العاقلون، ولا يمستها الجاهلون المتعصبون، فتدبّر في هذا المقام فإنه تبصرة للمتدبرين.

وأنت تعلم أن هذه الأنباء كلها.. كخروج دابة الأرض ويأجوج ومأجوج وغيرها، قد اختلفت الآثار في تبينها، ولم تُبَيَّن على نهج واحد، حتى إن بعض الصحابة زعموا أن دابة الأرض عليّ ؑ، فقليل له إن الناس يظنون أنك أنت دابة الأرض، فقال ألا تعلمون أنه إنسان ومعه لوازم بعض الحيوانات، ولها وبر وریش، وشيء فيه كالطير، وشيء فيه كالسباع، وشيء فيه كالبهائم، وهو يسعى كمثل فرس ضليع ثلاث مرة ولم يخرج إلا أقلّ من ثلثيه، وما أنا إلا إنسان بحث ليس على جلدي وبر ولا ریش.. فكيف أكون دابة الأرض؟ وقال بعض الناس إن دابة الأرض التي ذكره القرآن هو اسم الجنس لا اسم شخص معين، فإذا انشقت الأرض فيخرج منه ألوف من دواب الأرض سُمي كل واحد منها دابة الأرض.. لهم صور كصور الإنسان وأبدان كأبدان السباع والكلاب والبهائم. وقيل إنها حيوان لها عنق طويلة.. يراها المغربي كما يراها المشرقي، ولها مناقير الطيور، وهي حيوان أصوف ذات زَعَبٍ وذات وبر وریش، وفيها من كل لون من ألوان الدواب، ولها أربع قوائم، وفيها من كل أُمَّةٍ سَيِّمَى، وسيمائها من هذه الأمة أنها تكلم الناس بلسان عربي مبين، تكلمهم بكلامهم. هذا قول ابن عباس. وجاء من أبي هريرة أنها ذات عَصَب وریش، وأن فيها من كل

لون، ما بين قرنيها فرسخ للراكب المجدِّ. وعن ابن عمر قال إنها زغباء ذات وبر وريش. وعن حذيفة قال إنها سَلَمَعَةٌ ذات وبر وريش، لن يدركها طالب ولا يفوتها هارب. وعن عمرو بن العاص قال إنها حيوان طويل القامة، رأسه يبلغ السماء ويمسّها ولم يخرج رجلاه من الأرض، وإنها لتخرج كجري الفرس ثلاثة أيام لم يخرج ثلثا. وعن ابن زبير قال هي دابة رأسها كرأس البقر، وعينها كعين الخنزير، وأذنها كأذن الفيل، وقرنها كقرن الأيّل، وعنقها كعنق النعام، وصدرها كصدر الأسد، ولونها كلون النمر، وخاصرها كخاصر السنور، وذنبها كذنب المعيز، وأرجلها كقوائم الإبل، وما بين مفصليها اثنا عشر ذراعا. وعن عاصم بن حبيب بن اصبهان قال: رأيت عليّا يقول إن دابة الأرض تأكل فيها وتتكلم من إستها. وجاء في بعض الأحاديث أنها تخرج ويكون معها عصا موسى وخاتم سليمان بن داود، وينادي بأعلى صوت أن الناس كانوا بآياتنا غافلين، وتسم المؤمن والكافر.. أما المؤمن فيبرق وجهه بعد الوسم كالكوكب الدرّي، وتكتب الدابة ما بين عينيه لفظ المؤمن، وأما الكافر فتكتب ما بين عينيه لفظ الكافر كنقطة سوداء. وجاء في رواية أن لها صوتا عاليا يسمعا كل من هو في الخافقين، وهي تقتل إبليس وتمزقه.

وفي مواضع خروجها وأزمة ظهورها اختلافات عجيبة تركنا ذكرها اجتنابا من طول الكلام. وقالوا إنها تخرج في زمان واحد من أمكنة متعددة.. تخرج من أرض مكة، وتخرج من أرض المدينة، وتخرج من

أرض اليمن، فيرى صورته في الأمكنة المختلفة بطور خرق العادة في الصور المثالية. فمن ههنا يثبت عالم المثال. وأعجبني أن علماءنا قد جوّزوا هذه الصور المثالية في خروج دابة الأرض، وقالوا إن لها تكون قدرةً على كونها موجودة في المشرق والمغرب في آن واحد، وهم لا يجوّزون هذه القدرة للملائكة، ويقولون إنهم إذا نزلوا من السماء فلا بد من أن تبقى السماوات خالية منهم، وإن هذا إلا حمق مبين.

هذا ما جاء في حال دابة الأرض في كتب الأحاديث مع اختلافات وتناقضات حتى إن أكثر الصحابة ظنوا أنه إنسان فقط، ولأجل ذلك حسبوا أن عليًّا هو دابة الأرض. ومن أعجب العجائب أن بعض الأحاديث تدل على أن دابة الأرض مؤمنة تؤيّد المؤمنين وتخزي الكافرين، وتشهد أن دين الإسلام حق، حتى إنها تقتل إبليس وتمزقه، وبعض الأحاديث يدل على أنها امرأة كافرة خادمة للشيطان وجساسة للدجال وليس فيها خير؛ فلا يمكن التوفيق بينهما إلا أن نقول إن المراد من دابة الأرض علماء السوء الذين يشهدون بأقوالهم أن الرسول حق والقرآن حق، ثم يعملون الخبائث ويخدمون الدجال، كأن وجودهم من الجزئين.. جزء مع الإسلام وجزء مع الكفر، أقوالهم كأقوال المؤمنين، وأفعالهم كأفعال الكافرين. فأخبر رسول الله ﷺ عن أنهم يكثرُونَ في آخر الزمان، وسمُّوا دابة الأرض لأنهم أخلدوا إلى الأرض، وما أرادوا أن يُرفعوا إلى السماء، واطمأنوا بالدنيا وشهواتها، وما بقي لهم قلب كالإنسان، واجتمعت فيهم عادات السباع والخنازير

والكلاب. تراهم مستكبرين متبخترين كأنهم بلغوا السماء ومستوها، ولم تخرج أرجلهم من الأرض من شدة انتكاسهم إلى الدنيا، فهم كالذي شَدَّ أَسْرُهُ وكالمسجونين. يكلّمون الناس من الإست لا من الأفواه، يعني ولا تجد في كلماتهم طهارة وبركة واستقامة ونورانية ككلمات الصالحين•.

• قال قائل: لو كان هذا هو الحق.. أن دابة الأرض هي طائفة علماء هذا الزمان، فيلزم أن يكون تكفيرهم حقاً وصدقاً، فإن من شأن دابة الأرض أنها تسم المؤمنين والكافر، فمن جعله الدابة كافراً - يُشير المعارض إلينا - فعليكم أن تقرّوا بكفره، فإن التكفير بمنزلة الموسم من دابة الأرض.

فيقال في جواب هذا المعارض إن المراد من الموسم إظهار كفر كافر وإيمان مؤمن، فهذا الإظهار على نوعين: قد يكون بالأقوال وقد يكون بالأفعال ونتائجها. وقد جرت سنة الله أنه قد يجعل الكافرين والفاستقين علة موجبة لظهور أنوار إيمان أنبيائه وأوليائه، ألا ترى إلى سيدنا ونبينا محمد المصطفى p كيف كانت عداوة أبي جهل وأمثاله موجبة لإنارة صدقه وضياء إيمانه؟ ولو لم يكن أبو جهل وإخوانه من المعادين لبقي كثير من أنوار الصديق المحمدي في مكمن الاختفاء، فإذا أراد الله أن يُظهر صدق نبيه p بين الناس فجعل له الحاسدين المعاندين في الأرض كأبي جهل وشياطين آخرين، فمكروا كل المكر وآذوا كل الإيذاء، وسعوا لإطفاء أنوار نزلت من السماء، فعجزوا عن ذلك، وجاء الحق وزهق الباطل، وظهر أمر الله ولو كانوا كارهين. فجاز أن يُقال إن أبا جهل وأمثاله كانوا سببا لظهور صدق المصطفى وإيمانه الطيب وأنواره العليا، وكذلك نقول إن دابة الأرض التي هي خادمة الشيطان.. أعني التي تتكلم بالإست لا بالفهم كالصالحين من نوع الإنسان.. هي تسم المؤمن بمعنى أنها تُظهر أنوار إيمانه كما أظهر أبو جهل أنوار إيمان خاتم النبيين. فتفكّر ولا تكن كالمعتوه والمجانين. منه

ومن اعتراضاتهم ما قيل إن بعض أجلّ مشائخهم قال إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام وسألته عن هذا الرجل (يعني عن المؤلف) أهو كاذب أم صادق؟ فقال: **صادق ومن عند الله، ولكن الله يمازحه** ♦.

أما الجواب فاعلم أن ذلك الشيخ قد أرسل إليّ رسولين من عنده، كان اسم أحدهما: الخليفة عبد اللطيف، واسم الثاني: الخليفة عبد الله العرب، فجاءا إليّ في مقام فيروزفور وقالوا قد أرسلنا إليك شيخنا صاحب العلم يقول إني رأيت رسول الله ﷺ واستفسرته في أمرك وقلت بيّن لي يا رسول الله أهو كاذب مفتر أم صادق؟ فقال رسول الله ﷺ: **إنه صادق ومن عند الله. فعرفت أنك على حق مبين، وبعد ذلك لا نشك في أمرك ولا نرتاب في شأنك، ونعمل كما تأمر، فإن أمرتنا أن اذهبوا إلى بلاد الأمريكة فإنّا نذهب إليها، وما تكون لنا خيرة في أمرنا، وستجدنا إن شاء الله من المطاوعين.**

هذا ما قال رسولاه وكانا من شرفاء القوم، بل الذي كان اسمه عبد الله العرب هو من مشاهير التجار، ومنّ الله عليه بأموال كثيرة وباقيات صالحة، وأظن أنه رجل صالح لا يكذب، وقد أنفق مالا كثيرا في سبيل الله ومهمّات الدين، وله همٌّ كثير لإعلاء كلمة الإسلام، وما جاءني إلا على قدم الصدق والإخلاص، وما جاء إلا بعدما أرسلهما شيخهما، ففكر ديانةً وإنصافاً.. أرسلهما شيخهما من ديار بعيدة على تحمّل

♦ اسم هذا الشيخ: بير صاحب العلم، ويسكن في بعض بلاد السنده. وسمعت أنه من مشاهير مشائخ تلك البلاد وجماعة مبايعة قريب من مئة ألف أو يزيدون. منه

مصارف السبيل وتكاليف السفر في أيام الشتاء ليلغا منه كلمة المزاح، ويؤذيا.. على خلاف السنة.. أهل الصلاح؟ وإهما حيّان موجودان، والشيخ حي موجود، فاسألهما وشيخهما إن كنت من المرتابين.

ومع ذلك.. نسبة المزاح إلى الله تعالى قول ترى حقيقته، وأنت تعلم أن المزاح نوع من الكذب، ولا يصح عليه سبحانه الكذب، فإنه رجس ومن النقائص، والنقائص كلها تستحيل عليه تعالى ذاتاً.. عقلاً وعُرفاً، وقد اتفق العلماء على أن الله تعالى لا يكذب ولا يُخلف الميعاد، والكذب عليه مُحال لما فيه من أمانة العجز أو الجهل أو العبث، ولما فيه زيادة ونقص، ويتعالى الله عن النقائص كلها وكل أنواعها. وجواز الكذب في أخباره تعالى ووحيه وإلهامه يُفضي إلى مفسد لا تُحصى؛ قال في شرح المواقف: ويمتنع عليه الكذب اتفاقاً، ولو كان الله كاذباً لكان كذبه قديماً إذ لا يقوم الحادث بذاته تعالى، فكيف يكون الكذب من صفاته القديمة وهو أصدق الصادقين؟

ومن اعتراضاتهم أنهم قالوا قد ثبت من القرآن أن عيسى ٥ رُفِعَ إلى السماء غير مقتول ولا مصلوب، وجاء في الأحاديث أنه سينزل* ويقتل الدجال، ويتزوج ويولد له، ثم يموت فيُدفن في قبر رسول الله ٥. وقد جاء في بعض الأحاديث أنه لم يمت، وقد انعقد الإجماع على

* الحاشية: ولو كان عيسى راجعاً إلى الدنيا بعد الرفع لقال رسول الله ٥: والله ليوشكن أن يرجع، ولكنه قال: والله ليوشكن أن ينزل، فترك رسول الله ٥ لفظ الرجوع واختياره لفظ النزول دليل قوي على أنه أراد من عيسى رجلاً آخر، لا عيسى الذي هو نبي الله ابن مريم. منه

مجيئه قبل موته في زمان يبعث الله المهدي فيه، ويدعو على يأجوج ومأجوج فيموتون بدعائه، فكيف يمكن الإنكار من هذه الأحاديث التي اتفق عليها السلف والخلف والصحابة والتابعون والأئمة وأكابر المحدثين؟

أما الجواب فاعلم أن وفاة عيسى ثابت بالآيات التي هي قطعية الدلالة، لأن القرآن ما استعمل لفظ التوفي إلا للإماتة والإهلاك، وصدّق ذلك المعنى رسول الله ﷺ وشهد عليه رجل من الصحابة الذي كان أعلم بلغات قومه، وكان استنبط علم التفسير ووضعه، وكان له اليد الطولى والقدح الموعلى في تحقيق لسان العرب وكان من العارفين. وأما شهادته.. فكما جاء في البخاري: متوفيك مميتك، وقال العيني شارح البخاري: رواه ابن أبي حاتم عن أبيه، قال حدثنا أبو صالح حدثنا معاوية عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: متوفيك مميتك.

ثم اعلم أن ادعاء الإجماع في عقيدة رفع عيسى حيًا بجسمه العنصري باطل وكذب صريح. قال ابن الأثير في كتابه "الكامل" إن أهل العلم قد اختلفوا في عيسى هل رُفع قبل الموت أو بعده، فبعضهم ذهبوا إلى أنه رُفع قبل الموت، وبعضهم ذهبوا إلى أنه مات إلى ثلاث ساعات أو سبع ساعات، وذهب فريق من المعتزلة والجهمية أنه ما رُفع بجسمه العنصري بل مات وُرفِع بالرفع الروحاني، وما يكون نزوله إلا نزولا روحانيا كما كان الرفع روحانيا. وقد أثبت البخاري موته في

صحيحه بكتاب الله وحديث رسوله وقول بعض الصحابة. فأين ثبت الإجماع على رفعه حيًّا وعدم موته؟

وكذلك ما اتفق المسلمون على دفنه في قبر رسول الله ρ ، وقال العيني في شرح البخاري: قيل يُدفن في الأرض المقدسة. وكذلك اختلفَ في موضع نزوله، وفي حديث ابن عباس قال سمعت رسول الله ρ يقول: "ينزل أخي عيسى ابن مريم على جبلٍ أَفِيقَ إمامًا هاديا حَكَمًا عادلا، بيده حربَةٌ لقتل الدجّال، وتضع الحرب أوزارها". وأخرج نعيم بن حماد من طريق جبير بن نفيير وشريح وعمر بن الأسود وكثير بن مرة قال قالوا إنما الدجّال شيطان لا غيره، يعني يخرج في آخر الزمان ويوسوس في صدور الناس ويقتله المسيح بالحرية السماوية، يعني بالنور.

والذين آمنوا من الصحابة بنزوله ما آمنوا إلا إجمالاً، والذين صرّحوا في هذا الباب بعد الصحابة فقد أخطأوا، ولا يجب علينا أن نتبع آراءهم. هم رجال ونحن رجال، وقد منّ الله علينا وكشف علينا بإلهاماته ما لم يكشف عليهم، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده المؤمنين.

وقد أشار الله تعالى في القرآن أن التوراة إمام.. يعني فيه نظير كل واقعة يقع في هذه الأمة، ولذلك قال: [فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ⁸]، ولكنّا لا نجد في التوراة نظير النزول الجسماني، بل نجد

نظيرا فيه للنزول الروحاني كما ذكرنا قصة نزول إيلياء النبي، فتدبر
بقلب سليم أمين.

ثم مع ذلك.. قد ثبت أن الوقائع الآتية التي أخبر عنها رسول
الله ﷺ أو غيره من الأنبياء ما وقعت كلها بصورتها الظاهرة المرجوة، بل
وقع بعضها على الظاهرة وبعضها على وجه التأويل. فإذا كان سنة الله
كذلك في ظهور الأنبياء المستقبلة.. فأى دليل على أن خبر نزول
المسيح محمول على الظاهر؟ ولم لا يجوز أن يكون محمولا على الباطن؟
بل إذا دققنا النظر فيأمر العقل أن الأخبار التي هي أمارات كبرى
للقیامة.. لا بد لها أن لا تقع إلا في حُلل الاستعارات، فإن القيامة لا
تأتي إلا بغتة، ولا يزول ريب المرتابين أبدا حتى تأتيتهم كما ثبت من
نصوص القرآن. وأما إذا جوّزنا ظهور الأمارات الكبرى على صورها
الظاهرة.. فلا تبقى الساعة أمرا ظنيا في أعين المنكرين. فوجب أن
نعتقد أن الأمارات الكبرى لا تقع على صورها الظاهرة، وكذلك
النزول نزول روحاني بتوسط رجل يُشابهه في صفاته، كما فُسِّر معنى
نزول إيلياء النبي من قبل في صحف النبيين.

وأما قولهم إن الأحاديث تشهد على أن عيسى يقتل الدجال
بحرته، فنحن لا نُسلم أن الأحاديث تدل عليها بالاتفاق، بل الحديث
الذي جاء في البخاري في أمر عيسى.. يعني قول رسول الله ﷺ: "يضع
الحرب"، يدل بدلالة صريحة على أن عيسى لا يقتل الدجال بآلة من
آلات الحرب، وكيف يأخذ حرته بيده مع أن رسول الله ﷺ قال في

حقه إنه يضع الحرب؟ فلا شك أن حربة قتل الدجال حربة روحانية منزلة من السماء كما يدل عليه حديث زوي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ ينزل أخي عيسى بن مريم على جبل أفيق إماماً هادياً حَكماً عادلاً بيده حربة يقتل به الدجال، فقد ظهر من هذا الحديث أن الحرية سماوية لا أرضية، فالقتل أمر روحاني لا جسماني. ثم لما كان الدجال شيطان آخر الزمان ييسط ظل الضلالة على مظاهره.. فما معنى القتل الجسماني؟ وما نقلوا أنه بعد قتله يُدفن أو يُحرق أو يُلقى في البحر أو يُطرح في الأرض حتى تأكله الطير. فهذه كلها دلائل قاطعة على أن القتل أمر روحاني.

واعلم أن حربة عيسى الذي ينزل معه من السماء إنما هو حربة نَفْسِه التي يهلك بها كل كافر، فما لكم لا تتدبرون كالعقلين؟ وقد علمتم أن الدجال شيطان كما جاء في بعض الأحاديث، فحربة قتل إبليس لا تكون إلا حربة روحانية، فحديث وضع الحرب حديث صحيح يوجد في البخاري، وكل ما يخالفه من الأحاديث فهو مَدْسُوس عليه أو مؤوَّل، والذي يُجادل في ذلك فقد نسي هذا الحديث الذي يوجد في كتاب هو أصح الكتب بعد كتاب الله، وهذا هو الحق ولا يُنكره إلا قُبَاعٌ غافل، فتدبر ولا تكن من المستعجلين.

وأما أحاديث مجيء المهدي.. فأنت تعلم أنها كلها ضعيفة مجروحة ويُخالف بعضها بعضاً، حتى جاء حديث في ابن ماجه وغيره من الكتب أنه لا مهدي إلا عيسى بن مريم؛ فكيف يُتَّكأ على مثل هذه

الأحاديث مع شدة اختلافها وتناقضها وضعفها، والكلام في رجالها كثير كما لا يخفى على المحدثين.

فالحاصل أن هذه الأحاديث كلها لا تخلو عن المعارضات والتناقضات، فاعتزل كلها، ورُدَّ التنازعات الحديثية إلى القرآن، واجعله حكماً عليها ليتبين لك الرشد وتكون من المسترشدين. فإن كنت تقبل الأحاديث مع شدة اختلافها وتناقضها وتنزلها عن مرتبة اليقين، فكم من حري أن تقبل القرآن اليقيني القطعي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إن كنت تريد أن تتبع سبل اليقين.

ومن اعتراضاتهم أنهم قالوا إن هذا الرجل لا يؤمن بأن المسيح كان خالق الطيور وكان محيي الأموات وكان في العصمة مخصوصاً متفرداً محفوظاً من مسّ الشيطان لا يُشابهه في هذه الصفة أحد من النبيين.

أما الجواب فاعلم أننا نؤمن بإحياء إعجازي وخلق إعجازي، ولا نؤمن بإحياء حقيقي وخلق حقيقي كإحياء الله وخلق الله، ولو كان كذلك لتشابه الخلق والإحياء، وقال الله سبحانه: [فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ]، وما قال فيكون حيًا بإذن الله، وما قال فيصير طيراً بإذن الله. وإن مثل طير عيسى كمثّل عصا موسى، ظهرت كحية تسعى ولكن ما تركت للدوام سيرته الأولى. وكذلك قال المحققون إن طير عيسى كان يطير أمام أعين الناس وإذا غاب فكان يسقط ويرجع إلى سيرته الأولى. فأين حصل له الحياة الحقيقي؟ وكذلك كان حقيقة الإحياء..

أعني أنه ما ردّ إلى ميّت قط لوازم الحياة كلها، بل كان يُري جلوةً من حياة الميّت بتأثير روحه الطيب، وكان الميّت حيًّا ما دام عيسى قائمًا • عليه أو قاعدا، فإذا ذهب فعاد الميّت إلى حاله الأول ومات. فكان هذا إحياءً إعجازيًا لا حقيقيًّا، والله يعلم أن هذا هو الحقيقة الواقعة، ثم ما زجّها أغلاطُ بيان الناس، وزادوا فيها ما شاءوا كما لا يخفى على من له شَمّة من العلم والبصيرة، فدَقّق النظر في مطاوي الآيات ومعانيها ليُكشف عنك الضلال والظلام وتكون من المتبصّرين.

ومن اعتراضاتهم أنهم قالوا إن الله تعالى قد أخبر عن نزول المسيح عند قرب القيامة كما قال: [وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ •].

أمّا الجواب فاعلم أنه تعالى قال: [وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ]، وما قال إنه سيكون علمًا للساعة، فالآية تدل على أنه علم للساعة من وجه كان حاصل له بالفعل، لا أن يكون من بعدُ في وقت من الأوقات. والوجه الحاصل هو تولّده من غير أب، والتفصيل في ذلك أن فرقة من اليهود.. أعني الصدوقين.. كانوا كافرين بوجود القيامة، فأخبرهم الله على لسان بعض أنبيائه أن ابنًا من قومهم يولد من غير أب، وهذا يكون آيةً لهم على وجود القيامة، فإلى هذا أشار في آية: [وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ]، وكذلك في آية: [وَلَنَجْعَلُ آيَةً لِّلنَّاسِ ♦]، أي للصدوقين.

• سهو، والصحيح: "قائما". (الناشر)

• الزخرف: 62 ♦ مريم: 22

وقال بعض المفسرين إن ضمير إنه لعلم للساعة يرجع إلى القرآن، فإن القرآن أحيا خَلْقًا كثيرًا وبعثهم من القبور، فهذا البعث الروحاني دليل على البعث الجسماني، يعني على الساعة، كما في معالم التنزيل وغيره.

فالحاصل أن آية: [وإنه لعلم للساعة] لا يدل • على نزول المسيح قط، بل يفحم المنكرين بدليل موجود ثابت، فلهذا قال: [فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا]، ولا يُقال مثل هذا القول لآيةٍ ما ثبت وجودها بعد، وما رآها أحد من المخالفين.

ومن اعتراضاتهم أنهم قالوا إن كان هذا هو المسيح الذي أُرسِلَ لكسر الصليب وقتل الخنازير فقد مضت عليه إحدى عشر سنة من رأس القرن، فأَي صليب كُسر، وأي خنزير قُتل، وأي جزية وضع، ومن ذا الذي دخل في الإسلام وترك سبل الكافرين؟

أما الجواب فاعلم أن الحق لا يأتي دفعة بل يأتي تدريجاً، وفي العيني عن ابن عباس ؓ: يُقيم عيسى تسع عشر سنة لا يكون أميراً ولا شرطياً ولا ملكاً. وقد مضت على رسول الله ﷺ ثلاث عشر سنة في مكة وما لحق به في هذه المدة إلا فئة قليلة من المساكين. وكان من بعض علاماته المكتوبة في التوراة فتح الروم والشام وبلاد فارس، فما عاينها الناس في وقت حياته، وما تبعه جموع كثيرة من كل قوم ومُلكٍ إلا بعد انتقاله إلى رفيقه الأعلى، بل ما رأى في أوائل زمانه إلا مصيبة

• سهو، والصحيح: " تدل ". (الناشر)

على مصيبة، والذين آمنوا معه آذاهم القوم إذاءً كثيراً وعيّرهم وطردهم وقالوا عليهم كل كلمة شريفة كاذبين. وهكذا طردوا الأنبياء كلهم، ومستتهم البأساء والضراء في أوائل زمانهم، فمضت على ذلك الابتلاء مدة طويلة حتى قالوا متى نصر الله، فهلك من كان من الهالكين، كما قال الله تعالى: [أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟]. فكَذَلِكَ يريد أبناء هذا الزمان ليقتلوني أو يصلبوني أو يطرحوني في غيابة جُبٍّ، ويدوسوا الصداقة بأرجلهم، ويحرقوا الأشجار الخضرة كما يُحرق الحشائش اليابسة، فالله المستعان على ما يكيدون وهو خير الناصرين. وأما نصره الذي ينكرونه فشيء سترى ما لا تسمع، بل ظهرت علاماته في أعين الناظرين.

ألا ترى أن الزمان كيف انقلب إلى التوحيد.. وكيف هبَّت رياح الإسلام في بلاد المشركين.. وكيف يدخلون في دين الله أفواجا في كل مُلك؟ فما هذا إلا النور الذي نزل من السماء مع الذي أنزل لإصلاح الناس، فأني دليل واضح من هذا إن كنت من المنصفين؟ يا مسكين.. فَمُ وافتح العين لتنظر كيف يُكسر الصليب ويُقتل الخنزير بحربة السماء. وأما قتل الناس بآلات هذه الدنيا فليس بشيء عجيب.

أليس الملوك يفعلون أيضا ذلك؟ فتحسّس حربة الله، ولا تكن من المنكرين.

وقد ذكرتُ آنفا أن الدجال لا يكون إلا شيطانا، فيوسوس في صدور قوم تبعوه فيكونون عملةً له، ويكون فعلهم فعله، فينزل في هذا الزمان المسيح الموعود بالحربة الملكية السماوية، فيقتل ذلك الشيطان ويقتل خنازيره؛ وإلى هذا أشار القرآن في مقامات شتى، وأشار إلى أنه يفتح في آخر الزمان. فالذين يتنزل الشيطان عليهم يعثون في الأرض مفسدين، وينسلون من كل حذب، ثم يجمع الله عباده على كلمة الحق بنفخ الصُّور السماويّ، وكان ذلك قدراً مقدوراً من ربّ العالمين.

وهذا سرّ من أسرار الله تعالى، وسنة من سنّنه.. أنه إذا أراد إصلاح الناس في وقت تسلّط الشيطان على قلوبهم، فيُنزل روحه على قلب عبد من عباده ومعه ملائكة، فيتنزل الملائكة في كل طرف، فيوحون إلى عباده أن قوموا واقبلوا الحق، فيأتونهم ويعطونهم قوةً لقبول الحق وتحمل المصائب. وما يظهر هذه التحركات إلا عند ظهور رسول أو نبي أو محدّث، ولكن الجاهلون ما يعرفون هذا السر الذي تهبّ منه رياح الهداية، ويغلطون فيه ويسلكون مسلك الاتفاقات، ولا يتدبّرون في أن الله قد جعل لكل شيء سببا، وما من متحرك في الكون إلا وله محرّك، أولئك الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا ورضوا بخيالات سطحية وما كانوا من المتدبرين.

والحق أن للملك لَمَّةٌ بقلب بني آدم وللشياطين لَمَّةٌ، فإذا أراد الله أن يبعث مصلحا من رسول أو نبي أو محدث فيقوي لَمَّةَ الملك ويجعل استعدادات الناس قريبةً لقبول الحق، ويعطيهم لهم عقلا وفهما وهمة وقُوَّةَ تحمُّلِ المصائب ونورَ فهم القرآن ما كانت لهم قبل ظهور ذلك المصلح، فتُصَفَّى الأذهان، وتتقوى العقول، وتعلو الهمم، ويجد كل أحد كأنه أوقظ من نومه، وكأن نورا ينزل من غيب على قلبه، وكأن معلما قام بباطنه، ويكون الناس كأن الله بدّل مزاجهم وطبيعتهم، وشخّذ أذهانهم وأفكارهم. فإذا ظهرت واجتمعت هذه العلامات كلها فتدل بدلالة قطعية على أن المجدد الأعظم قد ظهر، والنور النازل قد نزل، وإلى هذا أشار سبحانه في سورة القدر وقال: [إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وما أدراك ما ليلةُ القدر * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ]. وأنت تعلم أن الملائكة والروح لا ينزلون إلا بالحق، وتعالى الله عن أن يُرسلهم عبثا وباطلا. فإرسال الروح ههنا إشارة إلى بعث نبي أو مرسل أو محدث يُلقى ذلك الروح عليه، وإرسال الملائكة إشارة إلى نزول ملائكة يجذبون الناس إلى الحق والهداية والثبات والاستقامة، كما قال الله تعالى في مقام آخر: [إِذْ يُوْحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا]، أي هاتوا قلوبهم وحبّوا إليهم الإيمان والثبات والاستقامة، فهذا فعل الملائكة إذا نزلوا. ففي

سورة القدر إشارة إلى أن الله تعالى قد وعد لهذه الأمة أنه لا يضيّعهم أبداً، بل إذا ما ضلوا وسقطوا في ظلمات يأتي عليهم ليلة القدر، وينزل الروح إلى الأرض، يعني يلقيه الله على من يشاء من عباده ويبعثه مجدداً، وينزل مع الروح ملائكة يجذبون قلوب الناس إلى الحق والهداية، فلا تنقطع هذه السلسلة إلى يوم القيامة. فاطلبوا تجدوا، واطرقوا يفتح لكم.

وإن هذا الزمان زمان قد انفتحت فيه أبواب النعماء الجسمانية والترقيات الجديدة، وترون نعمًا جديدة في ركوبكم ولباسكم وأنواع تمدنكم، وقد انكشف كثير من دقائق العلم الطبيعي والرياضي وخواص النفس، ونجد أبناء الدنيا في علومهم الجديدة كأنهم يصعدون إلى السماء، ويرون أشياء تتحرر فيها العقول، ويتأخر منها المنقول، ونجد من كل طرف صنعة جديدة وفنونا جديدة وأعمالا معجبة دقيقة كسحر مبین، ولا نجد من هذه الصنائع أثرا في الأولين، كأن الأرض بُدلت غير الأرض. وإذا ثبت أن في الأرض أمواجا من علوم جديدة ومعارف جديدة، وفتح الله حجب العلوم الأرضية من قدرته، فلم تعجب من فتح السماء؟ وألهمني ربي وقال: "إِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا"، فافهم هذا السر ولا تيأس من روح رب العالمين.

وأنت ترى أن أدنى المساكين في هذه الأيام تنعم بنعماء ما رآها أحد من آبائه بل من الملوك السابقين، ولا سليمان مع كل مجده. فإذا

منّ الله على عباده بنعمائه الجسمانية.. فكيف تظنون أنه تركهم محرومين من نعمائه الروحانية؟ فتدبّر فيما سردنا عليك واعتذر إلى الله وإلى أهل الحق إن كنت من المتورعين. اصبروا أيها المستعجلون حتى يأتي الله بأمره. ما لكم لا ترون الفتن التي كثرت فيكم، وما كان الله ليذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، فلا تيأسوا من أيام الله وهو أرحم الراحمين.

ومن اعتراضاتهم أنهم قالوا إن الأولياء لا يدعون ويقولون نحن كذا وكذا، بل أحوالهم ومسراهم تدل على كونهم أولياء، فالذي ادّعى فهو ليس وليّ الله، بل لا شك أنه من الكاذبين.

أما الجواب فاعلم أن السلف والخلف قد جوّزوا إظهار الولاية تحديثاً لنعمة الله، وإن كُتِبَ الشيخ الجيلي والمجدد السرهندي مملوءة من ذلك، وقال تعالى: [وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ] ♦، وروى ابن جرير في تفسيره عن أبي يسرة غفاري أن الصحابة كانوا لا يحسبون الشكر شكراً إلا بشرط الإظهار، لأن الله تعالى قال: [لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ] ♦. وروى الديلمي في "الفردوس" وأبو نعيم في "الحلية" أن عمر بن الخطاب رقي المنبر وقال الحمد لله الذي صيّرني كما ليس فوقني أحد. فسأله الناس عن ذلك القول، فقال ما قلت إلا شكراً لنعمة الله تعالى. وأما ما قال الله تعالى: [فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ] ♦، ففرّق بين تزكية النفس وإظهار النعمة، وإن كانا مشابهي

في الصورة. فإنك إذا عزوت الكمال إلى نفسك ورأيتك كأنك شيء، ونسيت الخالق الذي منَّ عليك فهذا تركية النفس، ولكنك إذا عزوت كمالك إلى ربك، ورأيت كل نعمة منه، وما رأيت نفسك عند رؤية الكمال بل رأيت في كل طرف حول الله وقوته ومنه وفضله، ووجدت نفسك كميّة في يد الغسل، وما أضفت إليها شيئاً من الكمال، فهذا هو إظهار النعمة. فالذين في قلوبهم مرض يسعون إلى الاعتراض مستعجلين، ولا يفرّقون بين الشاكرين المأمورين والمرائين البطّالين، ويلتبس عليهم الأمر من القرن. وهذا آخر كلامنا في ردّ اعتراضاتهم، والله يحكم بيننا وبينهم، وهو خير الحاكمين.

واعلم أن لهم اعتراضات ركيكة غير ذلك، بل كل دقيقة المعرفة في نظرهم محل اعتراض، وقد فرغنا من ردّ اعتراضاتهم الكبيرة، وأما الاعتراضات الصغيرة الواهية فالكتاب نُزّه عنها، وجاء الكتاب بفضل الله كاملاً شافياً كما ستره إذا قرأته بتدقيق النظر. وقد سردنا في هذا الكتاب أدلة قطعية يقينية صحيحة من كتاب الله وسنة رسوله، وأتممنا الحجة على المخالفين. والله يعلم أني ما انتصرتُ لنفسي في استئصال اعتراضاتهم، ولست أن أعادي أحداً لِمَا عاداني، وليس لي عدو في الأرض إلا الذي هو عدوّ الله ورسوله، وإنما انتصاري لهما.. فما أسبّ السابّين ولا ألعن اللاعنين، ولا أضيع وقتي الذي هو أزكى وأنفس في أمور لا طائل تحتها، وأفوض أمري إلى الله ربّ العالمين.

فإن كان ربِّي يخذلني.. فمن ذا الذي يُعزِّي؟ وإن كان يُعزِّي فمن ذا الذي يخذلني؟ فكل أمري في يد ربِّي. إن كان لي عنده قدر فيهب سترًا يمتدّ، وإلا فيتركني بوجهٍ يسودّ، فلا أعلم غيره أحدا الذي يُهلكني أو كان من المنجّين. وأرجو فضله، وأنتظر نصرته، وهو ربِّي منّ عليّ وأتم عليّ نعمته، يعلم ما في قلبي، وهو أرحم الراحمين. وإني وضعتُ في نفسي أن أموت على بابهِ، ولا أبرحها في كل حال من الفتح والهزيمة، حتى يأتيني نصر منه، ومن ينصرُ إلا الله، وهو نعم المولى ونعم النصير. وآذاني قومي.. ولعنوني وكفّروني.. وقالوا كافر دجال، وسمّوني بأسماء يكرهون أن يُسمّوا بها، ولقّبوني باللقاب لا يحبّون أن يلقّبوا بها، وأكثروا القول في إيماني وكانوا معتدين. فأفوّض أمري إلى الله.. هو يعلم ما في قلبي وما في قلوبهم، ولا يخفى على الله خافية.. أليس الله بأعلم بما في صدور العالمين؟

ويا قوم.. أذكركم بآيات الله:

[إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ] ♦

[إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ] ◦

[وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ] *

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ

وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا
مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ
أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ
رَّحِيمٌ ♦

[وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا] •

[وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ] *

[وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ
رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ] * وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ
يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا ثَقَالًا سَفَّاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ
الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
* وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا • [
هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ]

□

[وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفُسِدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ
ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ] •

[إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ
السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ] *

♦ الحجرات: 12-13 • النساء: 95 * البقرة: 195 • الأعراف: 57-59

□ الصف: 10 • البقرة: 252 * فاطر: 11

[إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ
إِلَّا كِبَرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * خَلَقُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
* وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ●]

[فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٥٩]

وقد خصني الله تعالى بآيات من عنده، وبارك في قولي ونُطقي،
وجعل البركة في دُعائي، وأنزل الأنوار على أنفاسي وعلى داري
وجدران بيتي، وهو معي حيثما كنت، وأرسلني ليعلم المخالفون
المعادون أن تلك النعم ثابتة في الإسلام، ولا حظ منها لغيرهم،
وليعلموا كيف مرتبة المسلمين عند الله. فوالله إن هذا الأمر صحيح
حق، ومن يقصدني بقلب سليم ونية صحيحة، ويأتيني مستفيضا
مستغيثا.. فبابتهالي وبركة دُعائي يُدرك ما طلبه، ويفوز في كل أمر، إلا
في الذي جفَّ القلم بكونه من قدر السوء. وقد شرحتُ لك يا أخي
قصتي هذه على غاية الاختصار، فانظر مكتوبي هذا بنظر الإمعان،
واستعمل الإنصاف فيه، وإني لك لمن الناصحين.

فخَفَّ ممن هو أكبر من كل كبير، وهو الملك الحقيقي الذي أشرق
بنور وجهه ما في السماوات والأرض، ويرتعد الملائكة من سلطانه،
ويهتز العرش من عظمته، وقد أعدَّ للمؤمنين الصالحين نعماء الأبد التي
لا انقطاع لها، والحياة التي لا موت بعدها. وقد خصَّكم الله يا جيران

بيت الحرام بمزايا كثيرة، وأعطاكم قلباً متقلباً مع الحق رحمةً من عنده، فانظروا في أمري يا معشر الكرام. وليس هذا الأمر من الأمور التي يُغفلُ عنها، ولا تدري نفسٌ بأي وقت تُدعى إلى السماء. واعلموا أن هذه الأيام أيام الفتن، وزمانٌ أمواج المفساد، وقد زُلزلت الأرض زلزلاً شديداً، وتكاثرت الآفات على الإسلام، فاذكروا عهد الله واتقوا أيام الطوفان والطغيان، واستمسكوا بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، واطلبوا رضى الربِّ الكريم، واجعلوا بعد خوفه كلَّ خوف تحت أقدامكم.

ونسأل الله أن يوفقكم، ويعطيكم من لدنه قوة، ويهبكم من عنده إلهاماً موقناً، ويعصمكم من الخطأ في النظر والاستعجال في إقامة الرأي وسوء الظن، ونسأله أن يُدخلكم في ملكوته مع الأنبياء والرسل والصدّيقين والشهداء والصالحين. ونحن ننتظر الجواب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

الراقم المفتقر إلى الله الصمد

غلام أحمد عافاه الله وأيد

وقد كُتب في آخر الربيع الأول سنة 1311هـ

من قاديان ضلع غورداسפור

من الهند، البنجاب

قصيدة لطيفة

لمؤلف هذه الرسالة في بيان مفسد الزمان
 وضرورة رجل يهدي إلى طرق الرحمن
 ونعت سيد الأنبياء وفخر الإنس والجان ρ

دموعي تفيض بذكرِ فتن أنظرُ وإني أرى فتناً كقطرٍ يطرُ
 تهبّ رياح عاصفات مبيدةً وقلّ صلاحُ الناس والغِيّ يكثرُ
 وقد زُلزِلت أرضُ الهدى زلزالها وقد كُدرت عين النقي وتُكدرُ
 وما كان صرْخٌ يصعدنّ إلى العلى وما من دعاء يُسمعنّ و يُنصرُ
 فلما طغى الفسق المبيد بسيله تمنيتُ لو كان الوباءُ المُتبرُ
 فإن هلاك الناس عند أولي أحبُّ وأولى من ضلال يُخسرُ
 النهي

على أجدرِ الإسلام نزلت حوادثُ وذاك بسيئات تُذاع وتُنشرُ
 وفي كل طرف نارُ فتن تأججت وفي كل ذنب قد تراءى التقُّرُ
 ومن كل جهة كلُّ ذنب وغرة يعيث بوثب والعقارب تأبُرُ
 وعينُ هدايات الكتاب تكدرتُ بها العينُ والآرام يمشي ويعبرُ
 تراءت غواياتُ كريح عاصفٍ وأرخی سدول الغيِّ ليلٌ مُكدرُ
 وللدن أطلالٌ أراها كلاهف ودمعي بذكر قصوره يتحدّرُ
 أرى العصر من نوم البطالة نائماً وكل جهول في الهوى يتبخّرُ
 وليلا كعين الطي غابت نجومه وداءٌ لشدّته عن الموت تُخبرُ
 نسوا نَحَجَ دين الله خبثاً وغفلة وأفعالهم بغِيّ وفسق وميسرُ

وما همُّهم إلا لحظّ نفوسهم
وقد ضيّعوا بالجهل لبنًا سائعا
وركب المنايا قد دناهم بسيفهم
تصيّدُهم الدنيا بعظمة مكرها
تذكّر إفلاسا وجوعا وفاقة
تريد لئلهلك في التغافل أهلها
وأهت عن الدين القويم قلوبهم
تقود إلى نار اللظى وجنائها
وتدعو إليها كلّ من كان هالكا
تميس كيكّر في نقاب المكائد
ودقّت مكائدها فلم يُدر سرّها
وتبدو كترس في زمان بكيدها
وعين لها تصبي الوري فتانة
عجبت لمنظر ذات شيب عجوزة
لرمت اصطبارا إذ رأيت جمالها
فصيرّها ري لنفسي سرّيّة
وذلك فضل من كريم ومحسن
وقد ضاقت الدنيا على
عشاقها

وما جهدهم إلا لعيش يوفّر
ولم يبق في الأقداح إلا ماضر
وهم خيل شحّ ما دناهم تحسّر
فيا عجباً منها ومما تمكّر
فتدعو إلى الآثام مما تذكّر
وقد عقرت همّ اللثام وتعقر
فمالوا إلى لمعاتها وتخيروا
ولمعاتها تصبي القلوب وتخرّ
فكلّ من الأحداث يدنو ويخطر
وتبدي وميضاً كاذبا وترور
لما نسجتّها من فنون تكور
وفي ساعة أخرى حُسام مشهر
ولقتل أهل الفسق كشح مخصر
أنيق لعين الناظرين وأزهر
فقلت إلهي أنت كهفي ومأزر
كجارية تلقى بطوع وتجر
ويعطي المهيمن من يشاء ويحجر
ويغونها عشقا وحبّا فتدبر

تراحمت الطلاب حول لحومها
كمثل كلاب والمنايا تسخر

وَإِنَّ هَوَاهَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ
وَقَدْ مَضَعَتْ أُنْيَابُهَا كُلَّ طَالِبٍ
عَلَى كُلِّ قَلْبٍ قَدْ أَحَاطَ ظِلَامُهَا
إِذَا مَا رَأَيْتُ الْمُسْلِمِينَ كَلَابِهَا
عَلَى فَسَقِهِمْ لَمَّا أَطْلَعْتُ وَكَسَلِهِمْ
أَكْبَوْا عَلَى الدُّنْيَا وَمَالُوا إِلَى
الْهَوَى

أَرَى ظِلْمَاتٍ لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلُهَا
فَسَادَ كَطُوفَانٍ مَبِيدٍ وَإِنِّي
أَرَى كُلَّ مَفْتُونٍ عَلَى الْمَوْتِ مُشْرِفًا
فَأَنْقَضَ ظَهْرِي ضَعْفُهُمْ وَوَبَاهُمْ
فِيَا رَبِّ أَصْلَحْ حَالِ أُمَّةٍ سَيِّدِي
وَلَيْسَ بِرَاقٍ قَبْلَ أَنْ تَأْخُذَنِّي يَدًا
وَقَدْ نُشِرَتْ ذَرَائُنَا مِنْ مَصَائِبٍ
وَلَا تُخْرِجْنِي سِيفًا طَوِيلًا لِقَتْلِنَا
وَإِنْ تُهْلِكُنَا يَا رَبَّنَا بِذُنُوبِنَا
وَلَا أَبْرَحُ الْمَضْمَارَ حَتَّى تَعِينَنِي
وَإِنِّي أَرَى أَنَّ الذُّنُوبَ كَبِيرَةٌ
إِلَهِي أَغْنِنَا وَاسْقِنَا وَاحْمِ عِرْضَنَا
يُسِّنَا مِنَ الْمَخْلُوقِ وَانْقُطِعِ الرَّجَا

فَخَفَّ حُبُّهَا يَا أَيُّهَا الْمَتَبَصِّرُ
وَأَنْتَ أَثَارَتَهُمْ فَسُوفَ تُكَسِّرُ
سُورَى قَلْبٍ مَسْعُودٍ حَمَاهُ الْمَيْسِرُ
فَفَاضَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ وَالْقَلْبُ يَضْجُرُ
بَكَيْتُ وَلَمْ أَصْبِرْ وَلَا أَتَصَبَّرْ
وَقَدْ حَلَّ بَيْتَ الدِّينِ ذَنْبٌ مَدْمِرٌ
وَذَقْتُ كُؤُوسَ الْمَوْتِ لَوْلَا أُتَوَّرُ
أَرَاهُ كَمَوْجَ الْبَحْرِ أَوْ هُوَ أَكْثَرُ
وَكُلُّ ضَعِيفٍ لَا مُحَالَةَ يَعْثُرُ
وَمَنْ دُونَ رَبِّي مَنْ يَدَاوِي وَيَنْصُرُ؟
وَعِنْدَكَ هَيِّنٌ عِنْدَنَا مَتَعَسِّرُ
وَلَيْسَ بِسَاقٍ قَبْلَ كَأْسٍ تُقَدِّرُ
وَمِتْنَا فَلَا تَذْكُرْ ذُنُوبَنَا تَنْظُرُ
وَتُبُّ وَاعْفُوقُنْ يَا رَبِّ قَوْمَ صُغُرُوا
فَنَفْنَى بِمَوْتِ الْخَزْيِ وَالْخِصْمِ يَبْطُرُ
وَلَا بُدَّ لِي أَنْ أَهْلَكَنَّ أَوْ أَظْفُرُ
وَأَعْرِفْ مَعَهُ أَنَّ فَضْلَكَ أَكْبَرُ
بِسُلْطَانِكَ الْأَجَلِي وَإِنَّكَ أَقْدَرُ
وَجَنَّتَاكَ يَا مَنْ يَعْلَمُنْ مَا يُضْمَرُ

تعاليت يا مَنْ لا تُحاطُ كمالُهُ
تَصَدَّقْ بِالطَّافِ كَمَا أَنْتَ أَهْلُهَا
فَخُذْ بِيَدِي يَا رَبِّ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ
أَتَيْتُكَ مَسْكِينًا وَعَوْنُكَ أَعْظَمُ
قَدْ انْدَرَسَتْ آثَارُ دِينِ مُحَمَّدٍ
أَرَى كُلَّ يَوْمٍ فَتْنَةً قَدْ مُدِّدَتْ
وَقَدْ أَرْمَعُوا أَنْ يَزْعَجُوا سَبَلَ الْهُدَى
أَرَى كُلَّ مَحْجُوبٍ لَدُنِيَا بَاكِيا
فِيَا نَاصِرَ الْإِسْلَامِ يَا رَبَّ أَحْمَدَا
أَيَا رَبِّ مَنْ أَعْطَيْتَهُ كُلَّ دَرَجَةٍ
وَمَا زِلْتَ ذَا لَطْفٍ وَعُطْفٍ وَرَحْمَةٍ
فَلَا تَجْعَلْنِي مَضْغَةً لِمَحَارِبِي
وَأَنْتَ الْمَهِيْمُنُ مُرْجِعُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
وَمَا غَيْرُ بَابِ رَبِّ إِلَّا مَذَلَّةٌ
وَعُلِّمْتُ مِنْكَ حَقَائِقَ الدِّينِ وَالْهُدَى
إِذَا مَا بَدَأَ لِي أَنْ عِلْمِي غَامِضٌ
فَسَلَّمْتُ بَعْدَ الْإِهْتِدَاءِ بِفَضْلِهِ
وَإِنْ الْهُدَايَةَ يَرْجِعُنَّ نَحْوَ طَالِبٍ
وَوَاللَّهِ لَا يَشْقَى الَّذِي هُوَ يَطْلُبُ
وَمَنْ كَانَ أَكْبَرَ هَمِّهِ جَلْبَ لَذَّةٍ
لَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا لَيْسَ يُحْصَى وَيُحْصَرُ
وَأَدْرِكُ عِبَادًا لَكَ كَمَا أَنْتَ أَقْدَرُ
وَأَيِّدْ غَرِيبًا يُلْعَنُ وَيُكْفَرُ
وَجِئْتُكَ عَطْشَانًا وَبِحُرِّ أَزْخَرُ
فَأَشْكُو إِلَيْكَ وَأَنْتَ تَبْنِي وَتَعْمُرُ
وَمَتْنَا وَأَمَوَاتُ الْأَعَادِي بُعِثُوا
وَكَمْ مِنْ أَرَاذِلَ مِنْ شَقَاهُمْ تَنْصُرُوا
فَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْكِي لَدِينٍ يُحَقَّرُ
أَغْنِنِي بِتَأْيِيدٍ فَإِنِّي مُدْخَرُ
وَشَأْنًا بِرُؤْيَيْهِ الْوَرَى تَتَحِيرُ
وَمَا كُنْتُ مُحْرُومًا وَكُنْتُ أَوْفَرُ
وَأَنْتَ وَحِيدِي كُلَّ خَطَا تَغْفِرُ
وَأَنْتَ الْحَفِيزُ تَعِينِي وَتُعَزِّرُ
وَمَا غَيْرُ نَوْرِ رَبِّ إِلَّا تَكْدُرُ
وَتَهْدِي بِفَضْلِكَ مَنْ تَرَى وَتُنَوِّرُ
فَأَيَقَنْتُ أَنِّي عَنْ قَرِيبٍ سَأُكْفَرُ
سَلَامَ الْوَدَاعِ عَلَى الَّذِي يَسْتَنْكَرُ
وَمَنْ غَضَّ عَيْنِي رُؤْيَا أَيْنَ يُبْصِرُ؟
وَمَنْ جَدَّ فِي تَحْصِيلِ هَدْيٍ سَيُنْصَرُ
وَحِطٌّ مِنَ الدُّنْيَا فَكَيْفَ يُطَهَّرُ

أُمُكْفِرٍ! مهلاً بعضَ هذا التحكم
وإن ضياء الدين قد حان وقته
ويا حسراتٍ موبقاتٍ على الذي
وما جئتُ قومي من ديار بعيدة
وأعرضَ عني كلُّ من كان صاحبي
تمنيتُ أن يخفى تطاولُ قولهم
ويعوي عدوي مثل ذئبٍ من طوى
وما رُزقتُ عيناه من نيرِ العلى
أولئك قوم ضيعوا أمرَ دينهم
ويعلم ربي سرَّ قلبي وسرَّهم
ولو كنتُ مردودَ الملِكِ لضرَّني
وهمَّوا بتكفيري وقاموا للعني
إذا قيل إنك مرسلٌ خلتُ أني
وكنتُ على نورٍ فزاعوا من العمى
وما ديننا إلا هدايةُ أحمدا
وقد كنتُ أنسى كلَّ جورٍ مُعيري
وكم من دلائلٍ قد كتبتُ لطالبٍ
ألا أيها المتكبر المتشدِّدُ
وإذ قلتُ إني مسلمٌ قلتُ كافر
وبعد بياني أين تذهب منكراً

وَحَفَّ فَهَرَبَ قَالَ [لَا تَقْفُ] فَاحْذَرُوا
فتعرف شجرتنا بما هي تُثمرُ
يكذِّبني من غير علم ويُكْفِرُ
وقد عرفوني قبله ثم أنكروا
وأفردتُ إفرادَ الذي هو يُقْبَرُ
وهل يخنفي ما في المجالس يُذكرُ؟
وليس له علم بما هو أذكرُ
فأخلدَ نحو الأرض جهلاً ويُكْرُ
وخانوا العهود وزينوا ما زوروا
وكلَّ خفيٍّ عنده متحصِّرُ
عداوة قومٍ كذَّبوني وكفروا
ولم يعلموا أن المهيمن ينظرُ
دُعيتُ إلى أمرٍ على الخلق يعسرُ
وهل يستوي الأعمى ورجلٌ يبصرُ
فياليت شعري ما يظن المكفِّرُ
ولكنه جور كبير مكوِّرُ
يفكر فيها لودعني مُدبِّرُ
تريد هواني والكريم يُعزِّرُ
فأين الثقي يا أيها المتهورُ
أتعلم يا مسكين ما هو مُضْمَرُ

بأيديك كأس الموت ما لك تُخَطِرُ
 وأما الشقي فيعلمن حين يخسر
 فلا السب يؤذيني ولا المدح يُطِرُ
 أتاني فلم أصغر وما كنت أصغر
 وأدعو لمن يدعو علي ويهدر
 ويكسر ربي رأس من يتكبر
 ومن كل ذي الأبصار يلوي ويسخر
 وتذم ما هو مستطاب وأطهر
 وما أنا إلا الليث لو تتفكر
 ولكن غبي يضحكن ويحقر
 وهيهات، أهل الحق كيف يعبر
 وثبنا إلى الرب الذي هو أقدر
 وإن الصدوق بفضله يُتخير
 ولكنه من يُظلمن ويصبر
 وأما علامات الأذى فتغير
 وأي علامات ترى إذ تكفر
 رضينا متبوعا ورئي ينظر
 إليه رغبتنا مؤمنين فنشكر
 له لمعات لا يليها تصوّر
 أبعد رسول الله وجه منور

فلا تتجرع أيها الضال في الهوى
 وكل سعيد يعرف الحق قلبه
 وإني تركت النفس والخلق والهوى
 وكم من عدو بعدما أكمل الأذى
 أحسن إلى من لا يحسن محبة
 خذ الرفق إن الرفق رأس المحاسن
 عجت لأعمى لا يداوي عيونه
 أتسى نجاسات رضىت بأكلها
 تُسمين جهلاً يا ابن آوى ثعلباً
 تفيض عيون العارفين بقولنا
 تُعيرني ظلماً وكبراً ونخوة
 صبرنا على ظلم الخلائق كلها
 تركنا القلي والله كافٍ لصادق
 وليس الفتى من يقتل الناس سيفه
 أرى الظلم يبقى في الخراطيم وشمه
 أتكفري يا أيها المستعجل
 وإن إمامي سيد الرسل أحمد
 ولا شك أن محمداً شمس الهدى
 له درجات فوق كل مدارج
 أبعد نبي الله شيء يروقي

لكل ظلامٍ نورٌ وجهك نيرٌ
ويُثني عليك الصبحُ إذ هو يجشُرُ
لأرفعَ من مدحي وأعلى وأكبرُ
أمامَ جلاله شأنه الشمسُ أحقرُ
وذروا له طرقَ التشاجرِ تُؤجروا
وفي كل آن من سناه أُتورُ
وإني به أجني الجنى وأنصرُ
وإن بياني عن جنائي يُخبرُ
وكيف أردّ عطاءَ ري وأفجرُ
وأبكي له ليلاً نهاراً وأضجرُ
وعندي صراخٌ مثل نارٍ مُسعرُ
وقلبي من التوحيد بيتٌ مُعطرُ
غذائي نَميرُ الماء لا يتغيرُ
وقولي بفضل الله دُرٌّ مُنورُ
ويُزعج نطقي كلَّ وهمٍ ويحذرُ
وكشفي كصبح ليس فيه تكدرُ
وإن بياني في الصخورِ يؤثّرُ
فصار فؤادي مثل نهرٍ يُفجرُ
فطوبى لقلبٍ يتقيها ويحذرُ

عليك سلامُ الله يا مَرَجَعَ الوري
ويحمدك الله الوحيد وجنده
مدحتُ إمامَ الأنبياء وإنه
دَعُوا كلَّ فخرٍ للنبي محمد
وصلُّوا عليه وسلِّموا أيها الوري
ووالله إني قد تبعْتُ محمداً
وفَوَّضَني ربي إلى روضٍ فيضه
ولدينه في جذرٍ قلبي لوعةٌ
ورثتُ علومَ المصطفى فأخذتها
وكيف وللإسلامِ قمتُ صباةً
وعندي دموعٌ قد طلعنَ المآقيا
تضوَعُ إيماني كمسكِ خالصٍ
وفي كل آن يأتين من خالقي
تضيء الظلامَ معارفي عند منطقي
إلى منطقي يرنو الفهيم تعشقا
سنا برقٍ إلهامي ينيرُ لياليا
وإن كلامي مثل سيفٍ قاطع
حفرتُ جبال النفس من قوة العلي
وأَدْعِيَتِي عند الوغى تقتل

العدا

وآذاني قومي بسبِّ ولعنةٍ
 إذا ما تحامتني مشاهير ملتي
 فريق من الإخوان لا ينكرونني
 وقد زاحموا في كل أمر أردته
 فأقسمتُ بالله الذي جلَّ شأنه
 وما أنا عن عون المعين بمُبعدٍ
 وقد قادني ربي إلى الرشد والهدى
 وإن كريمي يُطلق الكفَّ بالندی
 ولا زال ممدوداً عليّ ظلاله
 أكان لكم عجباً بيعتٍ مجدِّدٍ
 أمامك يا مغرورُ فتنٍ محيطه
 فهذا على الإسلام يوم المصائبِ
 وللکفر آثار وللدين مثلها
 أحسب أن الله يُخلف وَعْدَهُ
 ويأتيك وعدُ الله من حيث لا ترى
 وقد علم الأعداء أنني مؤيَّدٌ
 ألا أيها الإخوان بَشُّوا وأبشروا
 وليس لعَصْبِ الحق في الدهر كاسرٌ
 وهل جائز سبُّ المؤيَّد بعدما
 وكم من لسان لا يضاهيه خنجرُ
 فقلتُ أخسأوا إن الخفايا ستظهرُ
 وحزب يكذب كل قولي ويزجرُ
 وكلُّ يخوِّفني و ربي يُبشِّرُ
 على أنه يُخزي عدوي ويَشْرِزُ
 إذا الليل وارانِي فنورٌ يُنَوِّرُ
 ووَقَّرني مَنْ عنده فأوقَّرُ
 ولي من عطاء الرب رزقٌ يُوقَّرُ
 ونعمائِهِ كثرَتْ عليّ وتكثُرُ
 هلمَّ انظروا فتنَ الزمان وفكِّروا
 وأنت تسبُّ المؤمنين وتهجُرُ
 يُكفِّرُ مثلي والرياضُ حَبَّوكرُ
 فقوموا لتفتيش العلامات وانظروا
 أتُنسى المواعيد التي هي أظهرُ
 فتعرفه عينٌ تحُدُّ وتُبصِّرُ
 ولكنهم من حقدهم قد أنكروا
 هنياً لكم عيدٌ جديدٌ أكبرُ
 وما يضعون من الحديد فيكسرُ
 أتت آيةُ المولى وظهرَ المُصمِّرُ

وفي يد ربي كلُّ عزٍّ وسؤددٍ
فمن ذا يعاديني وربي يحبني
لنا كل يوم نصرَةٌ بعد نصرَةٍ
وما أنا ممن يمنع السيفُ قصده
يسبّ ويعلم أنه يترك التقي
وما إن رأينا وعظله غيرَ فتنةٍ
وكفرّني حتى ظننّا أنه
عجبت له لا يترك شروره
ومن عجب الأيامِ أني كافر
وكيف أخاف الحاسدين وسبهم
أحبّ مصائب سبل ربي وإنها
أيا أيها الألوّى كسبِعَ تغيّظاً
فلا تقفُ ما لا تعلمن أسراره
وجهلك أعجبني وطول امتداده
أثقبِرُ حيّاً مثل ميتٍ خيانه
إلامَ فسادُ القلبِ يا تارك الهدى
ووالله إني مؤمن غير كافر
فيا سالكِي سبل الشياطين اتقوا
وطوبى لإنسان تيقّظَ وانتهى
ووالله إني جئت منه مجدداً
وعزیزه من كيدكم لا يحقر
ومن ذا يراديني وربي مُعزّر
ويأتي الحبيب مقامنا ويبشّر
فكيف يخوّفي بشتِمٍ مُكفّر
على مثله الوُعّاظ يبيكي المنبر
وما زالت الشحاء تنمو وتكثر
سيصلی بحبّ الكفر ناراً يُسعر
وذکره من كل نصحٍ مُذکر
بأعين رجلٍ حاسدٍ بل أكفر
ويرحمي ربي ويؤوي وينصر
لأطيب لي من كل عيش وأطهر
فستعلمن في أي شكل تُحشّر
وكم من علوم الحق تخفي وتستر
وإن الفتى بعد الجهالة يشعر
ويعلم ربي كلّ ما أنت تستر
إلامَ إلى سبل الشقاوة تسفر
وأيّن التقي لو كان مثلي يفجر
قدیرا علیما واحذروا وتذكروا
وخاف يد المولى وسيفاً يُثعجر
بوقتٍ أضلّ الناس غولٌ مُسخر

وَعَلَّمَنِي رَبِّي عُلُومَ كِتَابِهِ
 وَأَسْرَارِ قُرْآنٍ مُجِيدٍ تَبَيَّنَتْ
 كَأَنَّ الْعِزَّادِي بِالْوُجُوهِ الْمُنِيرَةِ
 أَلَا إِنَّ الْأَيَّامَ رَجَعْتُ إِلَى الْهُدَى
 وَقَدْ اصْطَفَانِي خَالِقِي وَأَعَزَّنِي
 وَوَاللَّهِ مَا أَمْرِي عَلَيَّ بِغَمَّةٍ
 إِذَا قَلَّ دِينَ الْمَرْءِ قَلَّ اتِّقَاؤُهُ
 وَمَنْ ظَنَّ ظَنَّ السَّوِّءِ بُخْلًا فَقَدْ هَوَى
 وَلَا يَعْلَمَنَّ أَنَّ الْمَنَايَا قَرِيبَةٌ
 وَهَلْ نَافِعٌ وَرَدُّ التَّنَدُّمِ بَعْدَهَا
 أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا وَقْتَ مَوْتِكُمْ
 وَقَدْ ذَابَتِ الصَّفَوَاءُ مِنْ بَيْتِ عَمْرِكُمْ
 وَمَسْحُ الْحِمَامِ سَيَحْمِلُنَّكَ عَلَى
 الْمَطَا

أَلَا لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ شَيْءٌ مُدَوِّمٌ
 تَذَكَّرْ دِمَاءَ الْعَارِفِينَ بِسَبِيلِهِ
 وَإِنَّ الْمَنَايَا سَابِحَاتٌ قَوِيَّةٌ
 وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّذِي
 وَكَلَّ جَلِيسٍ مَا خَلَا اللَّهَ يَهْجُرُ
 أَلَمْ يَأْنِ أَنْ تَحْشَى، أَنْتَ مُحَرَّرٌ؟
 أَثَرْنَ غِبَارًا عِنْدَ حُكْمٍ يَصْدُرُ
 هَدَانَا مَنَاهِجَ دِينِ حَزْبٍ طَهَّرُوا

